

د. محمد العبد

استاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية

كلية الألسن - جامعة عين شمس

العبارة والإشارة

دراسة في نظرية الاتصال

مكتبة الأديب

٤١ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت ٣٩٠٠٨٦٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الناشر

مكتبة الآداب

كافة حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

المبد، محمد.

المباراة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال /
محمد العبد، ٢٤٠ - القاهرة، مكتبة الآداب،
٢٠٠٧.

٢٢٤ ص، ٢٤٠ سم.

تدمك ٥ ٨٢١ ٢٤١ ٩٧٧

١ - الاتصال (علم اجتماع)

أ. العنوان

٢٠١، ١٤

عنوان الكتاب، المباراة والإشارة (دراسة في نظرية الاتصال)

المكتوب، محمد العبد

رقم الإيداع، ٢٠٠٧/٢٤٢٨

الترقيم الدولي، 5 - 821 - 241 - 977 I.S.B.N.

النشر

١٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

هاتف ٧٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)

e-mail: adabbook@hotmail.com

الفهرس

- 6..... بر يدي الطعمة الثانية
- 7..... مقدمة
- (14-9) * مدخل الاتصال مفهومه وأشكاله وقنواته
- 11..... (1) مفهوم الاتصال
- 12..... (2) أشكال الاتصال
- 14..... (3) قنوات الاتصال
- (98-15) * الفصل الأول :الاتصال اللفظي
- 15..... (1) الاتصال اللفظي مفهومه وخصائصه وأشكاله
- 15..... (أ) مفهوم الاتصال اللفظي
- 21..... (ب) خصائص الاتصال اللفظي
- 25..... (ج) أشكال الاتصال اللفظي
- 30..... (2) تصنيفات الوظائف ومخططات الاتصال
- 33..... (أ) تصنيف مالىنوفسكى
- 33..... (ب) تصنيف بولر
- 34..... (ح) تصنيف شانون/ ويتر
- 35..... (د) تصنيف ياكوبسون
- 36..... (هـ) تصنيف موريس
- 37..... (و) تصنيف بريتون
- 39..... (ز) تصنيف لينش
- 42..... (ح) تصنيف هاليداي
- 47..... (3) إثنوجرافيا الاتصال
- 55..... (أ) الموقف الكلامي

56.....	(ب) الواقعة الكلامية.....
57.....	(ج) الحدث الكلامي.....
60.....	(4) الاتصال والتداولية.....
61.....	(أ) التداولية وقوانين التفاعل.....
65.....	(ب) التداولية وقوانين التفسير.....
66.....	(ج) التداولية والمقصدية.....
75.....	(د) التداولية والمرفقية.....
89.....	(5) النص الأدبي بوصفه اتصالاً.....
(134-99)	* الفصل الثاني: الاتصال غير اللفظي (السلوك الحركي)
99.....	(1) الاتصال غير اللفظي : مفهومه وحدوده.....
105.....	(2) السلوك الحركي وأصل اللغة.....
107.....	(3) السلوك الحركي والسياق الثقافي.....
109.....	(4) السلوك الحركي ووظائفه العامة.....
116.....	(5) السلوك الحركي ووظائفه الخطائية.....
(154-135)	* الفصل الثالث: العبارة والإشارة وموقف التراث العربي
135.....	(1) العوامل والمحددات الموقفية الاتصالية.....
136.....	(أ) محدد الرؤية.....
136.....	(ب) محدد النظر والإصغاء.....
137.....	(ج) محدد مقام الصوت.....
137.....	(د) محدد الحركات والتصوينات السلية.....
138.....	(هـ) محدد العرف والعادة.....
139.....	(و) محدد دلالة الحال.....
140.....	(ز) محدد الإبقاء على إقامة الاتصال.....
140.....	(ح) محدد السكوت.....

141	(2) هل عرف القدماء السلوكيات الحركية فناً للاتصال؟
143	(أ) الإشارة ونظرية الجاحظ البيانية
149	(ب) ابن جني ومشاهدة الأحوال
(214-155)	* الفصل الرابع : السلوك الحركي من اللغة المكتوبة
157	(1) تعبيرات الرجة والعينين
171	(2) الإشارات والحركات
193	(3) الهيئات والأوضاع الجسمية
204	نتائج التحليل للتنظير
213	قائمة المراجع
213	(أ) المراجع العربية والمترجمة
217	(ب) المراجع الأجنبية

بين يدي الطبعة الثانية

شهدت العقود الثلاثة الأخيرة من تاريخ اللسانيات نمواً وازدهاراً هائليين لنظريات وُضعت بذورها في حقل البحث اللساني في فترات سابقة وأنتجت علوماً من علوم؛ كالتداولية، وعلوم الاتصال، واثولوجيا الاتصال، واللسانيات الإثنومثودولوجية، وعلم الكائنات (أو السلوك الحركي)، وغيرها. كان هذا الكتاب العارة والإشارة، عند صدوره في طبعته الأولى عام 1995 - وما زال - رغبة في أن يكون همزة وصل بين القارئ العربي المهتم وتلك العلوم جميعاً في نطاقات تعريفية مناسبة.

ونشهد الحال بين أهل الاختصاص اللغوي على أن علومنا كالمذكورة آنفاً ما زالت تعاني فقراً مدقعاً في التعريف بها والإفادة منها، على رغم ما نكتب وترجم عليه يوماً بعد يوم من أهمية بالغة.

أما الآن، فهذه هي الطبعة الجديدة المنقحة والمزينة من ذلك الكتاب، قامت على رعايتها مكتبة الآداب، فأناحت من ثم انتشاراً أوسع لأفكار عرضتها منذ أكثر من عقد من الزمان، ولكنها ما زالت حية، ومازلنا بحاجة ماسة إلى الخوض في أعماقها وسبر أغوارها.

كان أخى الكريم الأستاذ أحمد على حسن صاحب مكتبة الآداب قد أكرمني بإصدار طبعة جديدة أتيقن من كُنْابى «المفارقة القرآنية»، وها هو ذا يجود ثانية بحماسة وترحيبه بإصدار هذه الطبعة الجديدة من الكتاب الذى بين أيدينا. جزاه الله خيراً وأدام عليه نعمة السداد.

المؤلف

القاهرة الجديدة / يناير 2007 م

مقدمة

الاتصال اللفظي هو الأساس الذي يبنى عليه التفاعل اللغوي بين الناس، إنه الوسيلة التي نكتب بها - منذ الصغر - المعرفة والقيم في مجتمعنا، كما أنه دعامة التصور المعرفي في تاريخ الإنسان ودليله، ومن هنا كان اللسان دليلاً على الاتصال. ويوصف الاتصال الإنساني - في الجانب الأعظم منه - بأنه عمل متعدد القنوات. وهو يمارس على المستويين: اللفظي وغير اللفظي، بما لكل مستوى منهما من أنماط أخرى فرعية. ولا تكتمل نظرية الاتصال إلا بهذين المستويين الرئيسيين معاً. ووضع الاتصال غير اللفظي مع الاتصال اللفظي - في تلك النظرية - لا يعنى جعله ندأ له، بقدر ما يعنى أننا لا نتصل بعلامات لغوية فحسب، بل نتصل بالحركات والإشارات أيضاً. وهى علامات بصرية لا ينبغى لنا أن نبخسها حقها فيما تشغله في عملية التخاطب بين أفراد الجماعة الكلامية.

إن الكلام وسيلة واحدة فقط من وسائل متعددة يتصل بها الناس، ولكنه أكثر هذه الوسائل شيوعاً وفعالية. إلى جانب القناة السمعية المستخدمة في التكلم، يستخدم الناس قنوات أخرى. لا سيما لقناة البصرية، وذلك عندما يعملون الحركات الجسمية وتعبيرات الوجه ونحوها ووسائل اتصالية مرئية في ضوء ما اعتادته الجماعة الكلامية التي يشتمون إليها. ولكن نظل العلامات اللفظية أهم وسائل الاتصال. بهذه العلامات نعرض لأنفسنا المعرفة فتحل لا نستطيع - مثلاً - أن نعرض نظرية فلسفية أو واقعة تاريخية، دون مقدرة على الكلام عنها.

وقد شغل الاتصال بالباحثين في ميادين معرفية مختلفة، باعتباره أساس الحضارة والثقافة على الجملة. شغل الاتصال اللغويين، والسيمائيين، وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، وعلماء النفس والتربية وغيرهم. ولعل اللغويين والسيمائيين أشد الناس انشغالاً بسنة الاتصال ووسائله. ولا تنكر العلوم اللغوية والسيمائية ما قدمته من يديها العلوم الاجتماعية جميعاً بفروعها المختلفة لا سيما الأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا والإثنوميثودولوجيا من مناهج ونظريات فتحت للبحث اللغوي والسيمائي في الاتصال

أفاناً جديدة، وجعلته أقدر على استكناه الواقعة الاتصالية فى حيويتها وفاعليتها التبليغية بين المتخاطبين. وكان لا بد - والأمر هكذا - أن يمتد النظر اللغوى فى البحث الذى بين أيدينا، إلى الإفادة من معطيات تلك العلوم الاجتماعية إحاطةً بمسالك الاتصال المتشعبة. وقد فصلت هذا العمل إلى أربعة فصول: عرضت فى أولها للاتصال اللفظى ومفهومه وأشكاله ومسائله الجوهرية؛ كوظائف الاتصال، وإثنوجرافيا الاتصال، وتداولية الاتصال، والنص الأدبى بوصفه اتصالاً. وفى الفصل الثانى عرضت للاتصال غير اللفظى؛ فالمت بأشكاله المختلفة، وأعصت القول فيما تلا للإشارة أو السلوكيات الحركية بأنماطها وطبقاتها المتعددة، مفيداً فى ذلك عما قدمته أحدث الأعمال العلمية فى هذا الميدان من مناهيم وآراء ونتائج. أما الفصل الثالث، فقد سعى فيه إلى استكشاف موقف التراث العربى من الاتصال غير اللفظى، من جهة توظيف السلوكيات الحركية فى عملية التخاطب المباشر. وقد حدا بنا إلى هذه المحاولة علمنا وثقتنا الكاملة بعقول مستنيرة، يزهر بها التراث العربى، ولا يكاد يدانيها من المحدثين من امتلات حوصلتهم الضيقة بما ظنوه حديثاً كلياً، فسكنوا عن معرفة قديمه الأصيل.

أما الفصل الأخير، فقد جعلته تحليلاً للسلوكيات الحركية من اللغة المكتوبة - بمفهومها العلمى الدقيق - ممثلة فى القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، والشعر العربى: المشرقى والأندلسى. وقد قصدت بذلك إلى تأسيس بناء معرفى للسلوك الاتصالى الحركى الخاص عند العرب، بما يعرضه من عادات اتصالية مختلفة عرفت بها الجماعة الكلامية فى البيئة العربية، حتى إذا رغبتنا فى بحث السلوك الاتصالى الحركى فى اللغة المنطوقة الآن، كانت إجراءات المقارنة والربط سهلة ميسورة.

وبعد، فحديث الثمرة عن نفسها خير من حديثى عنها. وليس لى الآن - وقد نضجت - إلا الدعاء أن تنال القبول والرضا، وأن ينفع الله تعالى بها قدر ما وهب لها من رعاية وما يؤذل فيها من جهد.

المؤلف

غرة المحرم 1428 هـ / يناير 2007 م

مدخل

الاتصال: مفهومه وأشكاله وقنواته

(1) مفهوم الاتصال

يعرف سوينسكى Sowiński الاتصال بأنه نقل المعلومات بين الأفراد نقلاً مقيداً بقناة محددة. ويعرف الاتصال أيضاً بأنه نظم صناعة الأخبار بواسطة العلامات⁽¹⁾. ويعرف هوكيت Hockett الاتصال بأنه المؤشر على إحداث استجابة⁽²⁾. ويقره على هذا التعريف كلاكهون Kluckhohn⁽³⁾.

ويبنى تعريف سوينسكى الأول - كما هو واضح - على أهم مكونات الحدث الاتصالي: المحتوى (وجود معلومة)، والمشاركين (ينقلها مرسل إلى مستقبل)، والقناة (من قناة اتصال بعينها: سمعية أو بصرية... إلخ). ونحسب أن تعريفه الثانى لا يختلف كثيراً عن الأول، فالأخبار هنا (مكون المحتوى) تضاهى المعلومات هناك، والعلامات هنا (مكون الوسيط أو القناة) تضاهى القناة هناك، وغالباً ما تكون العلامات سمعية (فى الاتصال اللفظى المنطوق) أو بصرية (فى الاتصال اللفظى المكتوب) والاتصال المحركى بالطبع). ولعل التعريف الأول أكثر وضوحاً وإبرازاً لمكونات الاتصال الرئيسة من التعريف الثانى الذى نزع صياغته إلى التعميم والتجريد.

والوظيفة التى يبرزها هذان التعريفان - شأنهما شأن تعريفات أخرى عدة - هى الوظيفة الغالبة أو المهيمنة فى كل حدث اتصال. بيد أننا نلاحظ أن وظيفة

(1) Sowiński, Bernhard : Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart - Berlin - Koeln - Mainz (1983) S. 67

(2) Hockett, C., F., : A Course in Modern Linguistics, Macmillan Co., (1958) P. 573

(3) Kluckhohn, C., : Notes on some Anthropological Aspects of Communication, Amer. Anthropol. (1961) Vol. 63, pp. 895 - 910, p. 895.

الاتصال، ليست دائماً نقل المعلومة أو صناعة الخبر ونحوهما؛ فربما اقتضت وظيفة الاتصال على عمل جوهري من المواقفة الاجتماعية التي تعد مؤثراً عاطفياً، يبدو معادلاً للتسليم الحار أو الاحتضان.

ومهما يكن من أمر، فإننا نحب أن نعرف سونسكي الأول، هو أفضل التعريفات المتاحة للاتصال، لاسيما أن تعريف هوكيت يفتح باباً للنقاش الطويل، فقد يفهم منه ضمناً أن كثرنة الاتصال بالفاعل : هناك الفعل (مرسل يوجه رسالة)، ورد الفعل (مستقبل يستجيب لتلك الرسالة على نحو أو آخر). ولا شك أن توفر عنصر التفاعل يحقق للاتصال غايته كاملة، ويجمله قائماً على مشاركة متكافئة بين طرفي. لكننا لا نرتضى أن يكون الاتصال معادلاً للتفاعل، فأننا أحبه نقلى إليك معلومة غير قناة ما اتصالاً، سواء أصدر عنك رد فعل نحوها أم لم يصدر، وربما جملنا من رد الفعل أيضاً السكوت عن التعليق على المنقول.

(2) أشكال الاتصال

بالنظر إلى عدد الأشخاص المشاركين في الحدث الاتصالي، يمكن التمييز - من ناحية - بين الاتصال القائم على الحوار الداخلي، والاتصال القائم على الحوار الخارجي (وجرت عادة الباحثين على تعريفهما إلى الاتصال المونولوجي والاتصال الديالوجي). كما يمكن - من ناحية أخرى - التمييز بين الاتصال الفردي، والاتصال الجماهيري.

في الاتصال المونولوجي، يوجد مرسل واحد فقط، هو الذي يعطى المعلومة. وينقسم هذا الاتصال بدوره إلى:

(أ) اتصال الشخص بذاته intrapersonal.

(ب) اتصال الشخص بآخرين interpersonal.

يبدو الأول إذن في اتصال المرسل بذاته، كما هي الحال في حديث الذات (التفكير بصوت مسموع). أما الثاني، فهو حديث المرسل إلى أشخاص آخرين، دون أن يجيبه هؤلاء، كما هي الحال في الخطبة، والمحاضرة... إلخ.

أما الاتصال الديالوجي، فهو يعرف - إلى جانب المرسل - مشاركاً في الاتصال واحداً على الأقل؛ هو المستقبل الذي يستطيع - في أحداث اتصالية ممتدة (كالحوار، والاستجواب ونحوهما) - أن يقوم هو نفسه بدور المرسل. وقد يتعدد المشاركون في الاتصال، كأن يكون لأشخاص عدة إسهامهم في اتصال ديالوجي، على نحو ما نجد - مثلاً - في المناقشات، والمحادثات الإذاعية وغيرها.

وفي الاتصال النصي المكتوب، يبقى الاتصال الديالوجي - غالباً - محصوراً في شاركتين اثنين (كما هي الحال في تبادل الرسائل).

ويمكننا أن ننظر إلى أنواع الاتصال السابقة جميعها، على أنها اتصالات فردية Einzele Kommunikationen، من حيث إن المرسل في تلك الاتصالات، يتجه إليه أشخاص معروفون مفردون: قلوا أو كثروا.

أما الاتصال الجماهيري، فتمثله وسائل الإعلام التي تتجه إلى مجال واسع جداً من الأشخاص (إلى الجمهور)، والتي لا يكون المرسل فيها عادة معروفاً. ويقع هذا الاتصال - في معظم الحالات - عبر وسائل الاتصال الجماهيري (كالصحف، والمنشورات، والإعلانات، والأدب، والإذاعة، والاسطوانات، والأفلام، والتلفزيون) ويتجنب فيها اللقاء وجهاً لوجه (اتصال المواجهة Face-to-Face Kommunikation). ولا تتاح - في مثل هذا الشكل - إمكانية إجابة المخاطين.

وهناك أشكال للاتصال الجماهيري، تتج في حرية تصرف، كما تتج في قابلية إعادة استقاء المعلومات منها (كالأدب، والنصوص الصحفية، والأفلام). مثل هذا الاتصال غير المباشر، مما يمكن تجديده تبعاً للرغبة⁽⁴⁾.

من ناحية أخرى، ينقسم الاتصال - وفقاً لأنماط العلامات المستخدمة فيه - إلى الاتصال اللفظي Verbal Communication والاتصال غير اللفظي Non-verbal communication. ولكل منهما أنواعه الفرعية المختلفة على نحو ما نبين فيما يلي.

(4) Sowinski, SS. 68-69

(3) قنوات الاتصال

للاتصال مكونات عدة، من أهمها القناة Channel. أما المكونات الأخرى، فهي: المشاركون Participants، والوضع Setting، والغرض Purpose، والشفرات Codes، ومضمون الرسالة وشكلها Message content and form. ونحضر كلامنا هنا للقناة، تاركين المكونات الأخرى لموضع آخر (راجع مبحث إنشوجرافيا الاتصال).

ويمكن - وفقاً لجهاز الاستقبال - التمييز بين عدة قنوات للاتصال، هي:

(أ) القناة اللمسية Tactile channel : التي تعتمد على اللمس جهازاً للاستقبال. ويعد نظام الكتابة عند المكفوفين - المعروف بطريقة برايل Braille - مثلاً على هذه القناة؛ لأنه يستخدم حروفاً مكونة من نقط بارزة، تُستقبل عن طريق حاسة اللمس.

(ب) القناة الشمية Olfactory channel : ويختار الإنسان هذه القناة عندما يود أن يتصل عن طريق حاسة الشم : فالناس يستخدمون معطر الغرفة قبل استقبالهم ضيوفهم، ويضعون العطر، ويزيلون ما قد يكون من روائح كريهة، عندما يأملون قضاء وقت مع أفراد آخرين في ودّ. وللقناة الشمية أهمية خاصة بين الفئات الاجتماعية التي تقيم اتصالها كثيراً عن طريق الروائح.

(ج) القناة البصرية Optical channel : أي هذا النوع من الاتصال الذي يرتبط بالرؤية، والذي يعتمد اعتماداً أساسياً على ما يعرف بالاتصال غير اللفظي، وعلاماته الحركات الجسمية، والأوضاع الجسمية، وتعبيرات الوجه والعينين ونحوهما (انظر تفصيل ذلك في الفصل الثاني). ويمكن أن ندرج الاتصال اللفظي المكتوب في القناة البصرية أيضاً.

(د) القناة السمعية Acoustic channel : وهي التي تقوم على كلام الناس بعضهم إلى بعض، أي أنها تعتمد على الاتصال اللفظي، وقوامه الأصوات

اللغوية. ومن أجل ذلك، عُذَّ السمع جهاز الاستقبال في هذه القناة.

وعلى رغم أن القناة السمعية يمكن أن تضم أشكالاً أخرى؛ كلغة الطبول، drum language ، ولغة الصنير whistle speech ونحوها، فإن العلامات اللفظية التي نعرفها في هذه الأداة التي ندرك بها العالم، وهي اللغة الإنسانية، تظل أشيع الوسائط المستخدمة للاتصال في هذه القناة. اللغة الإنسانية شبكة من العلامات الدالة. وامتلاك المعنى - كما يقول زايدلر Seidler - هو العلم بالعلامة⁽⁵⁾.

ويشير توماس سيبوك Thomas Sebeok إلى أن الاتصال السمعى عند الإنسان، يمكن أن يكون اتصالاً عضوياً Somatic (كالطين أو الدندنة)، أو اتصالاً من صنعه art factual (كالضرب على الطبول). أما الاتصال السمعى العضوى، فلما أن يكون صوتياً vocal (كالصياح بالنادل)، أو غير صوتى non-vocal (كفرقة الأصابع عند استدعائك إياه).

من جهة أخرى، فإن الاتصال السمعى العضوى الصوتى، قد يكون لفظياً (كلامياً) Verbal (speech) ، أو غير لفظى Non-verbal⁽⁶⁾.

وكان ويسكوت Wescott قد ميّز - فى القناة السمعية - بين ثلاثة أنظمة اتصالية، يسميها - على التوالي - باسم : اللغة Language ، والهيئة phasis ، والصخب strepitus. أما اللغة والهيئة، فكلامهما صوتى: الأولى ملفوظ بها، والأخرى مكونة فقط من النخبر أو النعير. وقد يضاف إليها تلفظات أخرى، يُضم بعضها إلى بعض دون حس. بناء على ذلك، فإن الصخب يختلف عن النوعين

(5) Seidler. Herbert: Allgemeine Stilistik, 2., neubearbeitete Auflage. Vandenhoeck und Ruprecht - Goettingen (1963) S. 12.

وانظر فى تفصيل القول فى الفترات السابقة :

Salzman, Zdenek: Language, Culture and Society, An Introduction to linguistic Anthropology, West View press, Oxford (1993) pp. 14-15.

(6) Sebeok, Thomas, A.: Zoosemiotik Components of human Communication, in: Marcel Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics, Canadian Scholars Press - Toronto (1992) pp. 153 - 184, p. 162.

السابقين كليهما، وهو غير صوتي nonvocal، ومنه: تصفيق الأيدي، وضرب الأرض بالأقدام⁽⁷⁾.

ومهما يكن من أمر، فإن الاتصال بين الناس - بناء على ما تقدم - ليس مقتصرًا على أصوات الكلام أو العلامات البصرية المتنوعة، ولكن هاتين القناتين - في الوقت ذاته - هما أشيع وسائط الاتصال المختارة عند الإنسان وأكثرها تأثيرًا. وبعد الاتصال اللفظي في القناة السمعية الأشيع والأهم والأكثر تأثيرًا على الإطلاق.

(7) Pike, Kenneth: Phonetics, A Critical Analysis of phonetic Theory and Technical for the Practical Description of Sound, Ann. Arbor, Uni. Of Michigan Press (1943) pp. 32-41. Sebeok, ibid, P. 164.

الفصل الأول

الاتصال اللفظي

(1) الاتصال اللفظي : مفهومه وخصائصه وأشكاله

(أ) مفهوم الاتصال اللفظي

الاتصال اللفظي هو الاتصال الذي يستخدم العلامات اللغوية وسيطاً له. ويجعل سوونسكى من العلامات اللفظية : نظم العلامات التى تمكن من نقل المعلومات بمساعدة علامات لفظية؛ كالقوالب الحسابية أو الرياضية، وعلامات الأعلام، ولغة الصم⁽⁸⁾. وهى علامات تستمر اللغة اللفظية الإنسانية. وربما بدت هذه المسألة خلافية؛ لأن العلامات المستخدمة فى القوالب الرياضية - مثلاً - ليست كذلك العلامات اللغوية ذات الوحدات والأنماط البنائية التى نعرفها، بما فيها من ميزات اشتقاقية وتركيبية. ولعل قبولنا ما يذهب إليه سوونسكى - متجاوزين الخاصية الجوهرية السابقة - يرجع إلى أن القوالب الرياضية ونحوها، لا تدخل فى نوع آخر من أنواع العلامات التى تعرفها قنوات الاتصال الأخرى المختلفة.

وإذا كنا قد رأينا سابقاً أن الاتصال ليس كله اتصالاً لغوياً، فإن العلامات اللغوية هى وسيط الاتصال الأقوى فعالية، والأشد طواعية وتأثيراً فى نقل التراث والثقافة.

إن النظام اللفظي verbal system - على خلاف نظم العلامات الأخرى - يمكنه - من خلال التمحيص الدقيق لبنيته النحوية والدلالية - أن يشير إلى تنوع واسع للمقاصد والمفاهيم. فى الوقت ذاته، فإن التفاعل اللفظي verbal interaction، يعد - كما يقول جامبرز Gumperz - نسقاً اجتماعياً، تختار فيه المنطونات وفقاً للمعايير والتوقعات المعترف بها اجتماعياً. ويستتبع ذلك قابلية الظواهر اللغوية للتحليل، سواء أكان هذا داخل سياق اللغة ذاتها، أم داخل السياق الأوسع للسلوك الاجتماعى⁽⁹⁾.

(8) Sowinski, S. 67

(9) Gumperz, J. : The Speech Community, in Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990) pp. 219-231, p. 219.

ولعلنا نلاحظ فى حالات كثيرة، إمكانية جمع الموقف الاتصالى الواحد بين الاتصال اللفظى والاتصال غير اللفظى. ولا غرو، فالإنسان مزود بالنمطين معاً. وتبين تجارب خبراء الذاكرة - على نحو مقنع - أن التفكير قد اتخذ له مكونين اثنين، يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً وثيقاً عند الإنسان: أحدهما لفظى، والآخر غير لفظى. ولكل منهما خصائصه المميزة. إن المؤثرات التخيلية *imaginal effects* فى هذا النظام الشفرى الثانى، تعد مؤثرات سيميائية حيوانية *zoo semiotic*. وتظهر الدراسات المختصة بالجهاز العصبى - فى صورة نهائية - فاصلاً وظيفياً بين الأنظمة الواسعة: اللفظية وغير اللفظية⁽¹⁰⁾.

ويؤكد سلوبين Slobin - أحد علماء اللغة النفسانيين - أن نصف كرة الدماغ الأيسر هو الذى يخزن الضبط الأعظم للغة⁽¹¹⁾. أما القشرة غير اللغوية عند الإنسان، فيمكن أن يمثلها نصف الدماغ الأيمن بعامية⁽¹²⁾.

وهناك تعامل عظيم مع حقل بحوث المخ، يختص بمسألة الجانبية *lateralization* لاثنتين - على الأقل - من صيغ التفكير عند الإنسان. هناك - على سبيل المثال - بحوث عما يسمى *asemasia* أى تعطيل الوظائف الاتصالية غير اللفظية⁽¹³⁾. وقد استهدفت تلك الجهود - لاسيما فى بداياتها - السعى تجاه التركيب الحقيقى للبيولوجيا والثقافة فى عملية العقول الإنسانية.

إن الصورة البارزة - كما يقول سيبوك - تدل على أن الجانب الأيسر من المخ،

(10) Sebeok, *Zoosemiotic Components*, p. 160.

(11) Slobin, Dan Isaac: *Psycholinguistics*, Scott, Foresman and Company, 2 nd. Edition (1979) p. 121.

(12) المرجع السابق ص 125.

(13) راجع فى ذلك :

Zangwill, Oliver, L.,: *The Relation of Nonverbal Cognitive Functions to Aphasia*, in: Eric H. Lenneberg and Elizabeth lenneberg (eds.): *Foundations of Language development*, 2. Chap., 6, Academic Press, New York (1975) pp. 95 - 106.

يتم الواجبات أو المهام اللفظية verbal tasks على نحو أفضل، بينما يتعامل الجانب الأيمن - في مهارة أعظم - مع واجبات الفراغ البصري visual - spatial tasks . وينقل سيبيوك عن بوجن Bogen قوله بأن نصف كرة الدماغ الأيسر، أفضل من الأيمن بالنسبة إلى اللغة وإلى ما يسمى - أحياناً - باسم النشاط اللفظي verbal activity أو باسم الفكر اللغوي linguistic thought . ويتفوق نصف كرة الدماغ الأيمن في الوظيفة غير اللغوية أو غير اللفظية.

إن الاختبارات النفسية، تميل إلى تدعيم وجهة النظر التي نأخذ بأن نصف كرة الدماغ الأيمن، يبدو - على نحو ما - أعظم مهارة من الأيسر في التعلل أو التفكير غير اللفظي، وفي القدرات الفراغية، وإن كان نصفاً كرة الدماغ كلاهما مجهز - بلا شك - للحضور اللغوي language representation بطرق بعينها وإلى حد بعينه. ويدو أن السيطرة المخية مزودة بما يسميه كينسبورن Kinsbourne باسم المنافسة النشطة active competition بين الاثنين، بيد أن نصف الدماغ الأيسر مقضى له - وراثياً - بالفوز⁽¹⁴⁾.

وتشير السيطرة إلى تنسيق المعلومة عن طريق أحد نصفي الدماغ، وإلى قدرته على ضبط الاستجابة. ويبدو هذا التنوع غير مرتبط بالكفاءة أو بأداء واجب بعينه، تقتضيه عوارض سياقية في نصف كرة الدماغ⁽¹⁵⁾.

وتبرهن بحوث لغة الطفل عملياً على اجتماع نمطي الاتصال عند الإنسان منذ ميلاده. كما تحاول أن تقدم تفسيراً علمياً لتطور اللغة اللفظية قياساً على نموذج الطفل، فالطفل منذ ميلاده يبدأ في الاتصال كثيراً أو قليلاً. ويستطيع الطفل حديث الميلاد، أن يعبر بالفعل انتباهاً: فعندما تتحدث إليه أمه ينصت. وفي خلال ثلاثة

(14) Kinsbourne, Marcel: Minor Hemisphere Language and Cerebral Maturation, in: Eric, H., Lenneberg and Elizabeth Lunenburg (eds.): Foundations, op. cit., p. 14.

(15) Sebeok, p. 170.

أسابيع أو أربعة، يسهم بمشاركته الخاصة في النقاش، مستجيباً بحركات جسمه النشطة: بذراعيه وساقيه، ولسانه وشفته أيضاً⁽¹⁶⁾.

ويرى بعض الباحثين أن هذا النشاط الجسدي، ليس له بُعد أن يُعد لغة. ويسمى كولوين تريفارثن Colwyn Trevarthen - وهو من أوائل دارسي هذه العملية - يسمى حركات اللسان والشفة باسم ما قبل الكلام Pre - speech، وذلك أن الطفل يكرر النشاط العضلي الذي سوف يستخدمه بعد ذلك في إنتاج الكلام⁽¹⁷⁾. ولا شك أن تريفارثن على حق؛ وذلك أن النشاط الجسدي الذي يصدر عن الطفل في هذه المرحلة، لا يصدر عن فطنة بالوظائف الدلالية التي حددتها البيئة الصغرى أو الجماعة الكلامية لذلك النشاط، إنما هي الآلية الحركية التي تنمو شيئاً فشيئاً، حتى تصبح في مراحل تالية علامات وظيفية محددة المعاني.

ومهما يكن من أمر، فإنه من المرجح أن اللغة - بالقياس على نموذج الطفل - قد بدأت بعدد صغير من العلامات التي تعبر عن معانٍ عامة مرتبطة بحاجات الكائنات الإنسانية، في علاقة بعضها ببعض. ويضرب هاليداي Halliday أمثلة على تلك المعاني العامة، يستنبط منها تنوع الحاجات والأغراض، بما لا يخرج - في تلك الأطوار الأولى من اللغة - عما نلاحظه في تطور الطفل لغوياً. إنها معانٍ نحو: أعطني (شيئاً ما) و أفعل (خدمة لي) من أجلي، وتصرف (بطريقة ما) معي، و تكونوا (سويًا) معي، وتعال، انظر (إلى هذا) معي، و أحب (ذلك)، و أنا متعجب (من ذلك) و لا أحب (ذلك) .. إلخ⁽¹⁸⁾.

وإذا كانت تلك المعاني العامة، تُظهر - كما أراد لها هاليداي بالطبع - وظائف فرعية مختلفة للتخاطب والاتصال؛ كالوظيفة التوجيهية، والوظيفة التعبيرية أو النزوعية

(16) Halliday, M.A.K.: Spoken and Written Language, 2 ed. Impression, Oxford Uni. Press (1990) pp. 2-3.

(17) Halliday, op. cit., p. 3.

(18) المرجع السابق ص 8.

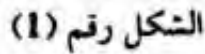
ونحوهما، فإن وظيفة جوهرية تنظمها جميعاً هي وظيفة المشاركة: الفعل المشترك، أو الانعكاس المشترك.

وليس هناك من الشواهد، ما يكفي لبحث كيفية تطور اللغة الأولية، إلى اللغة ذات النمط الذى تعرفه سائر اللغات الآن. من أجل ذلك، يصرف الباحثون أنظارهم إلى طبيعة الانتقال من اللغة الأولية إلى اللغة، لا إلى كيفية حدوث هذا الانتقال.

يحدد هاليداي - وهو من أهم اللغويين المعنيين بهذه المسألة - يحدد الاختلاف الجوهرى بين اللغة واللغة الأولية؛ فى أن اللغة ذات نظام ثلاثى المستوى: إنها تبنى من المعانى التى تُشفّر فى هيئة كلمات منظومة، والتى تُفك شفرتها - من ثم - إلى أصوات. إنها - بالمصطلح اللغوى - تتكون من ثلاث طبقات هي: المستوى الدلالى، والمستوى النحوى (وعلى وجه التحديد المستوى النحوى المعجمى - lexico grammatical level) والمستوى الفونولوجى. وهذا يعنى أنها لا تشفر المعنى إلى صوتٍ تشفيراً مباشراً.

أما اللغة الأولية، فتمتلك نظاماً ثنائى المستوى: إنها تتكون من المعانى التى تشفر مباشرة إلى أصوات، أو تشفر - كما يقول هاليداي - فى هيئة تعبيرات expressions؛ وذلك أن العلامات اللغوية الأولية protolanguage signs، يمكنها أن تعبر بالصوت أو بالحركة الجسمية. اللغة الأولية إذن مكونة - ببساطة - من المعانى meanings والتعبيرات expressions⁽¹⁹⁾. وقد عرض هاليداي الاختلاف بين اللغة الأولية واللغة من خلال الشكل التالى (الشكل رقم 1):

(19) المرجع السابق ص 10.



ولا شك أن هاليداي يريد هنا أن يبرز الخاصية الأولية للغة اللفظية؛ وهي الصوت، في مقابل لغات أخرى غير لفظية، يلزم فيها أن يراقب المستقبل ما يفعله المرسل؛ كاللغة السلوكية الحركية. في اللغة اللفظية يستطيع جهاز الاستقبال (الأذن) نقل الشفرة، ويكون الاتصال هنا صوتيًا سمعيًا. ولا يغيب - بالطبع - عن باحث مثل هاليداي، دور الرؤية - أثناء الاتصال اللفظي السمعي ذاته - في تفاوت درجة التفاعل، وفي استبيان المقاصد الكلامية استبيانًا دقيقًا.

(20) المرجع نفسه ص 10

الإنسان - تعد لغات أولية. وفي الوقت ذاته، ينبغي لنا أن نلاحظ أن ملامح اللغة الأولى عند الطفل، تتلبس بملامح من اللغة الأولية، بل إن كلام البالغين يعرف آثاراً من اللغة الأولية؛ كالأصوات المعبرة عن التعجب والدهشة والألم ونحوها

(ب) خصائص الاتصال اللفظي :

ومهما يكن من أمر، فإن اللغة الإنسانية تبدو فريدة بين أنظمة الاتصال المتعددة المعروفة. وينبغي لهذه اللغة أن تحوز ملامح تمييزية design features لا نجدها بحاها في نظام آخر. ولعل أولى المحاولات الحديثة في تطوير قائمة الملامح التمييزية التي تسم الكلام (أي هذا النسق الفيريقى المحروس من اللغة الحاصل بإنتاج أصوات لغوية) هي محاولة هوكيت Hockett (1958)، التي وصلت بتلك الملامح إلى ستة عشر ملمحاً. وقد أحسن سالزمان Salzman عرضها على النحو التالي:

1- القناة الصوتية السمعية Vocal - auditory channel

وذلك أن بعض الأصوات التي تنتجها الحيوانات ليست صوتية (نحو صرير الصراصير)، أو لا تستقبل استقبالاً سمعياً (فليس للنحل آذان). وتستثنى الكناسة - بالطبع - من هذا الملمح؛ وذلك أن القناة المستخدمة في الرسائل المكتوبة قناة بصرية قبل أن تكون قناة صوتية سمعية. ويشيع تماماً بين الثدييات استعمال القناة الصوتية السمعية في الاتصال. ولاستعمال الجهاز الصوتي في الاتصال ميزة هامة؛ هي أن بقية الجسم تتمتع بحرية التخلي عن ممارسة النشاطات الجماعية المتعددة الأخرى.

2- النقل المذاع والاستقبال الموجّه

Broadcast transition and directional reception

وذلك أن أصوات الكلام تتحرك خارجة من مصدرها الأصلي في جميع الاتجاهات. ولا يحتاج المرسل أو المستقبل إلى أن يرى أحدهما الآخر، من أجل الاتصال. ويمكن الاستقبال بالأذنين دون حاجة إلى تحديد مصدر الأصوات.

3- الزوال السريع **Rapid fading** :

وذلك أن أصوات الكلام نسمع في مدى محدد جدًا. وهي تسمع فقط في الوقت الذي تنتج فيه. وبعد ذلك، تفقد على نحو لا يمكن رؤيته. (على العكس من ذلك، تبقى الكتابة نسبيًا، فبعض المدونات المكتوبة قد احتفظ بها لعدة آلاف من السنين).

4- قابلية التغير **Interchange ability** :

وذلك أن للكائنات الإنسانية - من الناحية النظرية على الأقل - مقدرة على نطق ما يفوه الآخرون (إذا كانت اللغة المستخدمة مألوفة بالطبع). ولا يقع هذا عند أنواع عدة من الحيوان، حيثما تتنوع الرسائل بين الذكور والإناث، أو تبعًا لتقسيمات طبيعية أخرى.

5- الاسترجاع الكامل **Complete feedback** :

وذلك أن متكلمي أية لغة يسمعون - هم أنفسهم - ما يقولون. ومن أجل ذلك، فهم قادرون على مراعاة رسائلهم، وإدخال أية تصويبات بروتها ضرورية أو مناسبة، على التو. وعلى العكس من ذلك، فإن أيا شركة أو الرقزوق (نوع من السمك) لا يقدر أن يراقب تغير لون عييه وانتفاضة بطنه، عند إثارة إناث السمك!

6- التخصص **Specialization** :

وذلك أن الكلام الإنساني، لا يؤدي وظيفة أخرى غير الاتصال. وعلى العكس من ذلك، فإن الغرض الرئيس للهاث الكلب - مثلاً - هو تهدئة الجسم، من خلال تصعيد النفس، بالرغم من أن اللهاث يتج أصواتًا تحمل إعلامًا (هو - مثلاً - إعلام بإمكان الكلب، أو بدرجة تعب).

7- الدلالة **Semanticity** :

وذلك أن أنظمة اتصالية عدة في مملكة الحيوان، تمتلك مكونات دلالية. على سبيل المثال، تدل بعض ملامح لغة الرقص عند النحل، تدل على بُعد مصدر الطعام من الخلية. وتحدد بعض الملامح الأخرى الاتجاه الذي يوجد فيه الطعام. وعلى أي حال، فليس هناك من نظام - إلا اللغة الإنسانية - يعرف مثل تلك الصلة المحكمة بين

العدد الوفير من المفردات والجمل الممكنة، وبين المحاور المختلفة اختلافاً واسعاً، وإلى يتحدث حولها الناس

8- الاعتباطية Arbitrariness :

فبست هناك علاقة داخلية أصلية بين شكل وحدة من اللغة ذات معنى (الكلمة مثلاً) وبين المفهوم الذي تحمله هذه الوحدة. الحيوان المستأنس الذي يبيع يسمى في العربية كلب، ولكنه يسمى في الإنجليزية 'dog' ، وفي الألمانية 'Hund' ، وفي الفرنسية 'chien' ، وفي الإسبانية 'perro' . إلخ وتشير هذه الأسماء جميعاً إلى حيوان واحد، بالرغم من أن نباح الكلب (bowwou) يُسمع - بأصوات مختلفة - عند مختلف الناس؛ فهو 'wanwan' عند اليابانيين، و 'haf-haf' عند التشيك، و 'wauwau' عند الألمان ... وهكذا !

9- التمايز الفردي Discreteness :

وذلك أن الرسائل في اللغات الإنسانية، لا تتكون من أصوات متصلة متداخلة (كالنفي)، ولكنها جعلت في حصافة وتمايز فردي، من حيث إنها شرائح متمايز بعضها من بعض تمايزاً فردياً؛ فالفرق بين الجملتين الاستفهاميتين:

- هل معك قطعة من اللحم؟ - هل معك قطعة من اللحم؟

يقتضى صوتين متمايزين في موضع بعينه من الجملتين، أحدهما يُكتب وينطق (ل) والآخر (ف). وعلى العكس من ذلك، فإن لغة الرقص عند النحل ملتصقة متداخلة؛ لأنها لا تستعمل مثل تلك العناصر التمايزية.

10- الإزاحة Displacement :

وذلك أن الناس يستطيعون أن يتكلموا (أو يكتبوا) عن شيء ما بعيد في زمانه ومكانه عن الوضع الذي يحدث فيه الاتصال. يستطيع المرء - مثلاً - أن يصف في حلاء وحاس وشئ من التفصيل - الحملة العسكرية التي شنّها الجنرال القرطاجي هانيبال على الرومان القدماء، بالرغم من أن تلك الحرب قد وقعت منذ أكثر من ألفي عام في قارة أخرى. ويستطيع الناس أيضاً الحديث عما يحفظون له في حياتهم، بعد

الإحالة إلى التقاعد، بنحو عشرين سنة قادمة أو ثلاثين. والإزاحة من هذا النوع، لا توجد في مملكة الحيوان.

11- الانفتاحية (أو الإنتاجية) (Openness or Productivity) :

وذلك أن الناس قادرون على عمل تقارير وإخباريات كاملة جديدة، يفهمها عنهم سامعهم. وإذا كنا لا نلاحظ مثل ذلك كثيراً في حياتنا اليومية، فليس عسيراً أن نفكر في جملة روائية (نحو: تتجادل قطتنا في مناهج الأنثروبولوجيا اللغوية، كلما تركتا في البيت وحيدتين!). ويستعمل المجردون اللغة - على نحو ابتكاري - استعمالاً قياسياً تماماً.

12- ثنائية النمط (Duality of (Patterning) :

وذلك أن أصغر الوحدات الدالة من اللغة؛ كالوحدات في العبارة: است - شوى ال - فساد، التي تصنع من أصوات مميزة للغة، تدخل في عديد من الكلمات التي لا تقبل أن تنقسم إلى أجزاء أصغر، نحو: سقف، رأى، فرق ... إلخ. ويعنى هذا أن عددًا محددًا من الوحدات اللغوية من نوع بعينه، يمكنه أن يصنع عددًا واسعًا من الوحدات على مستوى آخر، كأنها الذرات تمامًا؛ فالذرات تتكون من عناصر ثمانين تقريبًا، لكنها تصنع جزيئات من ملايين المكونات الأخرى.

13- البث الثقافي (أو نقل التقاليد المرعية) (Cultural (or traditional) transmission) :

وذلك أن المرء لا يرث لغة بذاتها إرثاً تكوينياً (genetically) ؛ فالأطفال يتعلمون اللغة من الوالدين أو من الآخرين الذين يتحدثون إليهم أو معهم. والتكلم بلغة بعينها، هو - من أجل ذلك - جزء من السلوك الثقافي الشامل عند الإنسان؛ فالسلوك يُكتسب من خلال التعلم.

14- المراوغة (Prevarication) :

وذلك أن ما يمكن أن يقوله المرء، قد يبدو خطأً تمامًا (كأن يزكّد أحدهم أن القمر من جن أخضر!). وقد يتصنع هذا الحيوان المتماوت (حيوان يشبه السنجاب) الموت، إذا أخذ - على الأرض - على غرة. ويمكن للعصفور أن يتظاهر بانكسار جناحه؛ حتى

يقود الحيوانات المفترسة بعيدًا عن عشه. بوجه عام، فإن محاولات التظاهر أو التمويه أو المراوغة، ليست - على كل حال - عامة بين الحيوان.

15- الانعكاسية Reflexiveness :

وذلك أن الناس يستعملون اللغة - أو يمكنهم ذلك - لمناقشة اللغة أو الاتصال بوجه عام، على نحو ما يفعل المرء في الفصل أو في مفهى فاخر. أما الحيوان غير الإنسانى، فإنه لا يظهر قدرة على نقل المعلومة عن نظمه الاتصالية الخاصة أو النظم الاتصالية الأخرى.

16- إمكانية التعلم Learnability :

وذلك أن المتكلمين بآية لغة، يمكنهم تعلم لغة ثانية أو لغات متعددة، بالإضافة إلى لغتهم الأم. ومن السلوك الاتصالى بين الحيوان غير الإنسانى ما يكون نتيجة تعلم أيضاً، إما بالتجربة أو عن طريق الإنسان. على آية حال، فلا توجد حيوانات أخرى تقدر على تعلم نظام اتصالى أو نظم اتصالية متعددة معقدة كاللغة.

تمتلك اللغات الإنسانية تلك الملامح المميزة جميعاً، بينما لا تعرف نظم الاتصال عند الحيوانات الأخرى إلا بعضاً منها فحسب. وتتطلب تلك الملامح استخدام الأطر الخمسة التى تختص بملامح الوضع الاجتماعى social setting ، وبالسوابق السلوكية، ونتائج الأحداث الاتصالية، وبالقناة أو القنوات المستخدمة، واستمرارية النظم الاتصالية أو تغييرها، وببنية الرسائل وسجلاتها repertoires فى نظم معينة⁽²¹⁾.

(ج) أشكال الاتصال اللفظى :

يمكننا التمييز بين شكلين رئيسين للاتصال اللفظى: أحدهما الاتصال اللفظى المنطوق، والآخر الاتصال اللفظى المكتوب. ويبنى هذا التقسيم على أساس انقسام اللغة ذاتها إلى لغة منطوقة spoken language ولغة مكتوبة written language.

(21) انظر

Salzman, pp. 21-24

باعتبار الرموز الصوتية، والقناة بصرية إذا نظرنا إلى اللغة مكتوبة، باعتبار الرموز الكتابية. وما دما نتكلم أكثر مما نكتب، فإن الاتصال اللفظي المنطوق - فى الحياة اليومية - أعم وأهم من الاتصال اللفظي المكتوب، وهو - بذلك - أعم أنواع الاتصال وأهمها على الإطلاق. يقول سالزمان: اللغة المنطوقة - الكلام - هى أعم الوسائل التى يتصل بها البشر أحدهم بالآخر، وأهمها. ولكن هذه اللغة ليست الوسيلة الوحيدة. إن أنظمة الكتابة المتعددة المختلفة المستعملة فى العالم، ذات أهمية عظيمة فى الاتصال. وهى - لاعتبارات مختلفة - تمتاز على اللغة المنطوقة ببقائها النسي خاصة⁽²²⁾.

ويمكننا أن نضيف إلى الميزة السابقة، ميزات أخرى تتمتع بها اللغة المكتوبة؛ كالأعداد، والتصويب، وإعادة النظر. تقول براون Brown ويول Yule: يستطيع الكاتب أن ينظر فيما كتب، كما يستطيع أن يتوقف بين كلمة وأخرى، دون أن يخشى مقاطعة محاوره. ويأخذ الكاتب حقه فى اختيار كلمة بعينها، وربما استعان بالمعجم إذا اقتضى الأمر. ويمكنه أيضاً أن يفحص ما وصل إليه فى ضوء ملحوظاته، ويعيد تنظيم ما كتب، بل ربما تبدل رأيه فيما يردّ قوله. وبينما قد يججب المتكلم عن الكلام تحت وطأة ظروف معينة وقت الحديث، فإن الكاتب لا يخضع لضغط مثل هذه الظروف⁽²³⁾.

ونلاحظ أن كلاً من نوعى الاتصال اللفظي: المنطوق والمكتوب، يخضع لمقتضيات أخرى هامة، تنعكس فى بنيتها انعكاساً مباشراً. ويستنبط ذلك من بيان براون / يول؛ فالتكلم يدرك أن أية كلمات تنطق من شفثيه، سوف يسمعها محاوره؛ ولذلك يأخذ على عاتقه إصلاح كلامه إصلاحاً نشطاً شاملاً. أما الكاتب، فيستطيع أن يشطب ما كتب ويعيد كتابته. ويحظى المتكلم بمزايا أخرى: فهو يستطيع أن يلاحظ

(22) Salzman, pp.

(23) Brown, Gillian and Yule, George: Discourse Analysis, Cambridge Uni. Press (1984). p. 5.(3).

محاورة، وأن بكَيْف كلامه - إن أراد - لجعله في متناول سامعه وأكثر قبولاً عنده. أما الكاتب، فليس له من سبيل إلى الاسترجاع المباشر، وليس له إلا تحبّل رد فعل القارئ. وبينما يحظى المتكلم - في التفاعل المنطوق - بمزّة القدرة على التحكم في رد فعل سامعه على كلامه دقيقة بدقيقة، فإنه يعاني أيضاً من مشكلة الإفصاح عن مشاعره. وينبغي له أن يتحدث إلى محاوره في وضوح ودقة، وأن يضع استجابه المباشرة وفقاً لطريقة محاوره في التعبير عن رد فعله⁽²⁴⁾.

من ناحية أخرى، تتمتع اللغة المنطوقة - والاتصال اللفظي المنطوق بالتعبئة - بميزات عدة، ترتبط بكيفيات أداء العلامات اللغوية المستخدمة، وهي كميّات لا قيم لها في الاتصال اللفظي المكتوب. ويشار إلى هذا في مباحث الخصائص المميزة للاتصال الصوتي vocal communication، والتي تعد هامشية marginal أو اختيارية optional. ويطلق على تلك الخصائص اسم الخصائص الخارجة عن نطاق اللغة paralinguistic features. وهي تحتوي على نغمة الصوت، وسرعة الكلام، والتنوعات الملحوظة في مقام الصوت، وسرعة الأداء، والإيقاع، وتحقيق النطق بالصوت، وشدة. وترتبط تلك الخصائص المختلفة، باختلاف الوظائف في الأحداث الاتصالية. وبمكنا أن نبيّن ذلك فيما يقدمه سألزمان من أمثلة: فالتحقيق أو التلفظ عالى الضبط يتج الإنعاش. ونتوقع مع التلفظ المحكم أو الدقن تلفظات شكلية موجهة إلى جماعات واسعة من المستمعين. وعلى النقيض من هذا، فإن الكلام المنطوق في هدوء إلى حد الخفاء، يُسمع من أولئك المتعبين جداً. ويميل المتكلمون إلى ربط التنوع الأقصى في مقام الصوت بالسعادة والدهشة. كما يربطون المستوى العالى من مقام الصوت أو الأداء السريع، يربطونها بالخرف أو المباغنة أو الغيظ. كذلك، فإنهم يربطون مستوى مقام الصوت المنخفض والأداء البطئ بالضجر والكدر وتكسب

(24) Brown / Yule, op. cit, p. 5

استدارة الشفتين نغمة الصوت نوع المناغاة التي يستخدمها الكبار في حديثهم إلى رضيع⁽²⁵⁾.

تعد الملامح الخارجة عن نطاق اللغة إذن، تنويغات إضافية، يشير بها المتكلم إلى أهمية ما يقوله. وما يمكن أن يضاف إلى اللغة المكتوبة من علامات، على نحو ما نجد في الحوار الدرامي بتوجيهاته المسرحية stage directions، مثل (في غضب) أو (في تلطف جم) ونحوها، لا يعد - بعامية - سمة للغة المكتوبة⁽²⁶⁾.

إن مثل هذه التوجيهات المسرحية، إنما تعنى الرغبة في حكاية الشفرة المنطوقة، من حيث توظيفها - في الحدث الاتصالي - مؤثرات صوتية وأدائية نوعية، تصحبها - في حالات كثيرة - أوضاع جسمية متعددة وتعبيرات سلوكية حركية مختلفة. وربما طغت هذه الأوضاع والتعبيرات على العلامات اللفظية ذاتها، في إنتاج الاتصال اللفظي المنطوق. ويمكن أن يعد ذلك درجة من تخفيف قناة سمعية وتدعيم قناة بصرية، أو هو نوع انكفاء من قناة سمعية على قناة بصرية بدرجة أشد.

وقد عنى هايمس Hymes - أحد مؤسسي الأنثروبولوجيا اللغوية - بما يسمى بالفتح، وجعله من مكونات الاتصال. ويشير المفتاح إلى النغمة tone أو الطريقة manner أو النفس spirit الذي يؤدي به أحد الأحداث الاتصالية. ويلاحظ هايمس أن هذه الأحداث تتنوع في المفتاح؛ كأن تكون هازنة أو جادة، منطوقة في عدم اكتراث أو في كد واجتهاد⁽²⁷⁾. ويلفت هايمس النظر إلى أن الأحداث المتطابقة في الرضع، والمشاركين، والرسالة، والصيغة... إلخ، يمكن أن تختلف في المفتاح أيضاً على نحو ما نجد بين الأداء الساخر والأداء الجاد، أو بين الأداء غير المبالي والأداء في

(25) Salzman, p. 214.

(26) Halliday, Spoken and Written Language, ibid, p. 31

(27) Hymes. Dell, H: Models of the interaction of Language and Social life, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds): Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, Basil Blackwell, New York (1989). pp. 35 - 71. p. 62.

اهتمام. ويؤكد هائمس أهمية المفتاح؛ فالمفتاح عندما يقع فى صراع مع المحتوى الصريح لحدث معين، فإنه يطله غالبًا. وبناء على ذلك، فإذا نطقنا بالعبارة (كم هو مذهل!) - فى نغمة استهزائية - فإنها سوف تعنى الضد تمامًا. وقد يقع التأثير على المفتاح عن طريق وحدات كلامية عرضية؛ نحو نطق الصوت من الصدر والحلق aspiration ، أو مَطل الحركة الذى يستخدم فى الإنجليزية علامةً على التوكيد⁽²⁸⁾.

ويشير سالزمان - متأثرًا فيما يبدو لنا بكلام هائمس السابق عن المفتاح - إلى أن المفتاح قد يطل مكونًا ما من مكونات الاتصال؛ وذلك عندما يصبح المتكلم - الذى يفترض أنه يثنى على شخص بعينه - يصبح على مهل وفى ازدياد - هازئًا، بحيث يجرح مشاعر هذا الشخص الذى يتحدث عنه ويجعله أضحوكة. وربما استخدم مفتاح - بين جماعة بعينها - حتى بدا فاقداً كثيراً من تأثيره. وربما استخدم مفتاح آخر - فى ندرة - فاستلزم شيئًا من الجهد، عند جانب من المستمعين؛ لإدراكه وفهم معناه الاجتماعى⁽²⁹⁾.

بالإضافة إلى المحددات النوعية السابقة، التى تكسب الصوت اللغوى الصفة التى تزوله لأداء وظيفته الاتصالية المناسبة، فإن هناك علامات صوتية أخرى تتخلل كلامنا. وتتظم هذه العلامات الصوتية أنماطًا مختلفة؛ كالضحك، والصياح، والهمس، والصراخ، والتأوب، والنحيب. ولتلك العلامات - فى تحليلها كلامنا - دلالات مختلفة. ويمكن أن تعد مؤشرات على درجة التفاعل مع الحدث الاتصالى.

من ناحية أخرى، يمكننا أن ندخل فى سمات الاتصال اللفظى المنطوق ما يدعى المقطعات الصوتية vocal segregates. وتبدو هذه المقطعات فى الجانب الأعظم من الأصوات غير اللغوية، على نحو ما نجد فى الإنجليزية مثلاً: هناك uh - uh التى تعنى الموافقة والرضا و ah التى تدل على تنوع من الانفعالات من الابتهاج حتى

(28) المرجع السابق ص 62.

(29) Salzman, p. 200.

الأسف، و tut - tut أو tsk - tsk التي تعبر عن استهجان رقيق. وتختلف هذه المؤثرات الصوتية الاختيارية في معانيها من لغة إلى أخرى: فتغمة الصوت الخافتة أو الخشنة، التي ترتبط في بعض اللغات بانفعال حاد، نجدها في لغات أخرى كاليابانية (وتشارك معها العربية) تنقل احتراماً أو سلوكاً إذعانياً⁽³⁰⁾.

فضلاً عما سبق، فإن الاتصال اللفظي المنطوق، يستعين ببعض العلامات التي ترتبط بكيفيات تجزئة المعلومة. وكان تشيف Chafe ينظر إلى الوقفة الطويلة مثلاً، على أنها إشارة إلى تجزئة المعلومات في الكلام المنطوق، تشبه تجزئة الكلام المكتوب إلى فقرات⁽³¹⁾.

وتتفرع أشكال الاتصال اللفظي إلى فروع عدة؛ ففي الاتصال اللفظي المنطوق هناك مثلاً: الحوار الذاتي، والمحادثة. وفي الاتصال اللفظي المكتوب نجد: قائمة المراجع، والمقال الإخباري الصحفي. وهناك وسائط أخرى تجمع بين الكلام والكتابة؛ ومثال ذلك: ما كُتب يُنطق به (نحو نشرة الأخبار)، وما كُتب محاكياً المنطوق به (نحو الحوار في الرواية)، والنطق بما هو مكتوب (نحو قراءة قصة على طفل)، والتكلم بما هو مكتوب ليكون منطوقاً به كأنه غير مكتوب (نحو المسرحية).

(2) تصنيفات الوظائف ومخططات الاتصال :

اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن الأفكار. وتعبيرية العلامة هي - في سير - قيمتها الدلالية المعقودة بها في مواضع الجماعة الكلامية واستعمالها. ويعنى هذا أن هناك علاقة حتمية دائمة بين وظيفة العلامة وقيمتها التعبيرية والمضمونية. وإذا لم

(30) انظر في تفصيل ذلك :

Salzman, p. 215.

(31) Chafe, W.L. : The Flow of Thought and the Flow of Language, in : T. Givon (ed.) : Syntax and Semantics, Vol. 12: Discourse and Syntax, Academic Press, New York (1979) p. 176

(32) راجع في ذلك :

Morley, G., D.: An Introduction to Systemic Grammar, Macmillan, London (1985) p.5

يوجد التعبير والمضمون في آن معاً، فلا تعرف العلامة أية وظيفة. كذلك، فإنه لا يمكن - كما يقول بركله Brekle - أن يوجد تعبيرٌ مضمونٌ ماء، أو مضمونٌ تعبيرٌ ماء، دون قيام وظيفة علامية بينهما Zeichenfunktion: ليس هناك من تعبير إلا أن يكون تعبيراً عن مضمون بعينه، وليس هناك مضمون إلا أن يكون مضموناً تعبيرٌ بذاته⁽³³⁾.

ومن البديهي أن العلامة لا تتم عن وظيفة لها إلا إذا استحالت إلى حدث لفظي، فالتفكير الصامت فارغ من مضمون لغوي، وبالمثل، فإن حدثاً لفظياً خالياً من تفكير، ليس إلا سلسلة صوتية أو سمعية خالية من أية قيمة توصيلية بالمعنى المألوف. إننا إذا فكرنا دون أن نتكلم، فلن تكون لأفكارنا - إذ ذاك - أية مضامين لغوية، ومن ثم لن تكون لها أية قيمة محددة بالنظر إلى وظيفة العلامة. وإذا ما تكلمنا دون أن نفكر، أي إذا أصدرنا سلسلة صوتية بعينها على نحو ما، لا يمكن معه توصيل مضمون بذاته إلى المستمع، فإن تلك السلسلة تعد - في هذه الحال - نوعاً من الشعوذة abracadabra، وليست تعبيراً لغوياً. من ثم، لن نحمل أية قيمة بالنسبة إلى وظيفة العلامة⁽³⁴⁾.

(33) Breckle, Hebert, T. Semantik. Eine Einführung in die sprachwissenschaftliche Bedeutungslehre. 2. verbesserte Auflage. Wilhelm Fink Verlag - Muenchen (1972)

(34) المرجع السابق ص 67

ويبين الجدول التالي (الجدول رقم 1) العلاقة بين الجوهر والشكل على مستوى المضمون من ناحية، وعلى مستوى التعبير من ناحية أخرى:

المضمون	التعبير	
العلاقات الاستبدالية والتركيبية بين مضامين الألفاظ (وكذلك العلاقات الثانوية بين أبنية المضمون العليا، مثل: الجملة).	العلاقات الاستبدالية والتركيبية بين الفونيمات والرسم الإملائي (وكذلك العلاقات الثانوية بين الوحدات الصرفية والوحدات التركيبية النحوية).	الشكل
جوهر الأفكار (جملة العلاقات والسمات المميزة للمفاهيم).	الجوهر الصرّى والرّسمي (المشبرات السمعية والبصرية الملحوظة).	الجوهر

الجدول رقم (1) (35)

إن اللغة في جوهرها عملية اتصالية. ومنذ فترة طويلة، وجه علم اللغة اهتمامه إلى الجانبين: التاريخي والوصفي، ولكنه - فيما نلاحظ - لم يكد يعنى إلا بالأنظمة والعناصر اللغوية، في حقيقتها اللغوية الداخلية غير الاتصالية. وقد نتج عن ذلك، أن ظلت ظروف الاستخدام اللغوي وحالاته الموقفية الاجتماعية منزوية - في البحث اللغوي - بعناية ضئيلة.

وإذا كانت الإسهامات الكبرى في نظرية الاتصال، ترجع إلى الستينيات، فإن هناك تصنيفات ومخططات مبكرة ليادين الاتصال المتباينة، كانت قد أنجزت - كما أشرنا - من قبل. ويمكننا أن نعرض أهم تلك التصنيفات والمخططات - على نحو تاريخي - فيما يلي:

(35) المرجع السابق ص 67.

(أ) تصنيف مالينوفسكى Malinowski (1923) :

لم يكن مالينوفسكى لغوياً فى حقيقة الأمر. إنه لم يكن - فى الأصل - معنياً بتفسير اللغة، ولكنه قدم بعض الأشياء المميزة جداً عن القول فى اللغة. كان مالينوفسكى من علماء الإثنوجرافيا ethnography؛ أى أنه كان معنياً بشرح الثقافة ولكنه - فى مجرى عمله - صار مهتماً اهتماماً عميقاً باللغة، من حيث إنها موضوع دراسة فى حد ذاتها.

وضع مالينوفسكى تصنيفاً للوظائف اللغوية مرتبطاً بعمله عن الموقف والمعنى (1923). وقد جعل وظائف اللغة - فى هذا التصنيف - فى مقولتين اثنتين واسعتين، هما: الوظيفة التداولية Pragmatic function، والوظيفة السحرية magical function. ولما كان مالينوفسكى أنثروبولوجياً، فقد عنى بالاستعمالات العملية أو التداولية للغة من ناحية (وهى التى فرّعها - بعد ذلك - إلى الاستعمالات الفاعلة active والاستعمالات السردية narrative). ومن ناحية أخرى، عنى بما للغة من استعمالات طقوسية ritual أو سحرية magical uses. وهى تلك الاستعمالات التى ترتبط بالنشاطات الاحتفالية الرسمية ceremonial activities أو الدينية فى ثقافة بعينها⁽³⁶⁾.

(ب) تصنيف بولر Buehler (1934) :

قدم عالم النفس النمساوى كارل بولر (1934) تصنيفاً آخر مختلفاً. كان بولر مهتماً بوظائف اللغة من وجهة النظر الفردية لا الثقافية⁽³⁷⁾. وقد جعل للعلامة اللغوية وظائف كبرى ثلاث هى: وظيفة التعبير Ausdruck، والوظيفة التزوعية Appell، ووظيفة العرض Darstellung؛ فالمرسل يقوم بوظيفة التعبير، وتقع التزوعية على

(36) Halliday, M.A.K. and Hasan, Ruqaiya: Language, Context and Text, Aspects of Language in a Social - Semiotic perspective, Oxford Uni Press (1990) p. 15

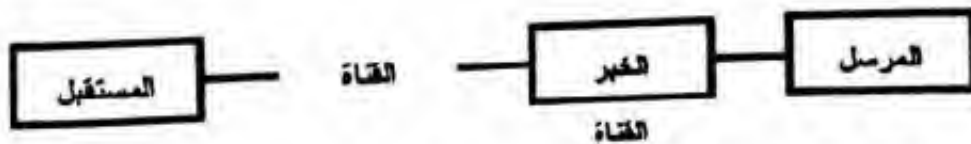
(37) المرجع السابق ص 15

المستقبل، ويحصل من هذا مبادلة بين المرسل والمستقبل. وفي أثناء ذلك، تعرض العلامة اللغوية - على نحو رمزي - الأشياء والأوضاع⁽³⁸⁾.

ولما كانت الوظيفة الأولى تتجه إلى الذات؛ أي إلى المتكلم، والثانية إلى المخاطب. والثالثة إلى أي شيء آخر سواهما، فقد لفت هاليداي النظر إلى أن بولر كان مطبقاً لإطار تصوري موروث عن بلاتو؛ أي التمييز بين المتكلم والمخاطب والغائب. وهذا بدوره مستمد من النحو (كان مصدره النحو البلاغي الذي عرف قبل بلاتو) إنه يعتمد على كون النظم اللفظية في لغات أوربية عدة (بما في ذلك الإغريقية القديمة)، مصفوفة وفقاً لمقولة الشخص المتضمنة الشخص الأول (أي المتكلم)، والثاني (أي المخاطب)، والثالث (أي أي شيء سواهما). بناء على ذلك، عرف بولر ثلاث وظائف فقط للغة، وفقاً لتوجهها إلى شخص أو آخر من تلك الأشخاص الثلاثة⁽³⁹⁾.

(جاء تصنيف شانون /Shannon ويفر Weaver (1946):

وضع الأمريكيان شانون ووير غموضاً مؤسساً على النظرية الإعلامية ومكوناً من: المرسل، والخبر، والقناة، والمستقبل. وينسحب هذا النموذج على المعالجة التوضيحية لتوصيل النصوص أيضاً:



وقد راق لسوونسكي أن يربط هذا النموذج بالاتصال النصي؛ فمع حدث الاتصال - حيثما يكون نقل الأخبار في هيئة نصية - يؤدي المؤلف دور المرسل ويوضع النص ذاته في شفرة؛ أي في صيغة لغوية، يطمئن إليها المرسل والمستقبل وتناسب النقل عبر قناة (سمعية أو بصرية) مختارة. وقد تستلزم خصوصيات المقصد

(38) Sowinski, S. 65.

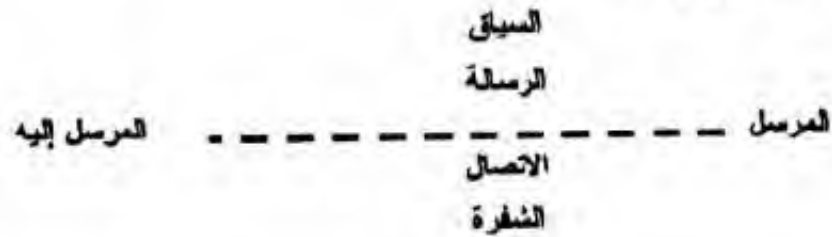
(39) Halliday / Hasan. o. cit., pp. 15 - 16

Intention والموقف Situation تغييرات فى مكونات الشفرة Code والصيغة النصية Textform⁽⁴⁰⁾

(د) تصنيف ياكوبسون Jakobson (1960) :

يبدأ رومان ياكوبسون (1960) تصنيفه الوظائف اللغوية، بتحديد العوامل التى تشكل حدث الاتصال اللفظى : ففى أى حدث للاتصال اللفظى، يث المرسل addresser رسالة message إلى المرسل إليه addressee. وتحتاج هذه الرسالة - من أجل أن تصبح فعالة - إلى سياق تشير إليه Context. ويقبل هذا السياق أن يضع المرسل إليه عليه يده. وهو إما سياق لفظى، أو مهيا لأن يكون لفظيا verbalized. وتحتاج الرسالة إلى الشفرة المشتركة كلياً - أو جزئياً على الأقل - بين المرسل والمرسل إليه (أو بعبارة أخرى) تحتاج إلى مشفر الرسالة وفك شفرتها encoder and decoder of the message). ومى تحتاج أخيراً إلى الاتصال؛ أى إلى القناة الفيزيائية والارتباط النفسى بين المرسل والمرسل إليه. وهذان الأمران يجعلان المرسل والمرسل إليه قادرين على الدخول فى الاتصال.

وبين ياكوبسون تلك العوامل التى يضمها الاتصال اللفظى جميعاً، على النحو التالى (الشكل رقم 2) :



الشكل رقم (2)

ويلاحظ أن كل عامل من هذه العوامل الستة يكون وظيفة لغوية بعينها. ويشير ياكوبسون إلى أنه بالرغم من التمييز بين مظاهر رئيسة ستة للغة، فرما أمكننا العثور

(40) Sowinski, S. 65

على رسائل لفظية، لا تحقق إلا وظيفة واحدة فقط؛ فالتعددية لا تكمن في احتكار وظيفة ما من تلك الوظائف المتعددة، إنما تكمن في نظام الترتيب الهرمي المتباين للوظائف. إن البنية اللفظية لرسالة بعينها، تعتمد اعتماداً أساسياً على الوظيفة السائدة⁽⁴¹⁾.

ويتضح لنا أن مخطط ياكوبسون ليس إلا توسيعاً لمخطط بولر. بيد أن ياكوبسون قد استطاع أن يضيف إلى تلك الوظائف الثلاث التي حددها بولر ثلاث وظائف أخرى جديدة، هي: الوظيفة الشعرية poetic function، التي تتجه إلى الرسالة ذاتها، والوظيفة التعاملية transactional function التي تتجه إلى القصة المستخدمة، ووظيفة ما وراء اللغة meta linguistic function التي تتجه إلى الشفرة المختارة⁽⁴²⁾.

(هـ) تصنيف موريس Morris (1967):

أقدم دبسموند موريس Desmond Morris (1967) - في دراسة له عن الأجناس البشرية من وجهة النظر إلى سلوكية الحيوان - أقدم على تصنيف آخر لوظائف اللغة، فيما أسماه بـ الحديث الإعلامي information talking والحديث المزاجي mood talking، والحديث الراوي (الثرثرة) grooming talking:

أما الأول، فهو تبادل المعلومات تبادلاً مشتركاً. وكان موريس يرمى إلى إظهار هذا النوع أولاً، بالرغم من أن تاريخ حياة الإنسان والطفل - كما يقول هاليداي - يبين أنه يأتي في آخر ما حدده من أنواع⁽⁴³⁾.

(41) Jakobson, Roman: Linguistics and Poetics, in: Marcel Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics, ibid, pp. 47 - 72, pp. 49 - 50.

(42) المرجع السابق ص 50 وما بعدها

وانظر عجمت لتلك الوظائف في:

يار غبرو السماء، ترجمة أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات، بيروت (مارس 1984)، ص 9 وما بعدها

(43) Halliday / Hasan. Language. Context and Text, ibid, p. 16.

وأما الثانى، فيشبه الوظيفة التعبيرية عند بولر، وبالتالي عند ياكوبسون.
وقد عرّف النوع الثالث بأنه حديث من أجل الحديث؛ كأن له وظيفة جمالية
وظيفة التلاعب.

كذلك، فقد عرّف النوع الأخير بأنه الثروة المهدبة التى لا معنى لها فى
مناسبات اجتماعية. وهذا ما أشار إليه مالىنوفسكى (1934) فى حديثه عن المخالطة
الاجتماعية phatic communion؛ أى الاشتراك فى المعنى أثناء الحديث، على نحو
ما نجد فى استعمال الناس تعبيرات مثل: 'يوم جميل، اليس كذلك؟'، فمثل هذه
التعابير، تعد - بعبارة هاليداي - طريقة لتزيت التفاعل الاجتماعى⁽⁴⁴⁾

(و) تصنيف بریتون Britton (1970) :

قام رجل التعليم الإنجليزى جيمس بریتون James Britton (1970) بتعديل
نموذج بولر وتطويره فى اتجاه مختلف. اقترح بریتون إطاراً للوظائف اللغوية التفاعلية
والتعبيرية والشعرية. وكان مهتماً بتطوير القدرات الكتابية عند تلاميذ المدارس، وأخذ
بوجهة النظر التى ترى أن الكتابة تطوّر أولاً عن طريق سياق تعبيرى، ومن ثمّ توسّع
المقدرة خارج الكتابة التفاعلية من ناحية، والكتابة الشعرية من ناحية أخرى. واللغة
التفاعلية هى التى تؤكد دور المشارك، بينما يبدو دور الكاتب فى اللغة الشعرية أكبر
من دور المشاهد .

ومن اليسر أن نلاحظ - فى التصنيفات السابقة جميعاً - مشابهات واضحة، وإن
كانت قد استخدمت اصطلاحات متباينة. وقد اجتهد هاليداي فى وضع جدول جامع
لتلك المشابهات (انظر الجدول رقم 2). ويبين هذا الجدول تطابقاً رأسياً، فكل بند
يطابق - كثيراً أو قليلاً - ما هو أعلاه أو أسفله منه. وهذه التصنيفات جميعاً تظهر أن
اللغة تستخدم فى الكلام عن الأشياء (الإعلامية، أو السردية، أو العرضية). إنها جميعاً

(44) المرجع السابق ص 16

(45) المرجع نفسه ص 16

يبين أن اللغة تستخدم من أجل أغراض وأغراضك، معبرة عن الذات ومؤثرة في الآخرين (المزاجية أو التعبيرية أو النزوعية أو الفاعلية). فضلاً عن ذلك، فإن هناك ملمح ثالث بارز للغة، هو الوظيفة التخيلية imaginative function أو الجمالية aesthetic

تداولية			سحرية		مالينوفسكي (1923م)
سردية	فاعلة				
عرضية { الغائب }	نزوعية { المخاطب }	تعبيرية { التكلم }			بولر (1934م)
تعاملية		تعبيرية		شعرية	بريتون (1967م)
إعلامية	نزوعية				
الكلام الإعلامي	الكلام الراوي أو الثرثرة	الكلام المزاجي	الكلام المكتشف		موريس (1967م)
الاستعمالات الإعلامية (التوجه إلى المحتوى)	الاستعمالات التفاعلية (التوجه إلى التأثير)		الاستعمالات التخيلية		
	ضبط الآخر	التدعيم المتبادل	التعبير عن الذات	الطغوسية	الشعرية

الجدول رقم (2)

(ز) تصنيف لينش Leech (1976) :

يجهت جيفرى لينش Geoffrey Leech (1976) - على دعم درايتيه بالمحاولات السابقة - فى النظر إلى الوظائف الاتصالية للغة. يبين لينش - إلى جانب الوظيفة الإعلامية المحايدة neutral informational function التى يميل كل إنسان إلى جعلها الوظيفة الأهم - أن هناك وظائف أخرى؛ كالوظيفة التعبيرية expressive function، وهى التى تستخدم فى التعبير عن المشاعر الإبداعية وعن السلوكيات والتصرفات (ومن أمثلتها: مفردات القسم والتعجب). ويلاحظ لينش أن المعنى التصورى Conceptual meaning هو المهيمن على استعمال اللغة استعمالاً إعلامياً، ولكن المعنى التأثيرى affective meaning هو - بوضوح - الأهم فى الوظيفة التعبيرية. ويقصد بالمعنى التأثيرى ما توصله اللغة من تصرفات وسلوكيات تخص المؤلف.

أما الوظيفة الثالثة للغة عنده، فهى الوظيفة التوجيهية directive، التى تهدف بها إلى التأثير فى سلوك الآخرين أو تصرفاتهم (وأقوم حالانها: الطلب، والالتماس). وتؤكد هذه الوظيفة - التى تنغياً ضبطاً اجتماعياً - تؤكد انتهاء المستقل أعظم من توكيدها النهاية المبدعة التى تقدمها الرسالة. ويبدو أن الوظيفة التعبيرية أقل أهمية - بوجه عام - مع المعنى التصورى، مما يكون لها مع أنماط المعنى الأخرى، لاسيما المعنى التأثيرى affective والمعنى التضمنى connotative.

ويغلب أن تضم الوظيفة التعبيرية استعمال اللغة استعمالاً شعرياً. ولكن نظل وجهة النظر هذه غير مقبولة عند لينش، بالرغم من أن الشائع هو النظر إلى الشعر على أنه تدفق لانفعالات الشاعر. ويفضل لينش أن يتعرف فى الشعر على وظيفة مستقلة، هى الوظيفة الجمالية aesthetic، التى يحددها بأنها استعمال اللغة قصداً إلى الصاغة اللغوية linguistic artefact ذاتها، لا قصداً إلى شئ آخر.

ويمكن للوظيفة الجمالية أن ترتبط - على الأقل - بالمعنى التصورى، كما هى مرتبطة بالمعنى التأثيرى. ولكن غرض الشعر الدلالى الرئيس، هو أنه لغة موصلة

بطاقتها كاملة: فكل طرق التوصيل الممكنة، وكل مستويات المعنى وأنماطه، تستعمل هنا استعمالاً مفتوحاً. ويحمل كل من الشاعر والقارئ إحساساً متزايداً، من أجل إنتاج حدث الاتصال.

وبالرغم من كثرة الحديث عن وظيفة اللغة الاجتماعية، فقلماً أعطيت - في تصنيفات الوظائف - عناية جادة. وقد حاول لينش ذلك، وأبرزها في تصنيفه. ويقصد بالوظيفة الاجتماعية phatic: وظيفة الإبقاء على فتح خطوط الاتصال، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية حتى لا تحتاج إلى إصلاح (والمثال المشهور على هذه الوظيفة هو الحديث عن الطقس)⁽⁴⁷⁾.

الوظيفة الاجتماعية إذن، هي وظيفة الإبقاء على الترابط داخل المجموعات الاجتماعية⁽⁴⁸⁾. وكان مالبينفسكى - في تصنيفه السابق - قد أشار إلى ما أسماه بـ المخالطة الاجتماعية phatic communion.

وبلاحظ لينش أن الوظيفة الاجتماعية، هي أبعد الوظائف عن الوظيفة الجمالية، من حيث إن العمل الاتصالي هنا - الذي يؤدي باللغة - إنما هو من أخف ما يمكن: إن العمل الاتصالي هنا ليس - في جوهره - ما يقوله المرء، بل هو أن يقول المرء على الإطلاق⁽⁴⁹⁾. ومن ملحوظات لينش الصائبة حقاً أن أشد الوظائف مباشرة في عرضها أدوار اللغة الاجتماعية، هي: الوظيفة التعبيرية، والتوجيهية، والاجتماعية. ولا شك أن هناك بعض الصعوبات التي تواجه المرء عند الفصل بين الوظيفة التعبيرية والوظيفة التوجيهية. وربما وفرت قطعة من اللغة وظائف عدة في آن معاً. ينذر مثلاً - كما يقول لينش - أن نحدد قطعة من اللغة إعلامية محضة، أو تعبيرية محضة، وهكذا. وبناء على ذلك، فإن قولنا مثلاً: أشعر بحاجة إلى فنجان من القهوة، يمكن أن يقرأ في ملابس مناسبة على أنه إعلامي، أو تعبيرى، أو توجيهي.

(47) Leech, Geoffrey: Semantics, Penguin Books, Printed in Great Britain
(1976) pp. 47 - 48

(48) المرجع السابق ص 62

(49) المرجع نفسه ص 62

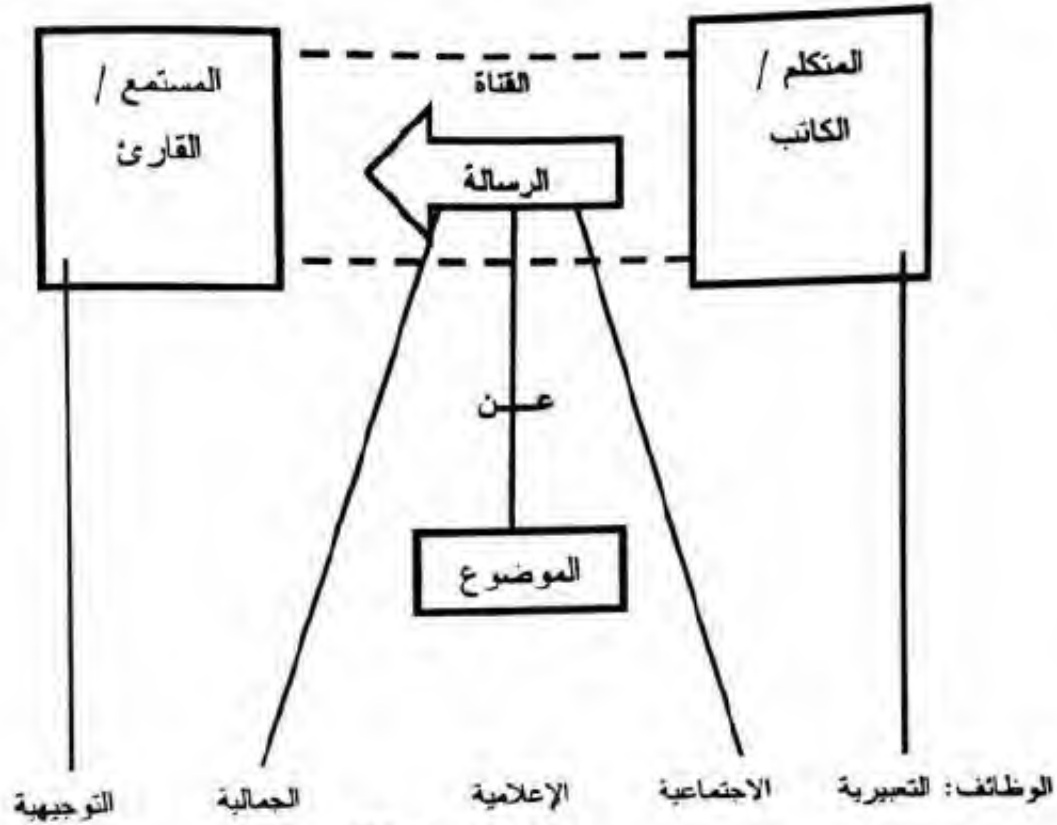
والحق، أن لهذا التصنيف أهمية خاصة، من حيث إنه يتصل اتصالاً محكمًا
بملامح جوهرية خمسة في أي موقف اتصالي، وهي:

- 1- الموضوع Subject - matter.
- 2- المبتكر Originator (كالمتكلم أو الكاتب).
- 3- المستقبل Receiver (كالمستمع أو القارئ).
- 4- قناة الاتصال Channel of Communication.
- 5- الرسالة اللغوية ذاتها Linguistic Message.

وتطابق كل وظيفة من الوظائف الخمس توجه اللغة إلى عامل من العوامل
السابقة:

<u>الوظيفة</u>	<u>توجه اللغة إلى عامل</u>
الإعلامية:	الموضوع
التعبيرية :	المتكلم / الكاتب
الترجيئية :	المستمع / القارئ
الاجتماعية :	قناة الاتصال
الجمالية :	الرسالة

وعرض ليتش هذه الوظائف موصولة بعواملها (انظر الشكل رقم 2) بما يشير
إلى إفادته من بولر وياكوبسون بخاصة.



الشكل رقم (2) (50)

(ح) تصنيف هاليداي Halliday (1990) :

جعل هاليداي (1990) الوظيفة مبدأ أساسياً من مبادئ اللغة. ويرى أن الباحثين السابقين قد بنوا إطاراً تصورياً بمصطلحات غير لغوية، وأنهم قد نظروا إلى اللغة من الخارج، وجعلوا تلك النظرة مدخلاً لتفسير الطرق المختلفة التي يستعمل بها الناس اللغة. وهو يرى كذلك أن مفهوم الوظيفة عند هؤلاء الباحثين يرادف مفهوم الاستعمال. وقد جدّ هاليداي في طلب فحوصه الخاصة، فخطا خطوة أبعد، خطوة تفسر التنوع الوظيفي، لا مجرد التنوع في استعمال اللغة؛ إنه بالأحرى شيء ما يبنى من الداخل، بما هو الأساس الذي يحقّ تنظيم اللغة ذاتها، لا سيما تنظيم النظام الدلالي.

بعبارة أخرى، لا تفسر الوظيفة عند هاليداي من حيث هي مجرد استعمال اللغة، بل بما هي خاصية جوهرية للغة ذاتها؛ أى بما هي شئ أساسى فى تطور النظام الدلالى. وقد حذاه ذلك إلى القول بأن تنظيم أى لغة طبيعية، إنما يتأتى من تفسيرها فى حدود نظرية وظيفية.

لقد سعى هاليداي إلى تبين الأساس الوظيفى للغة من خلال تحليل جملة مفردة. ولا يخلو ذلك من خطورة؛ لأن هناك دائماً خطر وقوع بعض الملامح العرضية (بفتح الراء) incidental features التى تُعد خاصة فى جملة بعينها إذا كانت تلك الملامح ملامح تمثيلية representative للنحو بعامة. وطبيعى أن الملامح التى تعد ظاهرة أو معروضة فى جملة بعينها، يمكن فقط أن تكون عرضية بالنسبة إلى النظام اللغوى على الجملة⁽⁵¹⁾.

إن ضم البعد الوظيفى الدلالى إلى النحو، هو - كما يلاحظ مورلى - ردف الفرضية بأن اللغة نشاط اجتماعى، وأنها تتل مكانها من السياق الموقفى، وأنها تشغل عددًا من الوظائف الاجتماعية⁽⁵²⁾.

والحق أن هذه الفكرة ليست جديدة؛ فقد أشار بولر ومالينوفسكى - كما رأينا من قبل - إلى الثلاث الوظائف المعروفة: الوظيفة التأثيرية، وهى التى تعمل فيها اللغة صيغةً للضبط الاجتماعى؛ والوظيفة التعبيرية، التى تستخدم فيها اللغة للتعبير عن مشاعر المتكلم؛ والوظيفة الفكرية / العرضية ideational / representational التى تصبح معها اللغة وسيلة لنقل الأفكار الاتصالية.

وكان هاليداي قد حدد أربعة مظاهر مختلفة للمعنى. وهذه المظاهر - فى الواقع - هى المكونات الأربعة لعلم الدلالة فى كل لغة من اللغات. وهذه المظاهر هى ذاتها عند هاليداي الوظائف الرئيسة التى تقوم بها اللغة، وهى :

(51) Halliday : Language, Context and Text, ibid, pp. 17 - 23

(52) Morley : An Introduction, ibid, p. 44

experiential	(أ) وظيفة نقل التجارب
interpersonal	(ب) وظيفة الربط بين الأشخاص
logical	(ج) الوظيفة المنطقية
textual	(د) الوظيفة النصية

هذه الوظائف تشغلها لغة البالغين. وهي تُرى بدورها منعكّة على المظاهر المختلفة للمعنى اللغوي.

أما وظيفة نقل التجارب، فهي قيام اللغة بترصيل الأفكار. إنها الوظيفة التي يعبر بها المتكلم عن العناصر المضمونية لمنطوقه. وفي إجراء هذه الوظيفة، يشير المتكلم إلى الناس، والأشياء، والأمثلة، والأفعال، والوقائع، والحالات، والكيفيات، والملابس. وبناء على ذلك، فإن المضمون التجريبي experiential content في الجملة :

- أنا ابتعت سيارة جديدة أمس

هو : متكلم + فعل + شئ + حالة + زمن.

أما الوظيفة المنطقية، فتربط الأفكار بعضها ببعض على أساس التعادل أو التبعية، نحو:

- زيد سيتأخر، وعمره لن يستطيع أن يأتى مطلقاً.

- هو لا يحب الزبيب، ولكنه يحب الجوز.

- بالرغم من أنه لا يحب الزبيب، فإنه يحب الجوز.

- إذا كسبت هذا السباق، فسوف تُختار للفريق القومى.

- زيد، قائد الفريق، يهدف كل مباراة.

أما الوظيفة الرابطة بين الأشخاص (أي الوظيفة التواصلية)، فهي تؤسس العلاقات الاجتماعية وتبقى عليها. وهي تؤثر كذلك في سلوك الناس، وتؤدى الأشياء. وهي تعبر أيضاً عن مشاعر المتكلم وتصرفاته وآرائه.

أما الوظيفة الاجتماعية، فهي ظاهرة في التحيات وفي الصور المتنوعة للمخالطة الاجتماعية. ومن الأمثلة النمطية على التحيات المستخدمة لفتح احتكاك اجتماعي أو الاستجابة له أو لإنهائه: صباح الخير، أهلاً، أشكركم على المقابلة، إن اللقاء. وقلنا مثلاً: كيف حالك؟، يوماً جيلاً، يعد من طرق إطالة هذا الاحتكاك. ولكن مثل هذه التعبيرات يمكن أن تستعمل أيضاً ملاسات مختلفة. ومهما يكن من أمر، فإن قولنا: كيف حالك؟ ليس - في سياق الحال - طلباً لرد شامل بالحالة الصحية لمن نكلمه؛ فبالنظر إلى الحالة الحالية للشخص، يصبح من المعتاد - لاسيما إذا كان المشاركون لا يعرف أحدهما الآخر - أن يكون الرد: حسناً، أشكرك - وأنت؟ أو لا بأس، أشكرك. ومن ثم، فإن تبادل المنطوقات في الوظيفة الاجتماعية، يتبع - في حالات عدة - النمط الشكلي المتوقع، ويظهر استخدام اللغة المستعملة في فتح طريق إلى حديث أكثر إشباعاً.

والحق، أن الشخص الذي يكسر هذا النمط ويتعلل في رده، سوف يُنظر إليه سريعاً على أنه شاذ أو غريب، وسيكون سلوكه مستهجناً. إن استعمال عبارات مثل: طقس جميل، ليس كذلك؟ - في هذه الوظيفة الاجتماعية - يمكن أيضاً أن يعدّ مقدمة لمحادثة أطول عن الطقس. ولكن في مثل تلك الملاسات، تبقى المحادثة أيضاً على المستوى السطحي أو الظاهري؛ لأن محور الطقس يستعمل موضوعاً يمكن أن يُناقش على نحو غير جلي *controversially*، ولذلك يمكن أن تزول الموانع التي تمنع من اتصال أو تفاعل أشد.

أما الوظيفة الثانية من الوظائف الرابطة بين الأشخاص، فهي ما يمكن أن نسمي بالوظيفة الأدائية أو الوظيفة الأداة *instrumental function*؛ وهي وظيفة التأثير في سلوك الآخرين وعمل الأشياء. وتعرض هذه الوظيفة نفسها بطرق متنوعة، ويمكن بيان بعض تلك الطرق فيما يلي:

الانتماس: هل يمكنك أن تناولني الملح، من فضلك؟

الاستعلام: ما موعد الفطار القادم إلى بريستون؟

الإرشاد: استدر يساراً عند الأضواء، ثم خذ الدوران الأول يميناً.
الحظر أو المنع: ابق خارجاً، ممنوع التدخين، لا تكلم على النافذة.
التحذير: خطر، أعمال طريق.
النصيحة: أود أن تحجب عينيك الإجهاد.
التهديد: سأصفعك إذا فعلت هذا ثانية.

وأما الوظيفة الثالثة فى الوظائف الرابطة، فهى التعبير عن تصرفات المتكلم الخاصة تجاه المحتوى الفكرى لما قيل. ومن ثم، يشار إليها على أنها الوظيفة الشخصية التى تستخدم فى تعديل الفكرة الرئيسة فى الجملة، كما يبدو فيما يلى:

- من المحتمل أن زيدا وصل لتوه.
- ربما لم تلتق خطأ قط.
- قد لا تكون تلتق خطأ قط.
- ينبغى أن يكون وصل لتوه.
- لسوء الحظ لم تلتق خطأ قط.
- من المدهش أنه عثر على فرق.
- مما يؤسف له أنه قرر الرحيل.

أما الوظيفة النصية (أو الخطابية)، فهى - حسبما يرى هاليداي - لخلق النصوص. إنها الوظيفة التى تمنح الفقرة تماسكاً دلاليًا coherence أو ترابطاً نحويًا cohesion. وإذا تأملنا التابع التالى الذى رفعت منه بعض ملامح المكوّن النصي: «يسعل الأولاد إلى السيارة. وقفت السيارة عند حافة العشب. رمن الأولاد الكأس المملوءة على السيارة. تطلع الأولاد ناحية المظلة. اشتعل الضوء الخافت فى المظلة»، إذا تأملناه، أدركنا أن الفقرة النموذجية أكثر من مجرد تتابع من الجمل. إن النص يستخدم أنماطاً متنوعة من المصادر اللغوية للتعبير عن الأفكار وتعليق بعضها ببعض وبدون هذه المصادر. فإن الأثر الناتج سيكون عبارة عن فقرة لا نطاق قراءتها. إن كل وظيفة من الوظائف السابقة تتميز بخصوصيتها عن الوظائف الأخرى

ولكنها تؤكد أن اللغة - في المنطوقات - تؤدي أكثر من وظيفة واحدة. إذا أخذنا - مثلاً - الجملة التالية :

- «يمكن أن يكون البواب نسي المفاتيح، ثم ذهب بفتش عنها». رأينا أنها يمكن أن تحلل هكذا:

الوظيفة التحريية: نسي البواب المفاتيح. ذهب البواب بفتش عن المفاتيح.

الوظيفة المنطقية: ثم.

الوظيفة الرابطة: يمكن.

الوظيفة النصية: استر الفاعل في الجملة الثانية. وفي هذه الجملة أيضاً حذف الفعل يمكن وفيها كذلك حل الضمير ما محل المفاتيح.

ونتوسع الوظائف: التحريية والمنطقية ما سمى بالوظيفة الفكرية. وتبين الوظائف اللغوية المختلفة عن طريق ثلاثة مكونات للنحو. وتعين هذه المكونات من قبل الوظائف التي ترتبط بها: فهناك المكون الفكري الذي يمتلك مكوناً فرعياً تجريبياً ومنطقياً؛ وهناك المكون الرابط بين الأشخاص؛ وهناك المكون النصي. وبناء على ذلك، فإن النحو يمتلك وارداً وظيفياً functional input وصادراً بنائياً structural output. وبالرغم من أن كل مكون من تلك المكونات قائم بذاته، فإنها جميعاً تسهم في آن معاً - وإن اختلفت طرق إسهامها - في المعنى الكلي وفي بنية النص. ولا معنى لتسلسل الأفضلية بين تلك المكونات. والحق أن هاليداي قد دحض أي فكرة بأن التكلم يخلق مضمون الجملة أولاً، ثم يحول هذا المضمون إلى الصيغة الكلامية المطلوبة أو إلى التابع النصي المقتضى⁽⁵³⁾.

(3) إثنوجرافيا الاتصال :

تبنى إثنوجرافيا الاتصال ethnography of communication على دراسة واقعة كلامية بعينها speech event في وضع اجتماعي خاص. إنها تدرس

(53) Morley : An Inroduction, ibid, p. 44 - 47

نماذج من السلوك الاتصالي: ملحوظة أو مدونة⁽⁵⁴⁾. وقد أوجد هذا المنهج ودعا إليه عالم الأنثروبولوجيا ديل هايمس Dell Hymes (1962). كان الأساس الذي بنى عليه هايمس منهجه الإثنوجرافى هو أن الكلام ينمركز أو يتحدد نظامياً داخل سياق الثقافى الاجتماعى socioculture context. وهو يوازى من هذه الناحية - كما يلاحظ فان دايك Van Dijk - اختصاص علم الاجتماع، فى كشفه عن سياقة التفاعل اليومى.. ويبدو الفرق بينهما فى أن الإثنوجرافى مهتم اهتماماً جوهرياً بالوقائع الاتصالية communicative events فى مجتمعات وثقافات أخرى (وهى غالباً المجتمعات والثقافات غير الغربية)، أو إن يكون مهتماً بالثقافات الفرعية فى مجتمعه الخاص.

يحاول الإثنوجرافى جمع معلومات غنية، معتمداً على المظاهر الواردة المتعددة التى تعرضها الثقافة والتى يمكن أن تؤثر فى أبنة الوقائع الكلامية فى هذه الثقافة وفى حركيتها dynamics of speech events. وتستحضر هذه المسألة بعض الاختصاصات اللغوية الاجتماعية: فالطبقة الاجتماعية، والسلالة، والعمر، والجنس، والحالة الثابتة، والدور، وعوامل اجتماعية أخرى، تبدو مرتبطة بتنوعات من الأبنية النحوية والأساليب البلاغية والسردية وأبنية خطابية أخرى. إن الموجودات الإثنوجرافية، تبدو غالباً فى البنية التالية:

الناس من النوع س (رجال، نساء، كهول، قادة ... الخ) يستعملون - نمطياً الشكل ص (التنظيم، مقام الصوت، مادة معجمية، صيغة سردية، شفرة ... الخ) فى السياق ع (بغرض معين، ومتحدثين إلى شخص بعينه، وفى واقعة اجتماعية محددة)⁽⁵⁵⁾.

كان تشومسكى Chomsky قد حدد هدف النظرية اللغوية بأنه وصف كفاءة

(54) Stubbs, Michael: Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis of Natural Language, Basil Blackwell, Oxford (1989)p. 40

(55) Van Dijk, Teun. A. : Dialogue as Discourse and Interaction, in : Teun A. Van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis, Vol. 3: Discourse and Dialogue 3.rd ed. Printing, London (1989)pp. 1-11, pp. 7-8.

التكلم المثالية، ووصف معرفته بالصحة النحوية، سواء أكانت الجمل الماثورة putative sentences جزءاً من لغته أم لا. وفي تأكيد العناية بالجانب النحوي. لا يعنى بجانب المناسبة appropriate. كان تشومسكى راعياً في عرض العلاقات النحوية - بياطة - بين:

- he hit me,
- it was me that he hit,
- it was him that hit me.

دون أن يحاول تفسير السبب الذي من أجله تبدو إحدى هذه الجمل مناسبة لموقف خاص لا تناسب جملة أخرى⁽⁵⁶⁾. ويحجج الأثنوبولوجي ديل هايمس، فيبرهن على أن تعريف تشومسكى الكفاءة Competence كان ضيقاً أكثر من اللازم؛ فعلم اللغة ينبغي له أن يعني نفسه بالكفاءة الاتصالية Communicative Competence؛ أي مقدرة التكلم على إنتاج منظورات مناسبة، لا أجل نحوية⁽⁵⁷⁾

يُبين هايمس أن المنهج السديد، ينبغي له أن يميز بين أربعة مظاهر للكفاءة، وأن يقرر على فحصها. وهذه المظاهر هي:

- الإمكانية المطردة systematic potential.
- المناسبة appropriateness.
- التوارد occurrence.
- إمكانية الإجراء feasibility.

ويعنى هايمس بالمظهر الأول: إن كان هناك شيء ما لم يعد ممكن التحقق، وإلى أي مدى لم يعد هذا الشيء ممكن التحقق بعد. وأما المناسبة، فهي تعنى: إن كان هناك شيء ما في سياق ما، يبدو نافعا ومؤثرا، وإلى أي مدى يبدو هذا الشيء هكذا. وتضم كفاءة

(56) Coulthard, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis. Longman Group Ltd. 6 th impression. England (1983)p.30

(57) Hymes, Dell: Sociolinguistics and the Ethnography of Speaking, in: Ardener, E. (ed.): Social Anthropology and Linguistics, Association of Social Anthropologists Monograph 10, Tavistock, London (1971)pp. 47 - 93, p. 48.

المتكلم أيضاً معرفته بالوقوع؛ أى إن كان هناك شئ ما قد تم، وإلى أى مدى كان تمامه. ويعرض هذا البعد النظرى حقيقة كون أفراد جماعة كلامية على وعى بالوقوع العام أو النادر السابق، أو على وعى بخصائص الكلام المتعددة الجديدة، وأن تلك المعرفة تتخلل تحديداتهم وتقويماتهم طرق التكلم. أما إمكانية الإجراء، فهى ترتبط يكون شئ: ما يمكننا، وإلى أى مدى تبدو هذه الإمكانية.

وإذا كان علم اللغة قد امتد نظره إلى تغطية تلك المظاهر الأربعة التى تعرفها الكفاءة، فإن هائمس يشعر أن هذا النظر مازال ضيقاً جداً. إنه يشعر بالحاجة إلى وضع علم وصفى ثانٍ للغة، هو ما يسميه بإثنوجرافيا التكلم أو الاتصال، الذى يختص ببنية اللغة، بل باستعمالها، وبقوانين التكلم؛ أى بالطرق التى ينخرط فيها المتكلمون فى سلك صور للتكلم محددة، أو فى سلك المحاور topics، وصيغ الرسائل message forms، فى أوضاع ونشاطات خاصة⁽⁵⁸⁾.

جعل هائمس نقطة البداية فى تحليل مكونات الوقائع الاتصالية components of communicative events، هى التحليل الإثنوجرافى للعادات الاتصالية فى جماعة لغوية بعينها فى مجملها، وتحديد قيمة تلك العادات فى الوقائع الاتصالية، والوقوف على مكوناتها، والنظر إلى السلوك الاتصالى مرتبطاً بالوضع أو الحالة الضمنية.

الواقعة الاتصالية إذن مسألة مركزية (بمعنى اللغة الخاصة، والرسائل الاتصالية التى تعرضها الشفرة اللغوية فى هيئة حدث لغوى speech act، بعد بؤرة الاهتمام). ويجعل هائمس العوامل التى تحدد النظرية الاتصالية، فى ثمانية عوامل، هى: (2،1) أنواع المشاركين المتعددة فى الوقائع الاتصالية: كالمُرسلين والمستقبلين، والمخاطبين (بكسر الطاء) والمخاطبين (بفتح الطاء)، والمُفسرين (ومعهم المتكلم)، ونحو ذلك.

(58) Coulthard, op. cit., p. 31

وقارن Hymes, op. cit, P. 50

(3) القنوات المتنوعة المناسبة وصور استعمالها: كالتركيب، والكتابة، والطباعة، والدق بالطول، والنفخ، والصغير، والتفتي، وحركة الوجه والجسم (التي تستقبل بصرياً)، والشم، والإحساس الذوقي، واللمس.

(4) الشفرات المتنوعة المشتركة بين مشاركين في الاتصال متعددين: وهي شفرات لغوية linguistic codes أو شفرات خارجة عن اللغة paralinguistic codes، أو شفرات سلوكية حركية kinesic codes، أو موسيقية، ونحوها

(5) الأوضاع والهيئات setting التي تسمح بقيام الاتصال، أو التي تحتمه، أو تنشطه، أو تختصره.

(6) صيغ الرسائل وأجاسها، وهي تمثّل لفظياً من حمل دوت وحدات صرفية مفردة، حتى أنماط القصائد وأشكالها المتميزة، أو الخطب، أو المقامات الصوتية للسائعين، أو أي أعمال وأساليب نمطية.

(7) المحاور والشروح أو التعليقات comments التي تدور حولها الرسالة.

(8) الوقائع ذاتها، بأنواعها وملاحظها المميزة على الجلسة.

وينبغي أن تحدد هذه العوامل جميعاً، وأن يُعرف عليها على نحو إثنوجرافي مناسب⁽⁵⁹⁾

ويربط هابمس بين تحليل السلوك الثقافي تحليلاً بنائياً وتحليل السلوك الاجتماعي تحليلاً بنائياً أيضاً بما هو مظهر من مظاهر الشفرة اللغوية. ومن ناحية أخرى، يربط بين القدرات الفونولوجية التي تحدد مجموعة السمات واللامع التي تقدر على تعيين السلوك الثقافي وتصاده⁽⁶⁰⁾

(59) Hymes, Dell, Toward Ethnography of Communication: The Analysis of Communicative Events, in: Pier Paolo Giglioli (ed.) Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990) pp. 22-23

(60) المرجع السابق ص 23

ويرى هابمس أن الإثنوجرافيا السديدة هي التي تعرض تصنيفاً دالاً من الناحية الثقافية للتبليغات والتقارير المثمرة عن العلاقات الواردة بين المقولات والسياقات المحددة مكانياً (سياقات الأشياء والوقائع) داخل قالب اجتماعى بعينه⁽⁶¹⁾.

ولعل من أهم ما يعزى من ميزات إلى المنهج الإثنوجرافى، توسيع مفهوم الرسالة، الذى يعد نقطة البدء فى أى تصور. إن مفهوم الرسالة عند هابمس يتضمن الإسهام الحقيقى أو المنسوب إلى {1} الشفرة أو الشفرات التى تتجلى فيها الرسالة عند {2} مشاركين، هم - على الأقل - متكلم ومخاطب (وربما كانا شخصاً واحداً) فى {3} واقعة كلامية يعينها نقلها، وتحدد ملامحها عبر {4} قناة أو قنوات، و {5} وضع أو سياق، مع {5} صيغة يعينها أو كيفية خاصة للرسالة ذات {6} عوار وتعليق، بمعنى قول شئ ما عن شئ ما. إن مفهوم الرسالة يتضمن جملة المكونات السابقة فى آن معاً⁽⁶²⁾.

وبما يعزى من ميزات إلى تحليل الاتصال من منظور إثنوجرافى أيضاً، تحدد وظائف الوقائع الاتصالية بالنظر إلى وضع المشاركين فيها:

(أ) فلذا ركزنا النظر على المخاطب (بكسر الطاء) أو المرسل، فى علاقته بالمكونات الأخرى للواقعة الاتصالية، وجب أن تكون هناك أنماط من الوظائف نحو: تعيين المصدر، والتعبير عن التصرف أو السلوك تجاه مكون أو آخر أو تجاه الواقعة كلية. ومن تلك الوظائف أيضاً إمعان الفكر (التفكير جهراً) ... الخ. الوظائف هنا إذن هى القصد، والتصرف أو السلوك، والوعى بالأشياء أو اللاوعى بها.

(ب) وبالتركيز على المخاطب (بفتح الطاء) أو المستقبل، تلزم أنماط من الوظيفة نحو: تعيين الغاية، وطرق التحكم فى الرسالة، بتوقع تصرف بعينه إزاء الغاية.

(61) المرجع نفسه ص 25.

(62) المرجع نفسه ص 26.

- (ج) وبالتركيز على القنوات في علاقتها بالمكونات الأخرى، تلزم وظائف ذات علاقة بالإبقاء على الاحتكاك contact، وضبط الضوضاء: طبيعياً ونفسياً.
- (د) وبالتركيز على الشفرات في علاقتها بالمكونات الأخرى، تلزم وظائف مثل تلك التي يقدمها التعليم، والتحليل، وإبتكار أنظمة الكتابة، ومراجعة هوية أحد عناصر الشفرة المستعملة في التخاطب ونحوها.
- (هـ) وبالتركيز على الأوضاع في علاقتها بالمكونات الأخرى، يلزم كل ما يُعدُّ سياقاً contextual، إلى جانب الواقعة ذاتها، من حيث إن أى مكون - أو كل المكونات - يمكن أن يعد محددًا وضع الواقعة setting of the event، لا محلها من الزمان والمكان فحسب.
- (و) وبالتركيز على صيغة الرسالة في علاقتها بالمكونات الأخرى، تلزم وظائف نحو: تصويب تجارب الطبع، وأشكال التنفيح والطباعة، والتقليد بالإشارات، والمهام الشعرية والأسلوبية.
- (ز) وبالتركيز على المحور في علاقته بالمكونات الأخرى، تلزم وظائف ذات علاقة بالمرجع reference (أى المعنى اللغوى، والتضمن، والمحتوى).
- (ح) وبالتركيز على الواقعة الكلامية ذاتها، ينبغى لنا أن ندخل كل أنماط الوظيفة المسماة بوظيفة ما وراء الاتصال meta communicative types of function⁽⁶³⁾.

ولعل جعل هائمس وضع المشاركين مركزاً لتحديد أنماط الوظائف المتنوعة يؤول إلى نظرتة الخاصة إلى الكفاءة، كفاءة الشفرة وكفاءة مستخدميها. إن الكفاءة تنتزع مع الوقائع والأوضاع التي تعرض للمشاركين، بما يتعلقون به من سلوك وهيات معتادة فى التكلم، وبما يصدر عن من قيم ومعتقدات، تعبر عن خواص أوضاعهم المقيدة فى تكوين الوقائع الاتصالية.

(63) المرجع نفسه ص 36 - 38.

إن تفاعل اللغة مع الحياة الاجتماعية، ينظر إليه - من المبدأ - على أنه موضوع الفعل الإنساني human action، معتمداً على المعرفة knowledge : واعية أحياناً وغير واعية غالباً، تلك التي تمكن الأشخاص من استعمال اللغة.

والحق أن الوقائع الكلامية والأنظمة الكبرى، تمتلك خصائص لا تحول إلى خصائص الكفاءة الكلامية للأشخاص. إن مثل تلك الكفاءة - على أى حال - كامنة فى السلوك الاتصالي وتدبيره communicative conduct، لا فى داخل الجماعات فحسب، بل فيما بينها من مراجعات أيضاً.

إن الكفاءة الكلامية عند الأشخاص، ينبغى أن يُنظر إليها على أنها مباشرة سلسلة من أنظمة المواجهة encounter على مستويات نظر مختلفة⁽⁶⁴⁾.

إن المنظور الإثنوجرافى إلى السلوك الاتصالي، يُعنى - فى إطار مناقشة اللغة فى سياقها الاجتماعى - بملاحظة الملامح المميزة للمشاركين من حيث: العمر، والجنس، والنسب العرفى، والعلاقة فيما بينهم، وأوضاعهم الاجتماعية النسبية، ودرجة إلمامهم بالأشياء، وغيرها من العوامل التى يمكن أن تؤثر فى كيفية مباشرة الاتصال⁽⁶⁵⁾. وتعد تلك الملامح جميعاً معدلات لأداء وقائع كلامية خاصة؛ فبعض الوقائع تحتاج - فى سهولة - إلى أن تشغل أدواراً بعينها للمشاركين، وتحتاج وقائع أخرى إلى مشاركين من عمر بذاته، وجنس خاص، وعلاقة قرابة محددة، ودور أو مهنة بعينها⁽⁶⁶⁾.

من ناحية أخرى، فقد عتيت إثنوجرافيا الاتصال، بالتمييز بين مستويات النشاط الكلامى. ويستخدم هايمس ثلاثة مصطلحات للتحليل الإثنوجرافى، ووصف السلوك الكلامى، يجعلها معدة وحدات هذا السلوك، وهى : الموقف الكلامى، والواقعة

(64) Hymes, Dell, H: Models of the interaction of Language and Social life, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds): Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, Basil Blackwell, Oxford (1989) pp. 35 - 71, p. 53.

(65) Salzman, ibid, p. 197.

(66) Coulthard, ibid, p. 44

الكلامية، والحدث الكلامي (أو المقال) speech event⁽⁶⁷⁾.

وجدير بالإشارة - في هذا المقام - أن النظر إلى الاتصال غير اللفظي بعين المراعاة، يوجب الحاجة إلى توسيع تلك الاصطلاحات. وينبغي أن نستبدل - حيثئذ - المفردة «كلام» بالأخرى «اتصال» التي تتسع للسلوكيات الحركية والإشارات بأنماطها المتباعدة؛ فنحن نلاحظ في كثير من المواقف الاتصالية أن رفع الحاجب، أو غمزة العين، أو مط الشفتين ونحوها، يمكن أن تبدو - في وظيفتها الاتصالية وتأثيرها - كالجملة الكاملة تمامًا.

ومهما يكن من أمر، فإن خلاصة تحديد الوحدات الثلاث السابقة تحديدًا إثنوجرافيًا، تبدو على النحو التالي:

(أ) الموقف الكلامي :

يكشف المرء على التو - داخل الجماعة اللغوية - كثيرًا من المواقف المرتبطة بالكلام (أو المعلّمة بغياب الكلام)، وتوصف سياقات الموقف - غالبًا - بأنها طقوس أو مشاجرات، أو رحلات صيد، أو رجة عائلية، أو أى موقف من عدد هائل من المواقف التي تأخذ مكانها من المجتمع، والتي يمكن تعيينها في حدود المشاركين وأهدافهم. وهي - من ثم - قابلة لأن تنماز عن مواقف كلامية أخرى. ولا يجد هائمس مقيّدًا الاهتمام إلى مثل تلك المواقف، بإعادة عنوانها في حدود الكلام. ويؤكد أن التمييزات التي وُضعت بين المواقف بالنظر إلى الجماعة الكلامية speech community لا تطابق مفاهيم المنهج الاتصالي العام الذي يوجب ملاحظة المجالات المتباعدة من الاتصال عن طريق الكلام، والأفلام، والعمل الفني، والموسيقى.

إن مثل تلك المواقف ينبغي لها أن تدرج على أنها سياقات في تبليغ قوانين التكلم rules of speaking، بما هي مظاهر للوضع setting (أو الجنس genre). إن تلك المواقف - على العكس من الرقائع الكلامية - ليست محكومة في حد ذاتها

(67) Hymes, Models, pp. 56 - 57

بمثل تلك القوانين، أو بطائفة منها. فالصيد - مثلاً - يمكن أن يتضمن كلاً من الوقائع اللفظية verbal events والوقائع غير اللفظية nonverbal events. ويمكن للوقائع اللفظية أن تتكون من أكثر من نمط واحد.

من الضروري إذن - في التوصيف اللغوي الاجتماعي - أن نتعامل مع النشاطات التي يمكن التعرف عليها بطريقة ما، على أنها إلزامية bounded ومكملة integral. وينبغي - من وجهة نظر التوصيف الاجتماعي العام - أن تسجل registered تلك النشاطات على أنها طقوس، أو رحلات صيد أسماك، ونحوها. ومن وجهات نظر خاصة، يمكن أن ينظر إليها على أنها مواقف ترتبط بأمور سياسية أو جمالية، تستخدم سياقات بعينها من أجل إظهار نشاط سياسي أو جمالي ونحوهما. ومن وجهة النظر اللغوية الاجتماعية، يمكن أن تعد مواقف كلامية⁽⁶⁸⁾.

(ب) الواقعة الكلامية :

يقيد المصطلح «واقعة كلامية speech events» بالنشاطات - أو مظاهر النشاطات - التي تُحكم مباشرة بقوانين استعمال الكلام أو معايير rules or norms for the use of speech. ويمكن أن تتكون الواقعة الكلامية من حدث كلامي مفرد، ولكنها تتضمن - غالباً - أحداثاً عدة: فوقع اسم فحسب، يمكن - في الوقت ذاته - أن يكون هو نفسه كل ما تمتلكه عبارة اسمية، وهو نفسه الجملة كلها (مثل قولنا: النار!). وهذا يعني أن حدثاً كلامياً واحداً، يمكن أن يشكل واقعة كلامية كاملة، أو موقفاً كلامياً كاملاً (فالطقس الديني الذي يقوم على متوسل واحد، هو نفسه متوسل واحد).

ومهما يكن من أمر، فإننا - في الغالب الأعم - نجد فرقاً في القدر أو الأهمية؛ ومثال ذلك: الحفلة (موقف كلامي)، ومحادثة أثناء الحفلة (واقعة كلامية)، والمزاح أثناء المحادثة (حدث كلامي). ونلاحظ هنا أن النمط نفسه من الحدث الكلامي، قد يتكرر

(68) المرجع السابق ص 56.

فى أنماط مختلفة من الواقعة الكلامية (المقال)، وأن النمط نفسه من الواقعة الكلامية، قد يتكرر فى سياقات موقف مختلفة. من ثم، فإن المزاج أو المباشطة (حدث كلامى) يمكن له أن يوضع فى محادثة خاصة، أو فى محاضرة، أو فى مداخلة شكلية. ويمكن للمحادثة الخاصة، أن تقع فى سياق حفلة، أو فى وقفة محددة لتغيير المواضع فى مباراة تنس.

(ج) الحدث الكلامى :

يجعل هايمس الحدث الكلامى speech act الوحدة الصغرى للكلام، لغايات التحليل الإثنوجرافى. وقد يكون الحدث الكلامى تهتة، أو اعتذاراً، أو استخباراً، أو نحية، أو مداخلة شخصية ونحوها. ويمكن أن يمتد الحدث الكلامى من كلمة مفردة (كقولنا: أنطلق! أو شكرًا!) حتى قصة كاملة.

ويتوسط مستوى الأحداث الكلامية - على نحو مباشر - مستويات النحو المألوفة ومابقى من الواقعة الكلامية أو المرقف الكلامى؛ من حيث إنه يستلزم صيغة لغوية ومعايير اجتماعية فى آن معاً.

إن المتكلمين يشتركون فى المعرفة بحالة المنطوقات وأوضاعها بما هى أحداث، معتمدين فى ذلك على نظام مستقل من المؤشرات التى تقدمها السنوات المتنوعة لكل من النحو والأوضاع الاجتماعية. ولتأمل هنا الحالة التى يصبح فيها المنطوق: «هل ترى أنه ينبغي لى أن أتناول تلك الجرعة الأخيرة من الشائ؟»، يصبح فيها طلباً.

إن مستوى الأحداث الكلامية المستقل بذاته، إنما هو - فيما يبين هايمس - كامن أو مضمّن فى منطق السنوات اللغوية الذى يزول بمقتضاه الغموض فى دلالة المنطوق: فالجملة الاستفهامية فى صيغتها، قد تكون الآن التماساً، أو طلباً، أو تقريراً، والالتماس قد يكون معروضاً فى جملة استفهامية أو تعجبية أو إقصاحية أو أمرية، من حيث صيغتها⁽⁶⁹⁾.

(69) المرجع السابق ص 56 - 57

وبين سالزمان - أحد الأنثروبولوجيين المفتين أثر هاجس في المنظور
الإنشجرفافى للاتصال - أن الأحداث الكلامية التى يتبع أحدها الآخر فى سلسلة
مميزة، والتى تحكمها قوانين اجتماعية، من أجل استعمال الضميمة الكلامية فى تكوين
واقعة كلامية، هى الوحدة الأساسية فى التفاعل اللفظى verbal interaction.
ومن الأمثلة على تلك الوقائع: المحادثة، والاعتراف، والمقابلة، والحوار مع بائع،
والاستعلام بالهاتف، ونحوها. وتتميز الفواصل بعلامات أخرى، تشير إلى دخول عور
آخر إلى المحادثة، مثل: «إذا كان لى أن أغير الموضوع، ...» أو: «فى الطريق، سمعت
أن»⁽⁷⁰⁾.

ويأخذ تحليل المعطيات الكلامية speech data - فى المنهج الإنشجرفافى -
اتجاهين اثنين مختلفين:

(أحدهما) اختبار الخواص الشكلية التى يعرفها الكلام formal properties
of speech، من حيث تنويعاتها فى ثقافات مختلفة.
(والآخر) دراسة نوع ما من أنواع الوقائع الكلامية دراسة تفصيلية، داخل
جماعة أو ثقافة بعينها، أو مقارنة بثقافات متنوعة.

وبالإضافة إلى تحصيل العوامل الإنشجرفافية التى تتصل بالصيغ اللغوية،
وبالتنوع فى الثقافات والجماعات، من أجل النظرية العامة، ومن أجل مقارنة اللغة
والانصال؛ فإن واحداً من الإسهامات الأقوم للإنشجرفافيا، هو وصف الوقائع
الاتصالية فى تعقدها الكامل وصفاً تفصيلياً.

ويميل علماء اللغة والاجتماع - غالباً - إلى عزل جانب هام من جوانب
الخطاب أو التفاعل. وهم يوجهون عناية مستقصية إلى بعد واحد من أبعاد التحليل
(مستخدمين - غالباً - منهجاً واحداً). أما عالم الإنشجرفافيا، فهو - على العكس من
ذلك - ملزم بإعمال مبادئ كثيرة فى آن معاً، وهو معنى بأن يأخذ عمله بؤرة أوسع.

(70) Salzman, p. 196

وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل عالم الإثنوجرافيا يتبع - قليلا - عالم اللغة في اهتمامه الغالب بدراسة الأبنية النحوية وحدها (أو الأبنية التركيبية وحدها، أو الأبنية الفونولوجية وحدها). إن بنية الرقائع الانصالية كل متعلق بأشياء مترابطة في آن معاً، إنها كل متعدد المستويات، يتضمن الملامح النصية واللامح السياقية جميعاً.

ويعرض فان دايك van Dijk مجالات تحليل ملامح الوقائع الكلامية تحليلاً إثنوجرافياً، بما يؤكد الثراء التصوري والتعقيد النظري اللذين يوسم بهما هذا المنهج. إن مثل هذا التحليل يجمع بين وصف الجنس الخطابى، ووصف التخطيط الشامل overall delimitation، ووصف الوظيفة الاجتماعية، وتسمية الواقعة الكلامية الكلية، ووصف المحور (الموضوع أو المرجع)، ووصف الوضع (البيئة الزمانية والطبيعية)، ووصف أنواع المشاركين المختلفة، ووصف غرض التفاعل، ونمط الشفرة منطوقة ومكتوبة... إلخ، ووصف المعجم وعلم الدلالة، والنحو (على المستوى الخطابى أيضاً)، ومتواليات الأحداث (اللفظة وغير اللفظية)، ووصف القوانين الكامنة والمعايير، ووصف استراتيجيات الأحداث أو الواقعة الكلية⁽⁷¹⁾.

ولا شك أن مثل هذا الثراء والتنوع فى زوايا النظر الإثنوجرافى إلى الواقعة الكلامية، مما يمكن الباحث من الإحاطة المتكاملة بمحددات السياق الثقافى الاجتماعى على جميع مستويات الخطاب. ولعل ذلك مما يقود إلى جعل الأنثروبولوجيا - لاسيما حقل الإثنوجرافيا - المرتكز النظامى الشامل للخلفيات التاريخية لتحليل الكلام فى سياقه الاجتماعى. ولا شك أن تلك الخلفيات قد تلقت تأثيرات متنوعة من علوم اجتماعية مختلفة؛ كعلم الاجتماع المعرفى والكيفى، وعلم اجتماع الجماعات الصغيرة، وعلم الاجتماع الصورى، وعلم اجتماع الحياة اليومية، والتفاعلية الرمزية، والفينومينولوجيا، والإثنوميثردولوجيا وغيرها.

وبالرغم من التوصيفات الشاملة عالية التعقيد التى تقدمها البحوث

(71) Van Dijk, Dialogue as Discourse, p. 8

الإنشوجرافية، فإنها لم تحل - فيما يرى - من خطر التعميمات إزاء ظواهر محددة، تخرج بها هذه التعميمات إلى أبعاد أشد تعقيداً. هذا، وقد جذب المنهج الإنشوجرافى انتباه محلى الخطاب، الذين يجتهدون اجتهداً خاصاً فى ربط النص بسياقه، فحاولوا الإفادة من منظوراته إلى التفاعل اللغوى، وتطبيقه على بعض أنماط الرقائع الكلامية، ومنهم ميخائيل استوبس Michael Stubbs الذى اختار درساً مدرسياً، ليكون مجالاً لتطبيق معطيات المنهج الإنشوجرافى⁽⁷²⁾.

(4) الاتصال والتداولية :

التداولية pragmatics من مكونات النظرية السيميائية الجوهرية، التى تدرس العلاقات بين العلامات signs ومستخدميها⁽⁷³⁾. ويشير فان دايك إلى أن التداولية، ينبغى لها أن تخصص للمجال العملى أو الإجرائى، الذى يقوم على قوانين اللغة العرفية، وما يكون لهذه القوانين من آثار فى إنتاج المنطوقات وتفسيرها. وينبغى للتداولية - بوجه خاص - أن تسهم إسهاماً مميزاً فى تحليل الشروط التى تجعل المنطوقات مقبولة فى موقف بعينه عند متكلمي اللغة⁽⁷⁴⁾.

كانت التداولية - كما يقول فان دايك - سلة المهملات عند النحاة. وقد استمدت - فى جوهرها - من فلسفة اللغة، لا سيما نظرية أفعال الكلام Speech Acts Theory، كما استمدت من تحليل المخاطبات، ومن الاختلافات الثقافية فى التفاعل اللغوى verbal interaction على النحو الذى تراه العلوم الاجتماعية⁽⁷⁵⁾.

(72) Stubbs, Michael: Discourse Analysis, p. 40

(73) Van Dijk, Teun, A.: Text and Context, Explorations in the Semantics and pragmatics of Discourse, Longman, London, New York (1980) p. 189

(74) المرجع السابق ص 189 - 190

(75) المرجع نفسه ص 189

وتظهر التداولية منهجًا إجرائيًا عمليًا. وفي هذا المنهج توصف جميع مستويات اللغة في حدود نفعيتها. من ثم، فإن التداولية - كما يقول دويوجراند De Beaugrande ودرسلر Dressler - هي ميدان الخطط plans والأهداف goals. وهي تعالج مسائل الاستعمال علاجًا حرًا في النحو وعلم الدلالة على حدٍّ سواء⁽⁷⁶⁾. بناء على ذلك، فإننا نتناول تداولية الاتصال من الجوانب الأربعة التالية:

(أ) التداولية وقوانين التفاعل.

(ب) التداولية وقوانين التفسير.

(ج) التداولية والمقصدية.

(د) التداولية والموقفية.

وفيما يلي بيان ذلك :

(أ) التداولية وقوانين التفاعل :

إذا كانت اللغة نظامًا أى طائفة من العناصر التى يشغل كل عنصر منها وظيفة الإسهام فى تشغيل الكل، فإن السلوك الاتصالي Communication behaviour الحقيقى، يوجب النظر إلى اللغة بما هى نظام تفاعلى. ولا بد فى تفسير اللغة، من ملاحظة الارتباط بين مستوياتها، بل لا بد من ملاحظة التفاعل بين هذه المستويات اللغوية وبين العوامل المعرفية والموقفية والثقافية.

إن كل جماعة تمتلك مجموعة كامنة من القوانين غير اللغوية التى تحكم زمن وقوع الكلام، وكيفية وقوعه، ومدى تكرره، وهى التى تُعرف باسم قوانين التفاعل rules of interaction. وتختلف المجتمعات إزاء هذه القوانين: ليس من المناسب - مثلاً - أن يشترك الطفل الفرنسى فى الكلام، عندما يأتى ضيوف على الغداء، بينما يُشجع الطفل الروسى على الكلام⁽⁷⁷⁾.

(76) De Beaugrande, Robert - Alain and Dressler Wolfgang, Ulrich: Introduction to text linguistics, Longman, London - New York (1993) p. 31

(77) Coulthard, An Introduction, ibid, p. 48

إن قوانين التفاعل هي التي توجه النشاط الاتصالي Communication activity: ففي الظروف العادية، يعرف أفراد الجماعة الكلامية ما هو مناسب، وما هو غير مناسب. على سبيل المثال، لا يعتبر أبناء الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة المقاطعات الكلامية مقبولة، إلا ما كان منها بين الأصدقاء الحميمين، أو بين أفراد الأسرة. فإذا ما استأثر أحدهم بالحديث، وجدوا طرقاً مقبولة لإيقافه⁽⁷⁸⁾.

وللتفاعل معايير تحكم المسافة الفيزيائية بين المشاركين في واقعة كلامية بعينها، لا سيما في المحادثة، نغنى في خطاب المواجهة face - to - face conversation. وفي دراسة أجريت في جامعة كولورادو بين دارسين ذكور من أقطار عربية ونظرانهم من الولايات المتحدة، وجد واتسون Watson وجريفز Graves أن الدارسين العرب يواجه أحدهم الآخر عند التخاطب مواجهة مباشرة، أشد مما يكون بين الأمريكيان. ويبدو أحدهم في جلسته أقرب ما يكون إلى الآخر، حتى ليكاد يمس. وأثناء الكلام تتلاقى عيونهم على نحو أكثر اعتدالاً، وهم يتحدثون بصوت أعلى من الأمريكيان⁽⁷⁹⁾.

ومنذ الستينيات، أثار إدوارد هول Edward Hall مسألة الارتباط الداخلي بين الاتصال والثقافة، من أجل تطوير ما سمي بالتقريبية Proxemics؛ أي دراسة التمييز الثقافي للفواصل المكانية بين الأفراد، والتي تظل في المقابلات وجهاً لوجه face - to - face encounters. وقد اشتمل هذا الاصطلاح - بناءً على ذلك - على ما يدور حول دراسة الخلوة privacy، أو الزحام، أو التأقلم، أو تصميم الأبنية: خاصةً أو عامة، من وجهة نظر التعرف على التوقعات الثقافية المختلفة عند مستخدميها المتظرين.

(78) Salzman, p. 200

(79) Watson, O., Michael and Graves, Theodor, D.: Quantitative Research in Proxemics Behavior, in: Amer. Anthropol., Vol: 68 (1966) pp. 971 - 985. pp. 976 - 977.

ويرى هول Hall أن المسافات التي تظل بين أحد الأفراد والآخرين، تعتمد على طبيعة المشاركات المتبادلة بينهم، وهي محددة ثقافياً. على سبيل المثال، يلاحظ هول أن البالغين الأمريكيين من الطبقة الوسطى في شمال أوروبا، قد ورثوا - في الظروف العادية - استعمالاً مطّرداً لأربع مناطق تقريبية أو مسافات. وهي تمتد من الصداقة الخاصة إلى المعرفة العامة. ونكون كل منطقة من تلك المناطق، من حال متقاربة وحال بعيدة (انظر الجدول رقم 3). في الحال أو الهيئة المتقاربة من مسافة الصداقة الخاصة، يقترب الأفراد اقتراباً كافياً، حتى يطوّق أحدهم الآخر بذراعيه. إن الطريقة التي يتباعد بها أفراد مجتمعات مختلفة أحدهم عن الآخر، تتنوع بين مواصلة الاحتكاك وعدم الاحتكاك. على سبيل المثال، يلاحظ أن العرب وشعوب أخرى. في حوض البحر الأبيض المتوسط، وشعوب أمريكا اللاتينية، يفضلون التفاعلات التي تقع عن قرب في المسافة، بينما يفضل الناس في شمال أوروبا الاحتفاظ بالمسافة فيما بينهم⁽⁸⁰⁾.

(80) Salzman, pp. 216 - 217

منطقة المسافة	المسافة الفيزيائية بين الأقدام على وجه التقريب	القناة السمعية الأكوستيكية	القناة الشمية
ودى : قريب بعيد	صفر - 0.5 1.5 - 0.5	تجشؤ، آين همس أو صوت منخفض جدا	
شخصي : قريب بعيد	2.5 - 1.5 4 - 2.5	صوت ناعم صوت معتدل	نستهجن كل الروائح غالبًا.
استناري اجتماعي : قريب بعيد	7 - 4 12 - 7	صوت عادي صوت أعلى	نستهجن كل الروائح غالبًا.
عام : قريب بعيد	25 - 12 25	صوت عال صوت نام الجهارة	نستهجن كل الروائح غالبًا.

الجدول رقم (3)

المناطق الأربع للمسافة في الفراغ ما بين الأفراد من

أمريكان الطبقة الوسطى في شمال أوروبا

ويبين هول ملحوظاته العامة عن تلك المسافات في قوله: في أمريكا اللاتينية، تبدو مسافة التفاعل أقل كثيرًا مما هي عليه في الولايات المتحدة. والحق أن الناس لا يستطيعون الكلام - في راحة - فيما بينهم دون أن يكونوا قريبين جدًا من المسافة التي تستدعي إحاسيس حسية أو عدائية في شمال أمريكا. والشيعة هي أننا نسحب

ونتفهم، عندما يقتربون. ومن أجل ذلك، فإنهم يعتقدون أننا مترفعون أو باردون، نأفرون أو عدائون⁽⁸¹⁾.

هكذا تحكم قوانين التفاعل النشاط الاتصالي وتوجهه. وعندما تنكسر قوانين التفاعل - أو تهمل كلاً - يتبع الارتباك أو الحيرة. وإذا لم تقدم الاعتذارات، فإن الاحتمالات اللاحقة بين الجماعات يمكن أن تتوتر، بل يمكن أن تلغى⁽⁸²⁾.

(ب) التداولية وقوانين التفسير :

تمتلك الجماعات الكلامية قوانين متفردة لتفسير الرسائل messages، بما في ذلك الرسائل اللفظية وغير اللفظية. وقد كانت قوانين التفسير rules of interpretation من مكونات الكلام الجوهرية في المنهج الإثنوجرافي. بين هابس أن هذه القوانين تختلف بين الأفراد من جماعات كلامية مختلفة، عندما يدخلون في اتصال. كما بين أن قوانين التفسير، تتبع نظم المعتقد في جماعة بعينها⁽⁸³⁾.

وتتنوع قوانين التفسير - شأنها شأن قوانين التفاعل - من ثقافة إلى أخرى. وقد يكون التنوع بسيطاً، أو مميزاً، أو عميقاً. وفي داخل المجتمع الواحد - إن كان من المجتمعات متعددة الأشكال : اجتماعياً وعرقياً - لا يكون جميع الأفراد سواسية في استعمال قوانين تفاعلية بذاتها، ولا قوانين تفسيرية واحدة. على سبيل المثال، يعرف مواطنو المدن الأمريكية، من ذوى الأصل المكسيكي، قوانين مختلفة لتفسير السلوك الاتصالي، عمن يليهم من المواطنين ذوى الأحداد اليابانيين⁽⁸⁴⁾.

ويشير هابس إلى أن إشكالية قوانين التفسير مألوفة في تقدير الاتصالات بين الحكومات والقادة الوطنيين. كذلك، فإن العلاقات بين المجموعات داخل قطر بعينه، تتأثر - غالباً - بسوء الفهم. ويلاحظ هابس أن الأمريكيان البيض من الطبقة الوسطى

(81) Hall, Edward, J.: The Silent Language, NY: Doubleday, Garden City (1959) p. 209

(82) Salzman, p. 200

(83) Hymes, Models, ibid, p. 64

(84) Salzman, pp 200 - 201

- مثلاً - يقدمون في سلوك التلعثم العادى 'حشوات' fillers عند بداية التلعثم (مثل uh) ونحوها. أما النمط المألوف عند كثير من السود، فهو إعادة بداية المنطوق (ربما أكثر من مرة واحدة). هذا المعيار عند السود، لا يفسره البيض على أنه معيار مختلف، بل يفسرونه على أنه عيب أو قصور defect⁽⁸⁵⁾.

ولا شك أن الوعي بتلك الاختلافات، والحاجة إلى الفهم والضغط، أمور ملحة في الاتصال بين الثقافات⁽⁸⁶⁾.

(ج) التداولية والمقصدية :

كان من أهم مجالات العمل في علم اللغة النصي، التمييز بين العوامل النصية الخارجة عن النص والعوامل النصية الداخلية. وقد بحثت العوامل الخارجة عن النص في إطار الاتصال النصي، كما بحثت في إطار تداولية النص⁽⁸⁷⁾. لقد كانت البداية، في مجالات العمل في علم اللغة النصي، بتناول بنية النظرية التداولية، بداية ذات مغزى خاص؛ وكان اللغويين النصيين يريدون - بادئ ذي بدء - أن يؤكدوا صعوبة حصر دراسة النص فيما يصنعه المنطوق أو المكتوب فقط؛ وذلك أن كلا منهما سيظل ناقصاً إذا عزل عن العمليات الإجرائية التي يؤديها.

إن هناك دائماً دوافع واستراتيجيات، تمنع إنشاء النص والانتفاع به - كما يقول دويوجراند ودرسلر - سريان مفعولهما. وينبغي لنا دائماً أن نسعى إلى اكتشاف هذه الدوافع والاستراتيجيات⁽⁸⁸⁾.

ويُبين سرونسكى أن تداولية النص، قد عُتبت ببحث عوامل التحقيق النصي Texrealisierung الخارجة عن النص، بالدرجة التي تعين بها هذه العوامل إنجاز

(85) Hymes, Dell. Models, ibid, p. 64

(86) Salzman, p. 20

(87) تظهر العوامل النصية الداخلية في علم دلالة النص، وتحليل مضمون النص، ونحوه، وأسلوبه. أما العوامل الخارجة، فتظهر في وظيفة النص الاتصالية، وصفته الاتصالية.

(87) De Beaugrande / Dressler, Introduction, p. 53

النص وصيغته ومقصده⁽⁸⁹⁾.

كان دويوجراند ودرسلر قد حددا معايير سبعة للنصية textuality، جعلها منها المقصدية intentionality، التي تدخل مع الموقفية situationality في مجال اختصاص تداولية النص. وبالرغم من أن الوحدات اللغوية والأنماط البنائية، تمثل النشاط المركزى في البحث اللغوى، فإنه من الضروري أن نعتى بالعمليات التي تتناول تلك الرحدات والأنماط أثناء الانتفاع بها في الاستعمال. وإذا كان النص - كما يقول دويوجراند ودرسلر - يمثل ناتج تلك العمليات الفعلية، فإنه لا يمكن أن يقسّر على أنه تركيب من الوحدات الصرفية والجمل. إننا نرى - بالأحرى - أن الوحدات الصرفية والجمل، توظف بما هي وحدات وأنماط إجرائية operational units and patterns تشير إلى المعانى والأغراض أثناء الاتصال⁽⁹⁰⁾.

وبالرغم من أن السبك cohesion والحبك coherence من أوضح معايير النصية؛ باعتبار السبك في النصوص السطحية، وباعتبار كون الحبك بين عوالم النص، وباعتبار أنهما معاً يشيران إلى كيفية تكيف العناصر المكونة للنص بعضها مع بعض لصنع المعنى، بالرغم من ذلك كله، فإن أفكارنا عن السبك والحبك لا تبدو نافعة في دراسة النص إلا إذا تعاملت مع كيفية قيام الصلات والعلاقات بين المتواليات الاتصالية Communicative occurrences. وتعامل التداولية مع هذه المتواليات باستكشاف تصرفات المتجين (المقصدية) أو المستقبلين (المقبولية)، واستكشاف الأوضاع التي يقع فيها الاتصال⁽⁹¹⁾.

إن السبك والحبك، لا يمكن لهما أن يقدموا فواصل مطلقة بين النصوص و اللانصوص في الاتصال الفعلية. إن الناس يستعملون نصراً - أو يمكنهم استعمالها - في حال نبدو معها تلك النصوص - لدوافع متنوعة - غير مسبوكة سبكاً

(89) Sowinski, S. 64

(90) De Beaugrande / Dressler, p. 33

(91) المرجع السابق ص 31.

نأماً ولا محبوة حبكاً كلياً. من أجل ذلك، أدرجت تصرفات مستعملي النص attitudes of text users بين معايير النصية.

إن التركيب اللغوي ينبغي أن يقصد إلى أن يكون نصاً وأن يكون مقبولاً؛ حتى يصير نافعاً في التفاعل الاتصال. وتحتوى تلك التصرفات على شئ من التسامح مع ما يعتور السبك أو الحبك من اضطرابات، مادامنا نعلم من شأن طبيعة الاتصال الغائية. إن إنتاج النصوص واستقبالها باعتبار وظيفتها أحداثاً خطابية discourse actions مما يناسب قصداً أو هدفاً بعينه. ويتضمن مبدأ المقصدية، مقاصد متجى النص، ويعنى هذا الاصطلاح - على نحو أشد مباشرة - أن المنتج يقصد إلى التركيب اللغوي أو الهيئة اللغوية تحت الإنتاج؛ لتكون نصاً مسبوكاً ومحبوكاً. وتضع بعض المواقف مثل تلك الحدود على الزمان ومصادر العمل، بحيث لا يتحقق هذا المقصد من خلال النص المعروض تحققاً كاملاً. ومن الأمثلة على ذلك نقصان السبك في المحادثة أحياناً، نحو:

- هل أنت - علام تضحك ؟

وهذا نوع من عدم الاتساق بين الأبنية السطحية الذي يسمى في البلاغة الكلاسيكية anacoluthon؛ وهو يشير إلى تأثير العوامل الموقفية: فالتكلم هنا - مثلاً - تخلى عن المنطوق الذي بدأه لنوءه، واستجاب لإقلاق أوقعه عليه مشارك آخر. ويُسمح عادةً بمثل هذه الترفعات والتحرلات، بما لا يؤدي إلى تشوش الاتصال، لا سيما إذا كانت براعتها ظاهرة على نحو مقبول⁽⁹²⁾.

ويمكننا أن نجد مثل هذا الأمر في إنقاص الحبك؛ وذلك أن منتج النص، يمكن أن يصيروا إلى بليلة وعدم انسجام، إذا اعتري الموقف تغير في اتجاهه على نحو ما:

«حسناً، سيدى» قال الشرطى، «إنه الرجل الذى كنا نبحث عنه. أما الرجل الذى كنا نبحث عنه، فإنه لم يكن الرجل الذى أردنا، سيدى، إذا فهمت طريقى اليومية».

(92) المرجع السابق ص 113 - 114.

إن هذه السلسلة من التوكيدات غير اللفظية، تنهض من حال تعرف خاطئ. ويستطيع منتج النص - بحسب الحاجة - أن يقلل الحبك - عن عمد - لعمل تأثير خاص.

تعين المقصدية إذن - بمفهومها الواسع - جميع الطرق التي يستخدم بها منتج النص نصوياً؛ لتعقب مقاصدهم وإعجازها.

وقد حظيت المقاصد باهتمامات واسعة من مبادي مختلفة؛ مثل علم الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة، والذكاء الاصطناعي. واختلفت النظرة إلى وظيفة النصوص في هذه الميادين المتعددة على نحو ما: يتحسّس علماء الاجتماع استعمال النصوص في أنظمة المبادلة الكلامية "speech exchange systems"، حيث يتفاعل المشاركون فيما بينهم ويتفاسمون دورات الكلام. ويؤكد علماء النفس مقصد المنتج الذي يقود وعي المستمع. ويرهن الفلاسفة على أن منتج النص الذي يعنى شيئاً ما عن طريق النص، يقصد إلى منطوق النص؛ لإنتاج تأثير ما في المستمع بواسطة التعرف على هذا المقصد. أما الباحثون في الذكاء الاصطناعي، فإنهم يهتمون بخطط الناس وأهدافهم من أجل تحليل معاني الكلمات تحليلاً أفضل، تلك التي تكمن - عن حدة ذهن وحذق - في مقاصدهم أكثر من كونها في إظهاراتهم الطبيعية physical manifestations⁽⁹³⁾.

وكان هاجس مهتماً بالأغراض - الأهداف purposes - goals، وجعلها من مكونات الكلام الجوهرية. وهي بالطبع من المكونات التداولية أو غير اللغوية؛ فكل الوقائع الكلامية والأحداث الكلامية لها أغراض، حتى وإن كان هذا الغرض - بالمصادفة - هو الاتصال الاجتماعي فحسب phatic. وتشارك وقائع متعددة - أحياناً - في الأسلوب نفسه، وتتمايز فقط عن طريق الغرض والمشاركين، أو عن طريق الوضع.

(93) المرجع السابق ص 116.

وقد لاحظ هابيس أن غرض واقعة بعينها، لا يحتاج - من وجهة نظر الجماعة - إلى أن يكون مطابقاً أغراض أولئك الذين ينخرطون فيها. وجعل هابيس استراتيجيات المشاركين محددًا جوهريًا لشكل الوقائع الكلامية⁽⁹⁴⁾. ويستطيع الأفراد - على كل مستوى من مستويات اللغة - تسخير النظام لعوامل شخصية أو جماعية أو لمؤثرات فنية. وتصف إرفين Ervin واقعة التحية مثلاً، بأنها افتتاحية ضرورية في كل مواجهة encounter. ويمكن - في الواقع - أن تستعمل هذه الواقعة تحديدًا للوقت الذي تقع فيه تلك المواجهة. ويمدد المستوى النسي: من الذي ينبغي له أن يبدأ بتحية الآخر؟ فمن المألوف أن يحمي ذو المستوى الأدنى ذا المستوى الأعلى. وهناك العبارة الماثورة: إذا حيّا شخصان أحدهما الآخر، فلا أحدهما العار وللآخر الفخار⁽⁹⁵⁾. وقد عُني علم اللغة الحديث - متأثرًا تأثرًا أعمق بالبحث في فلسفة اللغة - بمسألة كيفية ارتباط المقاصد في الواقع بشكل المنطوق ومفهومه.

كان الزعم عند الفلاسفة - كما يقول أوستين Austin - قد ظل مدة طويلة بأن عمل تبليغ بعينه statement، يمكن له - فقط - أن يصف بعض الوقائع، أو أن يعيّن حقيقة ما، تنجز صدقًا أو خطأ. ولاحظ النحاة نحن أن ليست كل الجمل مستعملة لصنع تبليغات؛ فإلى جانب التبليغات هناك الاستفهام، والتعجب، والتعير عن طلب أو رغبة... إلخ⁽⁹⁶⁾. وقد عني أوستين بما أسماه الجملة الإنجازية Performative sentence أو المنطوق الإنجازي performative utterance. ويعني أن إنتاج المنطوق هو الذي ينجز فعلاً بعينه. إن نطق الكلمات هو المؤدى إلى إنجاز الحدث. وإنجاز الحدث هو أيضًا موضوع المنطوق، ولكن هذا المنطوق هو الشيء الوحيد الضروري الذي يجعلنا نتهى إلى إنجاز الحدث. ويجب أن تكون الملابس التي تنطق فيها الكلمات مناسبة. ولهذا الإنجاز شروط بسمها أوستين به شروط الإنجاز

(94) Hymes, Models, p. 61

(95) Coulthard, An Introduction, pp. 44 - 45

(96) Austin, J., L.: How to do Things with Words, Oxford Uni. Press (1992) p. 1

الموفق conditions of happy performative، وخلاصتها أن الأعراف المشتركة لها أثرها في نطق الأشخاص كلمات معينة في ملايسات معينة⁽⁹⁷⁾.
وقد بنى سيرل Searle على عمل أوستين. وحاول سيرل تطوير فكرة أفعال الكلام speech acts؛ أى الأفعال التى ينجزها المنطوق على نحو مقصدى أو عرفى. وميز سيرل بين:

- (أ) أفعال المنطوق utterance acts؛ أى التلفظ البسيط بالمفردات والجمل.
 - (ب) الأفعال المختصة بفضية بعينها propositional؛ أى استعمال المحتوى content والمرجع reference.
 - (ج) الأفعال الإنجازية illocutionary؛ أى النشاطات العرفية التى تصحب الخطاب، نحو: الوعد، والتهديد... إلخ⁽⁹⁸⁾.
 - (د) الأفعال التأثيرية perlocutionary acts؛ أى إنجاز التأثيرات فى مستقبل المنطوق أو النص، نحو: إقلاقه أو إقناعه... إلخ.
- وقد عنى سيرل بشرح الأعراف conventions التى توائم الأحداث الإنجازية: فالوعد - مثلاً - يستلزم أن تذكر فعلاً فى المستقبل، يريده المستمع. وينبغى لك - حتى تكون صادق النية - أن تقصد إلى عمل هذا الفعل، وأن تعنى نفسك بفعله.

وكان بول جريس Paul Grice قد قدم مجموعة من المبادئ التى ينبغى المشاركين فى التخاطب، وهى:

(1) مبدأ العمل المشترك principle of co-operation:

وذلك أن تجعل إسهامك فى التخاطب بحسب الحاجة؛ أى يقع فى الحال التى ينبغى أن يقع فيها، وفقاً للغرض المقبول، ووفقاً لاتجاه المبادلة الكلامية التى دخلت

(97) المرجع السابق ص 4 - 6.

(98) Searle, John : Speech Acts, London - Cambridge (1969) p. 23

(99) المرجع السابق ص 57.

فيها. ويطلب العمل المشترك - بخاصة - في المواقف التي يحتاج فيها أحدهم إلى نصيحة أو مساعدة.

(2) مبدأ الكمية principle of quantity:

وذلك أن تجعل إسهامك مُعلِّماً informative بالقدر المطلوب، لا أكثر. ويتبغى له حتى يكون مُعلِّماً، أن تعطى أحدهم معلومة جديدة أو غير متوقعة، إذا سنحت المناسبة لهذا.

(3) مبدأ الكيفية principle of quality:

ويختص بالصدق، أي ألا تقول ما تعتقده خطأ، أو ما تجد نفسك معه محتاجاً إلى دليل مناسب. ويطبق هذا المبدأ على النصوص العلمية في صرامة أشد مما تعرفه المحادثة. ولكن ينظر إليه في المحادثة - بعامة - على أنه مما يجبر عليه المرء اجتماعياً.

(4) مبدأ العلاقة principle of relation:

ويعنى النظر إلى مدى مناسبة الإسهام. وهذه المناسبة مظهران اثنان على الأقل: (أحدهما) نوعية المعرفة التي ترتبط بمحور بعينه. و(الأخر) نوعية المعرفة التي تقيد في بلوغ هدف بعينه.

(5) مبدأ الطريقة principle of manner:

ويشتمل على الطرق المتعددة التي تستخدم في تنظيم النص وإنتاجه: كأن تتخذ طريقة صريحة واضحة؛ أي أن تقرر مقاصدك مما تقول على نحو مخطط له. ويتضمن مبدأ الطريقة توصية أخرى، هي أن تتجنب الإبهام في تعبيرك. وهنا - كما يذكر جريس - نلقى العقبة المحتملة في الاتصال، في مرحلة رسم الخطة التي اختيرت من قبل، كما نلقاها في تنظيم المضمون على أساس التعبير السطحي surface expression، وهي - في هاتين الحالتين - أشق مما نلقاه في عمل هذا الاختيار ذاته.

ولهذا المبدأ جانب ثالث؛ هو تجنب الغموض. وبالرغم من أن كثيراً من التعبيرات اللغوية الطبيعية، يمكن أن تكون لها معان مختلفة في ظروف مختلفة، فإن

الغموض لا يقع إلا عند العجز عن تقرير المعنى المقصود تقريراً حقيقياً. وينبغي لنا
- حال القصد إلى معان متعددة - أن نستخدم مصطلح الكفاءة المتعددة
polyvalence.

ولما كانت الكفاءة المتعددة عسيرة بلا شك، فإن الغموض يؤدي إلى ضجر زائد؛
من حيث إن الجهد المصروف إلى المادة، لا يقصد إليه ولا يأتي بنفع. ويتج عن ذلك
أن يبادر المشاركون إلى التخلص من الغموض عن طريق الفعل التنظيمي
regulative action، الذي يؤدي عادة بوساطة شرح المحتوى في شكل غير غامض.
وحدد جريس لمبدأ الطريقة جانباً رابعاً، هو الإيجاز. فإذا كان مبدأ الكمية يقيد
بقدر ما تقول، فإن الإيجاز brevity يقيد بمقدار ما تستغرق في قوله.

وهناك جانب آخر لمبدأ الطريقة، هو اتباع النظام؛ أي أن تأتي بموادك
materials على النظام الذي تستلزمه. إن البيانات الواضحة - مثلاً - تعد
استراتيجيات نظامية عادية لذكر الوقائع والمواقف؛ أي في السياق الزمني الذي تقع
فيه الأشياء⁽¹⁰⁰⁾.

كانت عناية جريس مكثمة لتأمل الاستلزام الحوارية (أو التضمينات الخطابية)
conversational implicatures؛ أي المعرفة المنقولة، عندما يضمن الناس أو
يوعزون أو يقصدون شيئاً بعينه متميزاً عما يقولون⁽¹⁰¹⁾. ولكننا نلاحظ أن جريس لم
يعن بمثل هذا القدر، بأثر الأعراف والمواقف في مباينة المقاصد للمنطوقات الحرفية؛
فالمنطوق الواحد يمكن أن يكون استفهاماً أو عرضاً أو التماساً أو توجيهاً أو أمراً، أو
غير ذلك، تبعاً للموقف والعرف اللغوي.

وقد كان هذا الأمر، هو المحرك الدافع لنظرية أفعال الكلام إلى وضع استراتيجية

(100) Grice, Paul : Logic and Conversation, in : Cole and Morgan (eds.) (1975)
pp. 41 - 58, p. 43

أو: دويوجراند - درسلر ص 118 - 134

(101) المرجع السابق ص 43.

لتأسيس وجود غرض إنجازى قصى وراء الغرض الإنجازى المتضمن فى معنى الجملة، والتماس الوسائل التى تنتج معرفة ماعية هذا الغرض الإنجازى القصى. سعت هذه النظرية إلى بيان الآليات التى تدرك بها أفعال الكلام غير المباشرة وتفهم. فى هذا الإطار، يُن سيرل - مثلاً - أن هناك بعض الصيغ التى تميل إلى أن تؤسس عرفياً conventionally، على أنها صيغ قالية معيارية لأفعال الكلام غير المباشرة. وهى صيغ تكتسب استعمالات عرفية فى الوقت الذى تحتفظ فيه بمعانيها الحرفية، مثل صيغ التادب. ويقترح سيرل أن صيغاً نحو: 'هل يمكنك' أو 'هل لك' أو 'أريدك' أن وغيرها من الصيغ الأخرى، إنما هى طرق عرفية conventional ways لعمل الاتماسات⁽¹⁰²⁾.

وبالرغم مما قدمته نظرية أفعال الكلام من إسهامات فعالة فى بحث التداولية فإن هناك قيوداً تلازمها كما لاحظ سيرل ذاته، أحد مؤسسيها الأوائل. إن هناك - مثلاً - بوئاً شاسعاً بين الأفعال المحددة تحديداً حسناً نسبياً، مثل الوعد أو التهديد، والأحداث الضافية تماماً مثل الشرح أو التوكيد أو الوصف أو الاستفهام، وهى جميعاً أفعال إنجازية⁽¹⁰³⁾.

وفى بحث التداولية وضع دويوجراند ودرسلر يديهما على ما أسماه مبدأ التنشيط الخططى threshold of plan activation الذى وُهبه العقل الإنسانى، ويُقصد به درجة الوعي بالحالات أو الأوضاع المستقبلية المحتملة التى يُحتاج إليها للشروع فى تطوير الخطة؛ وذلك أنه عندما تظهر حالة مستقبلية مرغوب فيها ظهوراً كافياً، فإن بلوغها سوف يفشل، ويلغى المخطط - إذ ذاك - مشكلة. من هنا، يعد التخطيط نمطاً محكماً شاملاً لحل المشكلة مطبقاً على تقدم حالة المخطط ناحية الهدف فى موقف معروض. إن الخطة ينبغى لها أن تبدأ بالحالة الراهنة current state (لحظة

(102) Searle, John, R. : Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts, Cambridge Uni. Press (1993) p. 49

(103) Searle, Speech Acts, ibid, p. 23

عمل الخطة) أو بالحالة الابتدائية initial state، حيث تبدأ الحالة سريانها أخيراً. ولنا أن نزعّم أن الحالة الهدف the goal state، سيصير مرغوباً فيها من وجهة نظر المخطط.

ورد إن مقدار التخطيط وكثافته سوف يتنوعان وفقاً لعوامل عدة، يحددها دوبرجراند ودرسلر فيما يلي:

- (أ) احتمال بلوغ الهدف أو عدم احتمال.
- (ب) حضور الأعراف الاجتماعية المثبتة لبلوغ الهدف أو غيابها.
- (ج) التصادم المحتمل مع المخططين النظراء (أي الفاعلين الآخرين الذين تصادم أهدافهم مع أهداف غيرهم).
- (د) المجال الذى يستلزمه التخطيط، أى المحدد المقتضب فى مقابل المحدد المطول (عدد الخطوات التى يحتاجها إنجاز الخطة)⁽¹⁰⁴⁾.

ولعلنا نلاحظ فى «مبدأ التشيط الخططى» عند دوبرجراند ودرسلر تأثيراً ببعض مبادئ جريس السابقة، لا سيما مبدأ العمل المشترك، والكمية، والعلاقة. فضلاً عن ذلك، فقد فانهما الوقوف على عوامل مختلفة تؤثر فى تفاوت المشاركين فى درجة الوعى بالحالات المستقبلية المحتملة عند تطوير الخطة أثناء الاتصال ومع تغير الملاحظات والظروف، ونعنى بذلك الاتصال اللفظى المنطوق بخاصة. كذلك، فإن المشاركين يختلفون فى القدرة على استكشاف خطط الآخرين، والقدرة على سياسة الموقف نحو الهدف الخاص، والقدرة على توقع مقدار إسهام المشارك فى الاتصال فى إتمام الهدف.

(د) التداولية والموقفية :

الموقف من العوامل الخارجة عن اللغة / النص. ويُعنى فى دراسة الموقف بتقرير العوامل الاجتماعية التى تكون خلفية المنطوق أو النص - موضوع البحث -

(104) De Beaugrande, Dressler: Introduction, p. 124

وملابساته. وتضم هذه الخلفيات مكان التكلم وزمانه، والأحداث أو الوقائع السابقة التي ترتبط بظروف إنتاجه، وعدد المشاركين، وطبيعة شخصياتهم، وعلاقات الحالة الراهنة فيما بينهم في موقف بعينه، والمجالات التي يتحدثون فيها، وما يصاحب الكلام من أفعال وحركات جسمية... إلخ.

ويعرف فيشمان Fishman الموقف بأنه الوقوع المتصاحب co-occurrence لتكلمين اثنين (أو أكثر)، يرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً خاصاً، ويقيمان بينهما اتصالاً حول محور بعينه، في وضع خاص. وبناء على ذلك، فإن الشبكة الاجتماعية - الجماعة - يمكن أن تحدد حفلة شاي بين طلاب الجامعة، على أنها موقف مختلف اختلافاً تاماً عن محاضرة تضم هؤلاء الطلاب أنفسهم. وتختلف محاور الكلام في الموقفين أيضاً، كما تختلف أماكنهم وأزمتهم.

من ناحية أخرى، فإن العلاقات relationships أو الأدوار roles التي يؤديها المتكلمون - أحدهم إزاء الآخر - تبدو هي الأخرى متباينة. وكل اختلاف من هذه الاختلافات، يكفي لتحديد المواقف بأنها: الاختلاف - بدرجة كافية - بين أفراد جماعة الجامعة بحيث يؤدي إلى استخدام تنوع لغوي linguistic variety في حالة بيان قرينه في حالة أخرى.

ويعرف أفراد الشبكات الاجتماعية الذين يشركون في مخزون لغوي واحد، يعرفون متى يتحولون عن نوع إلى آخر. ويتج عن ذلك ما يسمى بـ «مقولة التحولات الموقفية situational shifts». وقد يستلزم التحول في الموقف تنوعاً لغوياً بعينه. وقد ينظر إلى التحول في التنوع اللغوي على أنه علامة على التحول في العلاقة بين الأفراد المتمين إلى شبكة اجتماعية بعينها، كما يمكن أن يعدّ علامة على التحول في محور تفاعلهم وغرضه، أو علامة على التحول في خصوصية تفاعلهم ومكانته⁽¹⁰⁵⁾.

(105) Fishman, J. A. : The Sociology of Language in Pier Paolo Giglioli (ed.) Language and Social Context, ibid, pp. 54 - 85. pp 48 - 49.

وينبغى لنا أن نلاحظ أن فيشمان يقول: قد يستلزم... وقد ينظر... وهذا يعنى أن التحول فى الموقف لا يستلزم دائماً تحولاً فى التنوع اللغوى: ربما ينطلق أفراد الشبكة أو الجماعة الكلامية من موقف إلى آخر دون أن يخرجوا من تنوع لغوى إلى آخر. إن الحكم باختلاف الموقف أو عدم اختلافه - بالنظر إلى استخدام التنوع اللغوى - إنما هو موضوع التنظيم الاجتماعى الداخلى لشبكة أو جماعة كلامية معينة.

إن أعضاء تلك الشبكات أو الجماعات الأصليين، يكتبون - فى بطن ودون وعى - ما يسمى بـ الكفاءة الاتصالية اللغوية الاجتماعية، من منظور الاستعمال اللغوى المناسب. وهذا يعنى - كما يقول فيشمان - أنهم ليسوا بالضرورة واعين بالمعايير التى تقود سلوكهم اللغوى الاجتماعى⁽¹⁰⁶⁾.

إن مراجعة منهج الملامح التمييزية للغة، وهو ما رأيناه عند هركيت من قبل، تجعلنا ندرك حقيقة هامة؛ هى أن المرء إذا رغب فى دراسة نظام اتصال أو معاملة اتصالية، فإنه ينبغى له أن يتفحص الحقائق عن المشاركين: من هم؟ وأين يتصلون؟ وفى أى ظروف يقيمون اتصالهم؟ ... الخ. وهذه الاهتمامات ضرورية فى دراسة اللغة الإنسانية ونقويمها فى سياق المجتمع والثقافة.

لقد لاحظ الباحثون - لاسيما اللغويين الاجتماعيين والسيميائيين الاجتماعيين - تنوع المواقف التى تُستخدم فيها اللغة، وما يرتبط به من تنوع فى المقاصد والأغراض، والأساليب، ومستويات التشكيل ونحوها.

وكان مالبينوفسكى قد عرض لما أسماه سياق الموقف Context of situation وهو محيط الكلام. وكان يرى ضرورة تحديد ما يخرج عن المحيط المباشر؛ أى ما هو أكثر منه. وفى أى وصف مناسب، لا يصبح من الضرورى - وفقاً لما يراه - تقديم معلومات عما يحدث فى الترفح حسب، بل عن الخلفية الثقافية الكلية أيضاً؛ وذلك أن ما هو مقدم فى أى نوع من التفاعل اللغوى وفى أى نوع من تبادل المحادثة، لم يكن

(106) المرجع السابق ص 49

محض مشاهدة وأحداث مباشرة محيطة بالواقعة، ولكنها أيضاً التاريخ الثقافى الكلى الذى يكمن خلف المشاركين، وخلف نوع العمليات المستخدمة محددة أهميتها بالنسبة إلى الثقافة، سواء أكانت عمليات إجرائية أو طقوسية practical or ritual. ويمثل ذلك كله جانباً من جوانب تفسير المعنى.

وهكذا قدّم مالفينوسكى الفكرتين : سياق الموقف Context of situation وسياق الثقافة Context of culture. وهو يرى أن كلتا الفكرتين ضرورية لفهم النص فهماً مناسباً.

وربما اختلفت النشاطات التى يمارسها الناس من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر، ولكن المبدأ العام بأن كل اللغات ينبغى لها أن تُفهم فى سياقها الموقفى، بظل مبدأ ثابتاً لكل جماعة فى كل مرحلة من مراحل تطورها⁽¹⁰⁷⁾.

وقد تبع فيرث Firth مالفينوسكى، فى عنايته بخلفية اللغة الثقافية. واضطلع بفكرته عن سياق الموقف، فيهاها وفق نظريته اللغوية الخاصة. وفى عام (1935م) عبّر فيرث - الذى زامل وقت شبابه مالفينوسكى بجامعة لندن، والذى صار بعد ذلك أول أستاذ لعلم اللغة العام بجامعة بريطانية - عن نظريته بأن علم اللغة كله إنما هو دراسة المعنى، وأن المعنى كله إنما هو وظيفة فى سياق.

وجد فيرث - على نحو ما - أن تصور مالفينوسكى سياق الموقف، لم يكن مناسباً تماماً لأغراض النظرية اللغوية، لأنه لم يكن تصوراً عاماً بدرجة كافية. كان مالفينوسكى مهتماً بدراسة نصوص بعينها، باعتباره أنثروبولوجياً فى المقام الأول. ومن أجل ذلك، كانت فكرته عن سياق الموقف مخصصة لشرح معنى حالات خاصة من الاستعمال اللغوى وتفسيره. وكان فيرث فى حاجة إلى مفهوم للسياق، يمكن أن يشكل فى نظرية لغوية عامة مفهوم أكثر تجريداً من ذلك المفهوم، وليس تمثيلاً سمعياً صورياً بسيطاً للمشاهد والأحداث المحيطة بالواقعة اللغوية. من أجل ذلك، صنع فيرث

(107) Halliday, M., A., K., and Ruqaiya : Language, Context and Text, ibid, pp. 6-7.

إطاراً لوصف سياق الموقف الذى يمكن أن يستعمل لدراسة النصوص، باعتبارها جزءاً من النظرية اللغوية العامة. وكانت مكونات سياق الموقف عنده هي:

(أ) المشاركون فى الموقف : وهو ما يشير إليه بالأشخاص والشخصيات، وفقاً لما يجعله علماء الاجتماع الحالات والأدوار التى يضطلع بها المشاركون.

(ب) فعل المشاركين : أى ما يفعلون، بما فى ذلك الفعل اللفظي verbal action والفعل غير اللفظي non - verbal action.

(ج) سمات أخرى تناسب الموقف: كالأشياء والوقائع المحيطة، بما لها من تأثير فيما يحدث.

(د) تأثيرات الفعل اللفظي: أى ما يطرأ من تغييرات ناتجة عما يقوله المشاركون فى موقف بعينه.

كان تخطيط هذا الإطار الأولي فى عام 1950 م. ولعل أفضل تطبيق له هو ما جاء فى دراسة زميله ت. ف ميتشيل T.F. Mitchell الذى صار فيما بعد أستاذ علم اللغة بجامعة ليدز. درس ميتشيل لغة البيع والشراء؛ لغة التعامل فى المحال والأسواق والمزادات، والنمى لاحظها فى شمال أفريقيا. كانت اللغة المدروسة هى العربية. واشتغل ميتشيل على أفكار فيرث وأوضحها جيداً بالنظر إلى طبيعة سياق الموقف فى نص بذاته⁽¹⁰⁸⁾.

وقد أعقب ذلك ما شرع فيه الأنثروبولوجى الأمريكى ديل هايمس فى بحثه إثنوجرافيا الاتصال (1967) من اقتراح مجموعة من المفاهيم لوصف سياق الموقف، ونحن نلاحظ فيها شبيهاً بمفاهيم فيرث. وقد عرض هايمس فى هذا البحث لمفاهيم موقفية هامة، نحو: الوضع، والمشاركين، ومقصد الاتصال⁽¹⁰⁹⁾.

وقد قاد بحث هايمس هذا إلى تجديد العناية بالطرق المختلفة التى تُستعمل بها

(108) المرجع السابق ص 8 - 9

(109) انظر بحثه

Models, ibid, pp. 59 - 65.

اللغة فى ثقافات مختلفة، وبالقيمة الملقاة على الكلام، وبالصيغ البلاغية المتنوعة التى يمكن التعرف عليها... الخ.

أما هاليداي، فقد كانت له عناية خاصة بالمرقف من منظور سيميائى اجتماعى social - semiotic، وهو علامة بازره فى هذا الطريق:

يشير هاليداي إلى أن الجمل والكلمات الفعلية التى تكون تجربتنا المباشرة باللغة، تستمد أهميتها مما تكونه. ولكننا - من المنظور الاجتماعى - نقدر أن نشرح ماهيتها على محور أفضل؛ لأننا نقدر أن نوجه انتباهنا إلى موقف الاستعمال اللغوى آخذين فى الحسبان العوامل غير اللغوية non - linguistic factors التى تستخدم محيطاً ضابطاً.

إن اللغة تحيا فقط عندما تُوظف فى محيط بعينه. إننا لا نجرب اللغة منعزلة، ولكن نجربها دائماً فى علاقة بالحبكة أو سياق الحكاية: أى خلفية الشخصيات، والأحداث والوقائع التى تستمد منها الأشياء المقولة معناها. اللغة تقال لتوظف فى «سياقات موقف». وأى تدبر للغة التى يعوزها أن تكون مبنية فى موقف بعينه، باعتباره عنصراً جوهرياً، هو تدبر مصنوع وغير مُجَز.

ويقترح هاليداي تعديل فكرة «الموقف» بأن نضيف كلمة مُناسب: إن سياق الموقف لا يشير إلى كل القطع والأجزاء من المحيط المادى material environment مثل تلك التى ينبغى لها أن تظهر إذا حصلنا على تسجيل سمعى وصورى (بالصوت والصورة) لواقعة كلامية بجميع المناظر والأصوات المحيطة بالمنطوقات. إن مثل تلك الملامح، ينبغى أن تكون مجردة ومباشرة جداً، على النحو الذى تميل إليه مع الولدان الذين تولد ملاحظاتهم غالباً علاقة تداولية pragmatic relation مباشرة بالمحيط، نحو أكثر قليلاً، أى أريد أكثر قليلاً مما أكله الآن⁽¹¹⁰⁾.

(110) Halliday, M.A., K.: Language as Social Semiotic: The Social Interpretation of Language and Meaning. Rutledge, Chapman and Hall Inc. U.S.A (1993) pp. 28 - 29.

ويحدد هاليداي عناصر النظرية السيميائية الاجتماعية للغة، بالنص، والموقف، والتنوع النصي أو السجل، والشفرة، والنظام اللغوي (بما في ذلك النظام الدلالي)، والبنية الاجتماعية. هذه العناصر تُكوّن أحجار الزاوية الأساسية في نظرية اللغة السيميائية الاجتماعية. وبعيننا منها الآن: الموقف. والموقف هو المحيط الذي يولد فيه النص. وإذا كان هذا المفهوم يرجع إلى ويغنر (Wegener 1885م)، ثم جعل له ماليوفسكى دوراً رئيساً في إثنوجرافيا اللغة تحت ما أسماه «سياق الموقف»، ثم طوره فيرث (1957)⁽¹¹¹⁾، وبين أن الموقف تمثيل مجرد للمحيط في حدود مقولات عامة تلائم النص، فقد أكد هاليداي ضرورة عرض الموقف في حدود أكثر تجريدًا، ما دامت له مثل هذه المكانة في نظرية اللغة الاجتماعية العامة. لا يجب أن نفهمه على أنه موقف بل على أنه نمط موقفى situation type. إنه مركبة من المعانى constellation of meanings المتولدة من النظام السيميائى الذى يُكوّن الثقافة.

من الصائب ما يراه هاليداي أن المستمع يمكنه - وقد أعلم بمعلومة صحيحة - أن يحسّ حدسًا معقولاً عما يذهب إليه المتكلم من قصد. ويبدو هذا افتراضًا ضروريًا، بالنظر إلى مكانة الاتصال. وهذه المعلومة الصحيحة هي ما يعنيه بالسياق الاجتماعى. إنه يتكون من خواص الموقف العامة التى تُوظف - فى مجموعها - على أنها محددات النص، من حيث إنها تعيّن التراكيب أو الهيئات الدلالية Semantic configurations التى يصنعها المتكلم نطيًا فى سياقات نمط بعينه.

وترتبط هذه المعلومة بالنظام اللغوى والنظام الاجتماعى معًا. وهذا يعنى أن الموقف بنية لغوية اجتماعية نظرية. ومن أجل هذا، نفسر نمطًا موقفيًا خاصًا، أو سياقًا اجتماعيًا، على أنه بنية سيميائية. ويمكن أن تعرض البنية السيميائية لنمط موقفى ما على أنها مركبة من ثلاثة أبعاد:

(1) النشاط الاجتماعى السائد.

(111) Firth, J., R. : Personality and Language in Society the Sociological Review, Vol. 42 (1957)pp. 182.

(ب) علاقات الدور التي تضم المشاركين.

(ج) القناة الرمزية أو البلاغية.

ويُشار إلى هذه الأبعاد - على التوالي - بحقل الخطاب field، ومجرى الخطاب tenor، وصيغة الخطاب mode:

فالحقل هو الحدث الاجتماعي social action الذي يوضع فيه النص ويشتمل على الموضوع الذي هو إظهاره الخاص.

والمجرى عبارة عن طائفة من علاقات الدور بين المشاركين المعنيين، ويشتمل على مستويات التشكيل levels of formality، بما هي حالة خاصة.

والصيغة هي القناة أو المسافة (طول الموجة) المختارة. وهي بالضرورة الوظيفة التي تختص بها اللغة في بنية الموقف الكلية، وهي تشتمل على الوسيط (المنطوق أو المكتوب) الذي يفسر بأنه متغير وظيفي.

وليس الحقل والمجرى والصيغة أنواعاً للاستعمال اللغوي، كما أنها ليست مكونات الوضع الكلامي speech setting، بل هي إطار تصري لعرض السياق الاجتماعي على أنه المحيط السيميائي الذي يتبادل فيه الناس المعاني⁽¹¹²⁾.

وكان كل من سبنر Spencer وجريجوري Gregory من بين اللغويين الذين أكدوا الحاجة إلى إحلال النص في محله التاريخي واللهجي، ومن ثم الحاجة إلى ثلاثة أضلاع سياقية تحمل الأسماء ذاتها التي رأيناها عند هاليداي.

أما حقل الخطاب عندهم، فيربط الخطاب بموضوعه. على سبيل المثال، تختلف مقالة في الفيزياء النووية عن رسالة غرامية. ويمكن أن يتغير الحقل في النصوص الطويلة؛ ففي الروايات - مثلاً - ينتقل الراوي من حقل إلى آخر.

وأما الصيغة، فتعني البعد الذي يُحسب في الاختلافات اللغوية التي تنتج عن التمييز بين خطاب منطوق وخطاب مكتوب (وهما هنا يعنيان الوسيط). ويلاحظان -

(112) المرجع السابق ص 109 - 110.

بعناية - أن بعض النصوص كالقصائد، يبدو أصحابها على وعى كبير بالصيغة المنطوقة، بالرغم من أنهم - فى الواقع - يكتبون، وأن الوسائل التى يستخدمها الروائيون وكتاب المسرحيات لخلق الإيهام بالكلام الطبيعى، تعد جزءا من البعد الصيغى. ويلاحظ هنا أيضا الفرق بين الكلام المدون والكلام غير المدون.

أما مجرى الخطاب، فهو يعكس العلاقة بين المتكلم أو الكاتب وبين المسمع أو القارئ، فى حدود درجات العمل على التوازن المتصل بين الرسميات القصوى والعرفيات القصوى⁽¹¹³⁾.

ويدل المجرى كذلك - فيما يذكره مورلى Morley - على درجة شكلية الخطاب وألفته degree of formality and familiarity of discourse. وقد اقترح جوز M.Joose (1962) خمس مراتب لهذا الضلع:

- المجمد frozen: السيدة س يجب أن تبقى صامتة.
- الشكلى formal: لطفا، ابق هادئة، يا سيدة س.
- العرضى (يسكون الراء) consultative: سيدة س ، هل لك ألا تتحدثى، من فضلك!
- الفجائى أو العرضى (يفتح العين والراء). Casual: الأفضل ألا تتكلمى الآن، يا-..
- الودى intimate ش' ش' ، يا عزيزى.

ويمكن أن يضاف إلى هذه القائمة اصطلاحات أخرى، نحو: غير رسمى informal، ومألوف familiar، وغير شخصى impersonal، ودارج colloquial، وتقنى technical... الخ.

أما درجة الألفة، فتعكس - بدورها - على علاقات الحالة الراهنة بين

(113) Enkvist, Nils Erik: Linguistic Stylistics, Mouton, The Hague - Paris (1973). And Spencer, Michael Gregory: Linguistics and Style, Oxford Uni. Press, London (1964) pp. 85 - 91.

المشاركين في موقف بعينه، ومثال ذلك : علاقة المهندس بالعامل، وعلاقة الطبيب بالمريض، وعلاقة البائع بالمشترى، وعلاقة القاضي بالمحلفين، وعلاقة السباك بصاحب المنزل، وعلاقة الوالدين بولدهما... الخ.

ويضيف مورلي إلى ما تقدم ضلعاً رابعاً، كأنه ينقل المثلث السابق إلى هيئة المربع، وهذا الضلع هو دور الخطاب role of discourse، ويعنى به وظيفة الاجتماعية. ويلاحظ أن مورلي هنا متأثر يبحث الوظيفة في نظرية أفعال الكلام عند أوستين وسيرل وغيرهما، بل إنه يمثل بجعل صارت غمطية في تلك النظرية، فقولك: «هل يمكنك أن تناولنى الملح، من فضلك»، يعد التماساً. أما قولك: «إذا أردت استراحة، فلتكن كيت كات»؛ فإنه يعد إعلاناً. وقولك: «إذا فعلت هذا ثانية سأصفعك»؛ يعد تهديداً. وهناك أدوار أخرى كالتهنئة، والوصف، والنصح، والتوجيه، والدعوة أو الاستدعاء، والتنبيه أو التحذير، والمزاح أو المباسطة... إلخ.

بناء على ذلك، فإن ما يُسمى بتتويجات السجل register verities تُحصل عن طريق الموازنة بين تجمعات الملامح الموقفية الخاصة وبين الملامح اللغوية المصاحبة: فونولوجية أو نحوية أو معجمية⁽¹¹⁴⁾.

ويحاول بعض اللغويين التمييز بين الموقف والسياق. فإذا كان الموقف - بمفهومه العام - هو مجموعة العوامل الاجتماعية المختلفة التى تكون خلفية الحدث الاتصالي ومحيطه، فإن السياق - فيما يرى مورلي - مستوى يقع بين الشكل form والموقف situation. ويستخدم السياق عنده لجدولة مظاهر الموقف التى تؤثر فى الشكل المختار⁽¹¹⁵⁾.

وقد سبق إلى هذا التمييز باحثون آخرون، على نحو ما نجد فى ملحوظة جان كوهين بأن الحاضر يؤرخ فى اللغة المنطوقة من خلال الموقف، بينما يؤرخ فى اللغة

(114) Morley, An Introduction, ibid, pp. 5-6.

(115) المرجع السابق ص 4

المكتوبة من خلال السياق⁽¹¹⁶⁾. ويمكننا أن نجد مثل هذا التمييز عند أوجينيو كوزيريو Eugenio Coseriu؛ فالسياق عنده يعنى المحيط اللغوى الخالص للعلامة فى النص، أى المقول من قبل وما يقال بعد ذلك. أما الموقف، فيعنى المحيط غير اللغوى للعلامة أو لسلسلة من العلامات، بما فى ذلك من ظروف وملابسات تصاحب الحدث اللغوى، فضلاً عن معلومات يتجاوزها التكلم والمستمع إذا كانت معلومة بينهما⁽¹¹⁷⁾.

من ناحية أخرى، فقد اتخذ لودفيج سول Ludwig Soell الموقف عاملاً من عوامل التمييز بين الرسالة المنطوقة والرسالة المكتوبة: ففى الرسالة المنطوقة، يشترك المرسل والمستمع فى موقف (غير لغوى) بعينه، وفى الرسالة المكتوبة ينبغى للكاتب أن يجبر القارئ المنفصل عنه - مكانياً - بالموقف (وهو ما يمكن أن يحدث بطريقة لغوية فحسب)، وإن أمكن التخلّى عن مساعدة الموقف فى الفهم. وهناك أحداث كلامية وكتابية بعينها (كالمكالمات الهاتفية، أو تبادل الرسائل) تبدو فيها تلك الفروق نسبية، لكنها لا تلغى؛ ولذلك تبقى خارج تأملنا تلك التحديدات الأساسية. ويؤكد سول أهمية معرفة الموقف فى فهم اللغة المنطوقة، وفى الوقت ذاته يشير إلى أن المحادثات المكتوبة لا تفهم من غير المشاركين فيها⁽¹¹⁸⁾.

وقد فطن سوونسكى أيضاً إلى مثل ذلك، فى بحثه أشكال الاتصال؛ فالاتصال الشفهى - ما دام تلقائياً وجارياً على نحو غير تقليدى - يمكنه غالباً أن يستغنى عن

(116) كوهين (جان): بناء لغة الشعر، ترجمة دكتور أحمد درويش، مكتبة الزمراء، القاهرة، (1985م) ص 185.

(117) Coseriu, Eugenio: Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Guntar Narr Verlag, 2. durchges. Auflage, Tuebingen (1981) S. 94.

وراجع فى تفصيل القول فى الموقف والسياق:

محمد العبد (دكتور): اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث فى النظرية، دار نكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة - باريس، الطبعة الأولى، القاهرة (1990م) ص 69 - 81، ص 111 - 120.

(118) Soell, Ludwig: Gesprochene und geschriebenes Fanzoesisch, Erich Schmidt Verlag, 2. Auflage, Berlin (1980) S.20.

الميزات الخاصة التى تقيد بالأشخاص والمواقف، كما يمكنه الاستغناء عن الميزات الخاصة المقيدة بالمقصدية؛ وذلك أن المتكلم والمستمع فى مجال إدراكى متشابه وفى موقف متماثل، ويمكنهما التفاهم فى ملابسات موقفية محددة عن طريق تعبيرات بيبة (كأسماء الأعلام، والضمائر، وظروف المكان والزمان... الخ). وهذه هى الحال - مثلاً - فى محادثة بين شخصين أو أكثر، فى مكان واحد، وفى موقف واحد. ويقل عن هذا محادثة هاتفية؛ إذ لا يدل على مجال إدراكى مشترك.

فى مقابل ذلك، يلزم فى الاتصال الكتابى، الإلمام بتلك السمات الإجمالية التى ترتبط بالأشخاص، والموقف، والمقصد، حتى لا تظل النصوص الناتجة عن هذا الاتصال موضع تساؤل⁽¹¹⁹⁾.

وبالرغم من مناسبة هذا التمييز بين الموقف والسياق، فما زال لغويون يخلطون بينهما، ويجعلون الكلام عنهما معاً فى باب واحد هو السياق. وهذا ما نراه - مثلاً - فى بحث بنية السياق عند فان دايك⁽¹²⁰⁾، كما نراه فى قائمة السياق التى صنفها إنكست⁽¹²¹⁾ وجمع فيها بين ما أسماه عناصر السياق النصى وعناصر السياق الخارج عن النص. وليست الأخيرة إلا الموقف بالمفهوم الذى أسلفنا.

ولعله من الأحرى فى نظرنا أن نجعل مثل هذا التمييز تمييزاً بين مفاهيم أساسية ثلاثة، هى الموقف، والسياق، والسياق الموقفى. ونقترح أن يبنى الموقف على كل العوامل الاجتماعية والثقافية والفيزيقية والسلوكية الحركية التى تصاحب الحدث الاتصالى بين المشاركين فيه، والعلاقات بينهم، ومكان الاتصال وزمانه ومدته، والمادة الفاصلة بين المتكلم والمستمع ونحوها. أما السياق، فسيختص - فيما نرى - بالياتى اللغوى، أى بالمحيط اللغوى للمنطوق أو النص، بما فيه من علاقات نحوية معجبة ودلالية، تربط بين الكلمات والجمل وأجزاء الكلام، مما يبرز أثره فى ترابط المنطوقات

(119) Sowinski, S. 68 .

(120) van Dijk, Teun, A : Text and Context, ibid, p. 191 .

(121) Enkvist, Nils Erik: Linguistic Stylistics, Mouton, The Hague - Paris (1973) pp. 58 - 59 .

ونماسكها، من أجل إنجاز المضمون أو المقصد. وأما السياق الموقفي فنقترح أن نجعله مبنياً على أثر العوامل المحددة للموقف في استخدام تنوع لغوي بعينه دون الآخر. وسوف يختص الموقف بالاتصال اللفظي المنطوق، كما يختص السياق بالاتصال اللفظي المكتوب. أما السياق الموقفي فهو مشترك بين كلا النوعين، ولكن يدل عليه فيزيقياً في الاتصال المنطوق، بينما يجبر عنه لفظياً في الاتصال المكتوب.

ومهما يكن من أمر، فإن السياق الموقفي مقتصر على جدولة مظاهر الموقف التي لها تأثير في الصيغة المستخدمة، قد أخذ على عاتقه عبء النظر فيما عرف بالسجل register. وقد خضعت الدراسات المبكرة عن السجل لتوجه المبدأ العام: أن اللغة تتنوع مع الموقف، وأن نوعاً معيناً من اللغة يناسب استعمالاً معيناً؛ فلهذا الوثائق القانونية - مثلاً - لا تُستخدم في أطروحة للدكتوراه، أو في حفل عشاء. من هنا: عرّف «السجل» بأنه تنوع من اللغة، يستعمل في سياق موقفي خاص⁽¹²²⁾.

وقد وضع هاليداي تمييزاً أولياً بين نمطين من التنوع اللغوي: «اللهجة» وتعرّف بأنها تنوع وفقاً للمستعمل، و«السجل» ويعرّف بأنه تنوع وفقاً للاستعمال. وإذا كانت اللهجة هي ما يتكلم به شخص ما محددة بهوية هذا الشخص، فإن السجل هو ما يتكلم به شخص ما محدداً بما يفعله هذا الشخص في الزمان.

وبناء على ذلك، يعرف هاليداي السجل بأنه تركيب من المصادر الدلالية التي يجعلها أصحاب ثقافة معينة مقيدة - على نحو نمطي - بنمط موقفي بذاته. إنه الاحتمالية المعنوية التي تعد سهلة التناول في سياق اجتماعي خاص. ويمكن أن

(122) Morly, G., D.: An Introduction to Systemic Grammar, ibid, pp. 4-5. وينبغي أن نلاحظ الفرق بين مفهوم هذا الاصطلاح في علم اللغة الأمريكي وعلم اللغة في إنجلترا: ففي علم اللغة الأمريكي يستعمل لتمييز بين التنوعات الواسعة من اللغة، كالتمييز بين اللغة الدارجة vernacular (الصيغة المتطورة البرمية المستخدمة عفوناً)، واللغة المعيارية standard. وفي إنجلترا يشير هذا المصطلح إلى أعداد محددة خاصة من التنوعات، كلمة القانون، واللغة العلمية، ولغة الدين، ولغة الأصدقاء الأوداء... إلخ. (راجع Salzman, p. 199)

يوصف كل من الموقف والسجل المرتبط به، بأنه عبارة عن درجات متنوعة من التمييز specificity. ويمثل وجود «السجل» حقيقة التجربة اليومية: فالتكلمون لا يجدون صعوبة في التعرف على الخيارات الدلالية semantic options، وضمائم الخيارات combinations of options التي تخضع لمسئولية ظروف المحيط الخاصة. وإذا كانت الخيارات تتحقق في هيئة القواعد والمفردات، فإن السجل انتقاء خاص من المفردات والأبنية، مقيدا بالموقف.

إن السجل مقيد بمحدود المعاني، وليس كومة من صيغ التعبير العرفية المركبة على مضمون كامن، عن طريق «عوامل اجتماعية» لنوع أو آخر. إنه متفتى من المعاني المكونة للتنوع الذي يتمي إليه النص⁽¹²³⁾.

ويستطيع البحث في تداولية الاتصال من جهة الموقف أو السياق الموقفى، أن يجد له ركائز نظرية ثابتة عند رواد اللغويين الاجتماعيين، أمثال برنشتاين Bernstein وجامبرز Gumperz ولابوف Labov وغيرهم.

يؤكد برنشتاين أن اللغة طائفة من الفواتين التي ينبغي أن تمثل لها كل الشفرات الكلامية speech codes. وتحقق هذه الشفرات إنما هو وظيفة الثقافة الفاعلة من خلال علاقات اجتماعية في سياقات بعينها. وتشير الصيغ أو الشفرات الكلامية المختلفة إلى شكل العلاقة الاجتماعية، كما تضبط طبيعة المواجهات الكلامية، وتخلق للمتكلمين أنساق اللياقة والعلاقة المتباينة. من هنا، فإن تجربة المتكلمين تحول بما يجعل للصيغة الكلامية أهمية أو مناسبة. وهذا تدليل اجتماعي لأن الصيغة الكلامية التي تؤخذ على أنها نتيجة شكل العلاقة الاجتماعية، إنما تمثل نوعية البنية الاجتماعية quality of a social structure⁽¹²⁴⁾.

ويرى جامبرز أن دراسة الاستعمال اللغوى الفعلى، تقضى بوجوب تحليل

(123) Halliday, Language as Social Semiotics, pp. 110 – 111.

(124) Bernstein, B. : Social Class, Language and Socialization, in : Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, ibid, pp. 157 – 158, p. 161.

الظواهر اللغوية داخل عالم محدد اجتماعيًا، وأن المعطيات اللغوية - فى تحليل اللغة تحليلًا شكليًا formal analysis - إنما تستخلص من الأوضاع التى تقع فيها⁽¹²⁵⁾. ويرى لافوف أن القوانين الثابتة التى تحكم اللغة، لا يمكن تحصيلها دون اعتبار السياق الاجتماعى للواقعة الكلامية⁽¹²⁶⁾.

(5) النص الأدبى بوصفه اتصالاً :

يرى كثير من علماء اللغة المعاصرين أن النص - بوجه عام - هو حسيطة الكفاءة اللغوية الفردية لمؤلف بعينه⁽¹²⁷⁾. وقد عنى علم اللغة النصى بتوصيف النص من الناحية الاتصالية، وعدّ ذلك من مجالات البحث اللغوى النصى. والحق أن هذا المجال قد لقى عناية منذ بدايات هذا العلم. وصُنفت النصوص على أنها عمليات اتصالية بين متاوليها. ويرى هؤلاء اللغويون أن النص هو الوجود الأصلى للغة بوجه عام. وقد شغلت بعض الأعمال فى هذا العلم بالمظاهر اللاتفة فى النصوص، من حيث كونها تعاملًا لغويًا أو مركبات من التعامل اللغوى التى يحسب حسابها. ويذكر سرونسكى أن تزامن التطورات فى علم اللغة النصى وعلم الاتصال، قد أسهم فى التقنين الاتصالى للنصوص فى علم اللغة النصى ذاته. واستتبع ذلك جعل النصوص وحدات اتصالية؛ فالمؤلفون يقومون على تأليفها من أجل سامعين وقراء يقضى إليه بشىء ما.

من هذه الناحية، فإن ذلك يجعلنا - كما يقول سرونسكى - ننظر إلى إنتاج النص (مكتوبًا أو منطوقًا)، وإلى التبليغ النصى، وإلى الاستقبال النصى، باعتبارها جميعًا أحداثًا أو عمليات اتصالية⁽¹²⁸⁾.

(125) Gumperz, J. : The Speech Community, op. cit., pp. 219 - 231, p. 219.

(126) Labov, W. : The Study of Language in its Social Context, in: pier Paolo Giglioli, op. cit, pp. 283 - 307, p. 299.

(127) Glinz, Hans: Textanalyse and Verstehenstheories, Bd. 2.2. Auflage. Akademische Verlagsgesellschaft, Athenaiion - Wiesbaden (1978), S. 32

(128) Sowinski, ibid, S. 65.

وقد رأينا فى الموقف الاتصال العادى - مع جميع مخططات الاتصال السابقة -
مرسلاً ينقل رسالة إلى مستقبل عبر قناة فى سياق بعينه. وهذه اصطلاحات ترتبط
بالموقف الاتصالى بما هو عملية فيزيقية. وبالمصطلح الاجتماعى الذى حرص عليه
أصحاب المنهج الإثنوجرافى مثل هايمس، لدينا المخاطب addressor الذى يوجه
رسالة إلى مخاطب addressee؛ أى أن الشخص الذى ينقل علامة سمعية هو فاعل
الخطاب، والذى يلتقط بأذنيه هذه العلامة هو المخاطب.

وفى النص الأدبى، لا نجد المرسل الذى ينقل رسالته إلى مستقبل نقلاً مباشراً
كما هى الحال عادة. فى النص الأدبى، نجد موقفاً اتصالياً داخل موقف اتصالى آخر.
لدينا هنا رسالة يستقل معناها بذاته، ولا يعتمد على من أرسلها ومن يستقبلها.

وبين برند شبلنر Bernd Spillner أن الاتصال الأدبى يختلف عن عمليات
الاتصال اليومية، لأن المؤلف عادة غير موجود وغير معروف للمتلقين، كما أن
الاتصال يسير فى اتجاه واحد، وأنه يمكن - عند الرغبة - تكرار استقبال النص
المكتوب، وأخيراً فإن الاتصال الأدبى يوجه إلى غير معروفين للمؤلف. وعلى الرغم
من أن الاتصال الأدبى له مثل هذه الخواص، إلا أنه يشترك مع أشكال أخرى من
الاتصالات؛ ومن ثم يدرك النص الأدبى على أنه النص الذى ينتجه المؤلف على
إطلاقه، ويُقبل اجتماعياً على إطلاقه أيضاً⁽¹²⁹⁾.

إن ارتباط «أنا» و «أنت» بالموقف الاتصالى العادى، ارتباط مباشر، وكل
منهما يستمد قيمته كلياً من ملامحه الخاصة، ومن محددات الموقف الآتية وملابساته
وتفاصيله التى تزول بزواله. «أنا» و «أنت» فى مثل هذا الموقف مقيدة وليست
أنماط مجاوزة «بكسر الواو»، صالحة لأن تتلبس فى أنا وأنت متعددة.

وفى النص الأدبى، يبدو الأمر مختلفاً. إن قيمة أنا وأنت هنا، تتولد - كما

(129) شبلنر (برند): علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة دكتور محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر
والتوزيع - القاهرة (1987م) ص 106 - 107.

يقول ودوسون Widdowson - تولدا جزئياً عما تشير إليه هذه الضمائر في الشفرة التي يستخدمها المرسل والمستقبل على التوالي، كما تولد تولدا جزئياً من اكتساب سمات الغائب التي يستمدّها من السياق⁽¹³⁰⁾.

إن طبيعة الاتصال الأدبي، أيا كان جنسه، تدل على أنه لا يرتبط بالموقف الاجتماعي ارتباطاً مباشراً على النحو الذي رأيناه من قبل؛ لأن له مواقفه الاجتماعية الداخلية التي ترتبط باستراتيجيات الخطاب، بما هو وحدة كلية متكاملة الأجزاء. ويرتبط هذا أيضاً بطبيعة اللغة المكتوبة ذاتها التي يظهر فيها النص عادة. في الخطاب المكتوب لا نجد الملامح المختصة بالمرسل - بما هو شخص - واردة إلا في المكاتبات الشخصية. أما المحددات الزمانية والمكانية التي يقع فيها الإرسال بالفعل، فهي - بوجه عام - غير واردة في هيئتها الفيزيائية المباشرة كما هي الحال في التفاعل المباشر، إنما تبدو مضمنة في النص ذاته. ويقود هذا - بالضرورة - إلى أمرين اثنين:

(أحدهما) السؤال عن مقدرة المتلقي على رصد الملامح والمحددات الضرورية عند التفسير.

و(الآخر) أن صيغة الاتصال في الخطاب الأدبي تميل إلى الجمع بين الصيغة المنطوقة والصيغة المكتوبة في آن معاً، بدرجات متفاوتة بتفاوت جنس الخطاب ومقوماته الجوهرية. وتستطيع المقارنة بين الشعر والرواية - بوجه عام - أن تطلعننا على أهمية الملامح المميزة لشخصيات الرواية والأوضاع المختلفة التي تصرف فيها (وهو ما يمثل السياق الموقف في الرواية) في فهم أدوارها وأفعالها، وفي فهم وجهة نظر صاحب النص أيضاً.

يبدو الموقف الخارجي مع النص الأدبي موقفاً بين نص قد انتهى وقارئ يبدأ فك شفرته الآن. ومن ثم، يبدو التفاعل في الخطاب الأدبي مستقلاً عن التفاعل العادي، وليس للخطاب الأدبي صلة بخطاب سابق، ولا يتظر أي نشاط لاحق: لفظياً

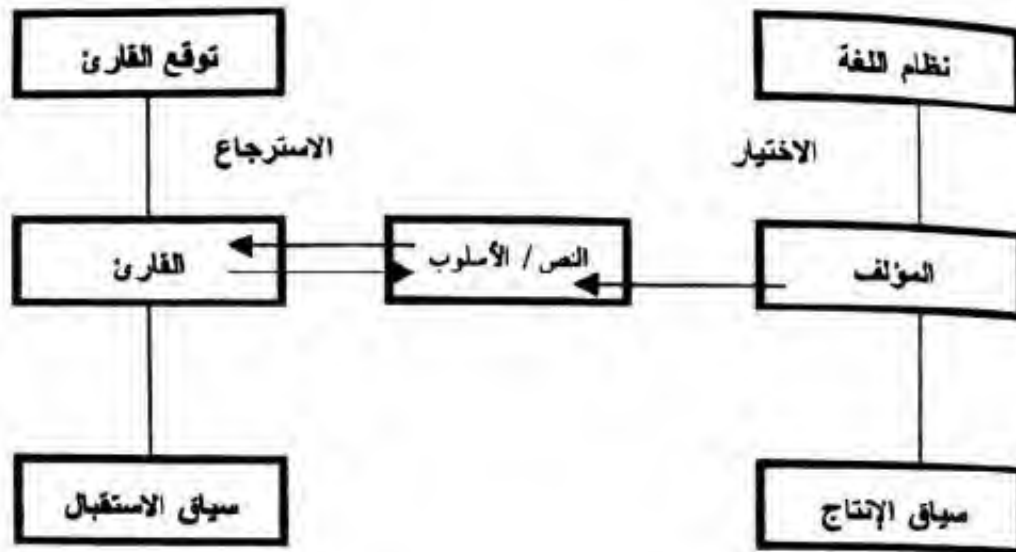
(130) Widdowson, H., G.: Stylistics and the Teaching of Literature. Longman Group Ltd. London (1979) pp. 50 - 51.

أو غير لفظي. ويصح هنا قول ودوسون بأن تفسير الخطاب الأدبي، لا يعتمد على كونه حالا (بتضعيف اللام) في سياق موقفى ما، أو على إدراكنا دور المرسل، أو على دورنا الخاص بوصفنا مستقبلين. إنه كل متقل بذاته، يقبل التفسير من داخله بما هو وحدة من الاتصال قائمة بذاتها⁽¹³¹⁾.

وقد نظرت النظرية الأسلوبية إلى أسلوب النص على أنه نتيجة لاختيار المؤلف من إمكانيات متنافسة في إطار النظام اللغوى واسترجاع من متلقى النص. إن تأثيرات الأسلوب تنتج من تبادل اللعب المتناظر بين نتيجة اختيار المؤلف المتضمنة في النص ورد فعل القارئ. وهكذا فإن الأسلوب ليس خاصة ثابتة في النص، وإنما هو كيفية ممكنة ينبغى أن تسترجع في عملية الاستقبال. وتتضح في النص نتائج الاختيار الذى تم ومقدمات رد الفعل الذى يحدده توقع القارئ. ويمكن أن توجد أى وظيفة من الوظائف الست عند ياكوبسون في الاتصال الأدبي.

وقد ربط تصور الأسلوب على أنه اختيار بوجهة نظر ريفاتير. وبعض التصورات التى اعترفت بدور القارئ وبإمكانية إنشاء الأسلوب واسترجاعه. وقد أسست هذه التصورات الأسلوبية في نموذج من الاتصال الأدبي، واعتمد بعضها على البعض الآخر. ويجعل شبلنر هذه العناصر وما بينها من صلات في الشكل التالى (الشكل 3) :

(131) المرجع السابق ص 54.



الشكل رقم (3)

ويلاحظ أن الإمكانيات الاختيارية للمؤلف تتحدد من خلال مجموعة من العوامل؛ لأنها تتصل بأغراض المؤلف. ويتحدد هذا الاختيار وقت إنتاج النص من خلال الظروف العملية الخاصة بسياق الإنتاج. ويتصل بذلك أيضاً الظروف الشخصية للمؤلف وشعوره ومعلوماته، ثم صلاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ومكانته الاجتماعية ... إلخ. وإذا سمح بوجود مثل هذه التأثيرات العملية في النموذج، فهذا يعني أن يربط التفسير الأدبي والأسلوب بالسياق التاريخي⁽¹³²⁾.

وإذا كان القارئ في نظرية الاختيار والاسترجاع أقل أهمية، فإنه يحتل مكانة بارزة في نظرية الأسلوب الأدبية الاتصالية. ويقوم القارئ برد فعل لما يرمز له في النص، وهي الرموز الأسلوبية؛ حيث يرجعها - تحت ظروف معينة في عملية

(132) علم اللغة والدراسات الأدبية ص 108 - 110.

الاستقبال - إلى الأسلوب، وفي ذلك تلعب العوامل العملية في سياق الاستقبال دوراً بارزاً، كما يحدث في أثناء إنتاج النص⁽¹³³⁾.

وكما الحنا من قبل، فإن الاسترجاع يتحدد من خلال توقع القارئ، ويرتبط بمعارفه وخبراته وإدراكه التمايزات المختلفة بين جنس أدبي وآخر.

وكانت رقية حسن قد اقترحت نوعاً من السياق يعرفه الفن اللفظي؛ هو سياق الإبداع. واللغة هي الاعتبار الأول من الاعتبارات الجوهرية التي ننظر من خلالها إلى هذا السياق⁽¹³⁴⁾. اللغة مركزية في دراسة الفن اللفظي، بنسبة رقية حسن؛ وذلك أن طريقنا إلى معاني معظم النصوص إنما يكون عبر لغتها. إن النصوص - في المقام الأول - موضوعات لغوية. والنص الأدبي ليس استثناءً من هذا القانون. ولكن الحاجة - في دراسة الفن اللفظي - إلى الاهتمام باللغة تتجاوز هذا، وهي تتجاوز، لا لأنه فن، ولا لأن عمل اللغة هو - ببساطة - التعبير عن هذا الفن؛ فالأحرى أنه إذا كان فناً، فهو هكذا بسبب كيفية توظيف اللغة في النص.

ولعل عامل التوظيف يجعل من التفاعل في الخطاب الأدبي نمطاً مختلفاً عما يعرفه الاتصال العادي من تفاعل لغوي بين المشاركين فيه. في الخطاب العادي يحدث التفاهم، وتبلغ المعلومات من خلال استخدام العلامات استخداماً عريضاً أي تدرك فيه هذه العلامات محددة باستعمالها اللغوي المشترك. ومن أجل ذلك تميل لغة التعامل العادي إلى النفعية المباشرة، بينما لا يكون للخطاب الأدبي نفع مباشر في الزمن.

إن طريقة توظيف أنماط اللغة هي التي تجعل الكلام العادي خطاباً. تقول رقية حسن: «في حياتنا اليومية، نعرف أناساً يحسنون قصص الحكايات وآخرين يمتنونها. ما الذي يجعل هذا الفرق؟ إنها الطريقة التي تجعل من الحكاية خطاباً، والأسلوب الذي

(133) المرجع السابق ص 110 - 111

(134) Hasan, Ruqaiya Linguistics, Language and Verbal Art, Oxford Uni. Press (1989) p. 101.

(135) المرجع السابق ص 91

يوظف به أنماط اللغة لخلق هذه الحكاية. هذا قياس بسيط. والفن اللفظي ظاهرة مركبة، مما يشير إلى حقيقة مهمة؛ هي أن دور اللغة في الفن اللفظي دور مركزي هنا ليست اللغة ثوباً لجسد، إنها الجسد» (136).

العلامة الأهم في الخطاب الأدبي إذن هي لغته. لا بد له من أن يخلق أنماطاً فريدة من اللغة. وقد جرى كثير من الباحثين على ربط تميز اللغة الأدبية بمبدأ الانحراف عن المعيار الذي جعل من سمات لغة الأدب الحاسمة (137).

ومن القائلين بالانحراف من يلاحظ تمايز أجناس الخطاب الأدبي فيما بينها؛ فبعضها أشد انحرافاً من بعض. يشير لبفين مثلاً إلى أن اللغة الشعرية تحتوى على انحرافات أكثر مما تحتوى لغة النثر (138).

ونجوز لنا أن نأخذ بهذا الرأي من وجهة النظر الإحصائية، لا من وجهة النظر إلى وجود اللغة ذاتها؛ وذلك - فيما يبدو لنا - أن الانحراف عن المعيار البرم سيكون هو المعيار غداً. وهذه الانحرافات ذاتها هي المصادر التي تعول عليها لغة النص الأدبي. إن هذه الانحرافات ستصبح علامات واصفة لتاريخ اللغة، أكثر مما هي علامات واصفة لطبيعة اللغة في الاتصال الأدبي. وتستطيع لغة التجارة والعلوم والتكنولوجيا أن تعطينا أيضاً نماذج مختلفة للانحراف عن المعيار؛ أى عن الاستخدام العادى للغة في الحياة اليومية.

ولعل علماء اللغة الناصين هم أشد الناس انتقاداً لأسلوبية الانحراف. يقول سرونسكى: «ليس صحيحاً أن اللغة الشعرية أو النص الشعرى، ينحرف بالضرورة

(136) المرجع السابق ص 91

(137) انظر في تفصيل ذلك :

شالر (بريد) : علم اللغة والدراسات الأدبية، ص 60 - 74.

(138) Levin, Samuel, R.: Statistische und determinierte Abweichung in poetischer Sprache, in: Helmut Kreuzer and Rul Gunzenhaueser (hrsg.) Mathematik und Dichtung, 4. Auflage, Nymphenburger Verlagshandlung, Muenchen (1971) SS. 33 - 47, S. 33.

عن اللغة العادية أو عن النص العادي. إن ميشيل ريفاتير Michael Riffaterre لم يستقد من فراغ - في بحوثه في مجال علم الأسلوب الأدبي - مفهوم الانحراف بعامه، فلا يشترط أن يكون انحراف النص انحرافا عن العادة Usus؛ إنه قد يكون تطابقاً تاماً مع معيار مجرد. إن الانحراف مفهوم نسبي. وينبغي لمن يتخذه أساساً لعمله، أن يحدد وجه الانحراف وعمّ يكون. وإذا كان لكل نص دلالة، فإن حقيقة الانحراف عن المعيار، ليست وحدها المسئولة عن إنتاج الدلالة» (139).

وقد أخذ كوزيريو Coseriu بمثل ذلك؛ يقول : «إن الانحراف عن استخدام لغوى، يمكن أن يكون هو نفسه استخداماً لغوياً. يمكن أن يكون هو نفسه تكتيك الكلام. إن الانحرافات الثانوية من هذا النوع، لا تصف النصوص وإنما تصف اللغات. بعبارة أدق، تصف هذه الانحرافات تكتيكات الكلام التى تنطبق على نصوص معينة وفقاً لأسس تاريخية، وهى تدخل فى نصوص بعينها. بهذا المعنى الضيق يمكن القول بوجود لغة للشعر. ولكن الأمر لا يتعلق بلغة للشعر على إطلاقها، إنما بلغة شعرية بذاتها، بلغة شعرية تخضع لتقليد خاص. فاللغة الشعرية فى الألمانية مثلاً تعرف تقاليد خاصة، وهذه التقاليد تنحرف عن المتبع والمألوف فى لغة الحياة اليومية. والأمر هنا لا يتصل بانحراف لغة شعرية انحرافاً مطلقاً، وإنما يتصل بخصائص لغة وظيفية فى إطار لغة تاريخية؛ أى يتصل بخصوصيات أسلوب لغوى بذاته. وفى النهاية فإن الانحرافات من هذا النوع لا تختص بمستوى النصوص، وإنما تختص بمستوى اللغات. بعبارة أخرى: تختص هذه الانحرافات بأساليب لغوية للغة تاريخية» (140).

ويمكننا - فى ضوء ما تقدم - أن نقول بأن دوليتسيل Dolezel كان على حق، حينما جعل من الضرورى تمييز اللغة الشعرية - التى توسم بتحقيق الفعاليات اللغوية - عن التغيرات فى المعيار المقياسى للغة الإخبارية، وعن التغيرات فى القانون الشعرى لمرحلة سابقة من التطور. ويعنى ذلك أن تفسير البنية اللغوية لعمل أدبي إنما

(139) Sowinski, ibid, SS. 51 - 52 .

(140) Coseriu, Eugenio : Textlinguistik, ibid, SS. 119 - 120 .

يكون بربط التحليل الوصفى بالتحليل التاريخي؛ فالتحليل الوصفى وحده لا يكفي لتفسير طبيعة اللغة الشعرية⁽¹⁴¹⁾.

إن التجاذب المستمر الذى تعرفه اللغة فى الاتصال الأدبى بين تحقيق الفعالية للرسائل اللغوية من ناحية، والارتباط بالمعيار من ناحية أخرى إنما يرجع - فيما نرى - إلى التجاذب المستمر بين الوظيفة الشعرية والوظيفة التوصيلية. والفعالية والمعيار قوتان متقابلتان وليستا متعارضتين، تتحقق الغلبة لأحدهما - بتغليب وظيفة على أخرى - دون أن تحرز على الأخرى انتصاراً كاملاً.

ومهما قبل عن كون الخطاب الأدبى تعبيراً عن وعى فردى بالواقع، أو عن قدرته على تكيف الأداة اللغوية والتجادل معها، وما تؤدى إليه من ابتعاد عن الاستخدام التداولى إلى التوظيف الجمالى، فإنه لن يحقق وظائفه إذا أهمل وظيفته الاتصالية بالمتلقى. الشعر والنثر فى النهاية مقال، مقال يؤديه مؤلفه - كما يقول جون كوين - لمتلقيه، وليس هناك مقال إذا لم يكن هناك اتصال. ولكى تكتمل القصيدة كقصيدة ينبغى أن تفهم ممن وجهت إليه. الإضفاء الشعرى سبيل ذو وجهين: تبادل وتزامن، تجاوز وتخفيض للمجازاة، هدم وإعادة للبناء. ولكى تؤدى القصيدة وظيفتها من الناحية الشعرية، ينبغى للمعنى فى وعى المتلقى أن يفقد وأن يتم العثور عليه فى آن واحد⁽¹⁴²⁾.

وكانت رقية حسن قد جعلت للفن اللفظى طبقات ثلاثاً، هى: الموضوع theme، والتلفظ الرسمى symbolic articulation، والتحويل إلى تعبير لفظى verbalization. أما الطبقة الثالثة، فهى نقطة الاحتكاك الأولى بالعمل؛ فنحن نبدأ بمعرفة قطعة من الفن اللفظى فقط عندما نعرف اللغة؛ أى عندما نعرف العلاقات بين المعانى ونظم الكلمات والأصوات. لا بد أن نعرف لغة النص لتعرف المعانى المشفرة

(141) Dolezel, Lubmir: Zur Statistischen Theorie der Dichterprache, in: Helmut Kreuzer und Rul Gumzenhaueser (hersg.): Mathematik and Dichtung, ibid, SS. 275 - 293, S. 279.

(142) كوين (جون): بناء لغة الشعر مرجع سابق ص 206 - 207.

فيه. أما طبقة التلفظ الرمزي، فهي في عودة معاني اللغة إلى العلامات مملوكة معنى أعمق. وأما الموضوع، فهو أحد الأسباب التي تعمل على استحالة انفصال الفن اللفظي عن الجماعة التي أبدع فيها، وذلك أن طبقة الموضوع *stratum of theme* أوثق ما تكون بأيديولوجيا الجماعة⁽¹⁴³⁾.

إن متأمل الشعر لن يفقد أثر الظلال المتنوعة للوظيفة الاتصالية وأهميتها في البنية الشعرية⁽¹⁴⁴⁾.

وإذا كانت اللغة أو الأسلوب علاقة بين الفرد المبدع والمجتمع الذي يعمل فيه، فإنه ينبغي له أن يكون قادراً على توقع استجابات المتلقين، وما إذا كانت هذه الاستجابات مدعمة لاستراتيجية خطابه أو مضادة لها. ويرتبط هذا المبدأ ارتباطاً مباشراً بالاتصال الأدبي الناجح الذي يحرص - شأنه شأن الاتصال في حالاته الأخرى - على جعل المخاطب شريكاً في اكتشاف أهداف الخطاب ومقاصده.

وربما اتخذ النص الأدبي المكتوب وسائل خارجة عن نطاق اللغة لتحقيق وظائف اتصالية خاصة، ومثال ذلك توظيف الشكل الكتابي للنص. وهذا الأمر مما عنت به نظرية فهم النصوص وتحليلها. يقول هانز جليتز Hans Glinz: «إننا نمنى كثيراً بالشكل الكتابي للنص الأدبي، الشكل الذي بدت فيه النصوص أول مرة، ويشترط ألا يكون المؤلف قد تناوله بالتفحيط، وألا يكون مصدر النص قد عرض له بالتعديل. إننا نقصد إذن الشكل الكتابي الذي كان عليه النص قبل أن يطبع كذلك، فنحن نمنى بكيفية تقسيم المؤلف نصه، من حيث إن هذا التقسيم يعكس - إلى حد ما - رؤاه، ومن حيث إن هذا التقسيم يؤثر في موقف المتلقين واستجاباتهم من ناحية أخرى¹⁴⁵.

(143) Hasan, Ruqaiya: Linguistics, ibid, pp. 96 - 99.

(144) Mukarovsky, J.R.: Standard Language and Poetic Language, in: P.L. Garvin (ed. And Tr.): A Prague School Reader on Esthetics, Literary Structure and Style, Washington (1964) p. 33.

(145) Glinz, Hans: Textanalyse und Verstehenstheories, Bd. 1-2, 2. Auflage, Akademische Verlagsgesellschaft, Athenaion - Wiesbaden (1977) SS. 61 - 62.

الفصل الثاني

الاتصال غير اللفظي

إن اللسان المتحرك يبرهن على أنه جزء واحد فقط من الفعل الإنساني المعقد، الذي ينبغي لنا أيضاً أن نفكر عن معناه في غمزة العين، وتلويحة اليد، وقسمات الوجه الدالة ونحوها. نتحدث هنا إذن، عن السلوكيات الحركية التي تكون الأساس الأهم الذي يبنى عليه الاتصال غير اللفظي non-verbal communication. وإذا كان هائمس قد جعل من مكونات الاتصال الرئيسة : القناة والمفتاح، فإن التأثير على المفتاح قد يكون عن طريق غير لفظي أيضاً؛ كالحركة الجسمية أو الوضع الجسمي للمتكلم. من ناحية أخرى، فإن الإيماءات وتعبيرات الوجه ونحوها وسائط بصرية عظيمة الشأن في قناة الاتصال غير اللفظي.

ربما اكتفيت حيناً بالمنطوق اللفظي: أخرج، وحيناً آخر تشير بيدك - أو إصبعك - ناحية الباب أن أخرج، وحيناً ثالثاً تجعل منطوقك اللفظي: أخرج مصحوباً بهذه الإشارة. ولما كانت الكيفية التي يقال بها الشيء جزءاً مما يقال، فإنك ربما اعتمدت قناة اتصال واحدة (الاتصال السمعي في الحالة الأولى، والبصري في الحالة الثانية)، وربما اعتمدت قناتين اثنتين معاً للاتصال، كما في الحالة الأخيرة. ولعل في اعتماد قناتين اثنتين بدلاً من قناة واحدة، ما يوفر للسياق غير اللفظي هيئة تكلم بعينها fashion of speaking، هي - آنذاك - مقتضى من مقتضياته.

(1) الاتصال غير اللفظي : مفهومه وحدوده :

من المعروف أن موضوع علم اللغة هو الاتصال المكون من الرسائل اللفظية verbal messages ، والشفرة اللفظية verbal code التي تدعمه وتؤهله لأداء وظائفه. فإذا ما نظرنا إلى الاتصال غير اللفظي، وجدناه من أسوأ المفاهيم تحديداً في

السيمياء كلها. ولا عجب أن صيغ مفهوم الاتصال غير اللفظي صياغة سلبية غالباً، فمنذ عام 1888م حده كلاين باول Kleinpaul - في تناقض ظاهري - بأنه: «الكلام من غير كلمات» أو «اللغة غير اللفظية». وبعد ظهور المقالة المستفيضة الجيدة التي كتبها روش Ruesch وكيس Kees (عام 1956م) عن «غير اللفظي»، أخذ هذا المفهوم يتردد كثيراً في عناوين لمؤلفات. وفي عقد السبعينيات نجد وفرة من الباحثين في هذا المجال، أمثال بوسماجيان Bosmajian (1971م) وآيزنبرج Eisenberg (1971م) وميرابلان Mehrabian (1972م) وفايتس Weitz (1974م) وبوياتوس Poyatos (1976م) وغيرهم. وتلح بحوث هؤلاء جميعاً على النظر إلى الاتصال غير اللفظي على أنه اتصال سُلبت منه اللغة Communication minus language⁽¹⁾.

لقد أطلقت على الاتصال غير اللفظي تسميات عدة، منها: الاتصال الجسدي، واللغة الجسدية، والكلام الجسدي، والحركة الجسمية، والسلوك الحركي، وعلم السلوك الحركي، والعلامات الحركية، والتعبير بالوجه، والبانتومايم أو التمثيل بالإشارات، واللغة الصامتة، ونحوها.

وقد كانت جهود الباحثين - لاسيما اللغويين الأنثروبولوجيين والسيمائيين - في التمييز بين اللفظي وغير اللفظي، مما حدا إلى الجدل في المظاهر التي يمكن أن تدخل في إطار اتصال غير اللفظي. وقد عبّر بعضهم عن صعوبة هذا الأمر، على نحو ما نجد - مثلاً - في قول سيببوك: «الحق أنه يصعب جداً - من الناحية العملية - أن نحدد دائماً دون لبس الشريحة من المواجهة النطقية (المحادثة، حالة كلامية) بين الناس، التي تختص بعالم اللغة، والشريحة التي تختص بالتحليل التفاعلي غير اللفظي»⁽²⁾.

إن أعضاء النطق - مثلاً - أجزاء من الجسم الإنساني، فلم لا نجعلها - كما يقول سيببوك - من الاتصال غير اللفظي؟. فضلاً عن ذلك، هناك أشكال أخرى عدة

(1) Sebeokm p. 165.

(2) المرجع السابق ص 165.

تجعل 'غير اللفظي' يعمّ مدى أوسع من محيط الاتصال الجسدي. من المؤكد أن الموسيقى، وفنون الطهي، والسيرك، وزراعة الحدائق والنباتات، وتسويق الزهور، واستعمال العطور، واختيار الثياب والتوفيق بينها، تعدّ كلها وسائل غير قصدية، ضمن الخيارات متعددة الشكل عند الإنسان؛ للاتصال بالآخرين اتصالاً غير لفظي. من أجل ذلك، فإننا نحسب أن سيبوك لم يكن مبالغاً في زعمه أن مجال 'غير اللفظي' - بناء على هذا التصور - يطابق تماماً مجال الثقافة وقد استثنينا منه اللغة⁽³⁾.

أي : الثقافة - اللغة = الاتصال غير اللفظي !.

وكان سيبوك قد أدمج المقياسين : صوتي / غير صوتي، ولفظي / غير لفظي في جدول جعل مفرداته مظاهر مختلفة من قنوات اتصال متباينة، محددًا السمة التي تميز كل مظهر منها وفقاً للمقياس التي يعينها الاستعمال اللغوي المعياري (انظر الجدول 4). من ناحية أخرى، يبين سيبوك - في جدولته إنتاج العلامات عند الإنسان تبعاً لتقنيات اتصالية مختلفة (انظر الشكل 4) يبين أن العلامات غير اللفظية، يمكن أن تكون مرتبطة بالكلام أو مستقلة عنه. ويبين أيضاً أن جميع الأنظمة اللفظية تظهر في وسط سمعي. وما يسميه في هذا الجدول بالعلامات الاصطناعية إنما ترتبط بالعالم الاصطناعي الذي يشير إلى عالم الرموز، والتنظيمات، ونظم التفكير. وهو - كما تقول مارسيل دانيسي Marcel Danesi - عالم من صنع الإنسان كلية، ويميز الثقافات والحضارات الإنسانية. إنه العالم الذي لا ترثه الأجيال المتوالية بيولوجياً، إنما يتقل إليها في سياق وشكل محددين ثقافياً على نحو ما. ويقابل العالم الاصطناعي هذا مسمى بالعالم الواقعي، الذي يشتمل على العالم البيولوجي، وهو ما نسهم فيه بكل تركيبنا العضوي، كما يشتمل على عالم الخيال الإنساني المحدد نوعياً، والذي يعني القدرة على عمل صور في العقل. بعبارة أخرى، فإن العالم الواقعي هو الذي ترثه بمقتضى امتلاكنا جسماً وعقلاً. وعلم العلامات يعني بهذين العالمين معاً⁽⁴⁾.

(3) المرجع السابق ص 166

(4) المرجع السابق ص 166

لفظى	صوتى	
+	○	اللغة
+	+	الكلام
+	-	لغة العلامة الأمريكية
-	+	ثرثرة : ما فوق اللغة
-	-	إشارة احتقار
±	+	أغنية (نغمة بإنشاد أو بدون إنشاد)
○	+	صفير

الجدول رقم (4)

+ = تحقق الخاصية

- = فقدانها

± = الخاصيتان موجودتان في وقت واحد.

○ = التمييز لا ينطبق أو لا يصدق عليها.

				صامتة	
			صناعية		العلامات
		مهموسة		مصوتة	
	لفظية		عضوية		
مرتبطة بالكلام		سمعية			
	غير لفظية				
مستقلة عن الكلام					

الشكل رقم (4)

من ناحية أخرى، يميز ميرابيان Mehrabian بين معنيين اثنين للسلوك غير اللفظي، ويرى أن أحدهما ضيق، لكنه أدق، وأن الآخر أوسع، لكنه مغلوط. يضم الأول - عنده - تعبيرات الوجه، وحركات اليد والذراع، والحيثيات والأوضاع الجسمية، وحركات الجسم المتنوعة: الأرجل والسيقان والأقدام. أما الثاني، فهو معادل لما يضمن في النمط الفرعي المسمى بـ «الظواهر فوق اللغوية أو النطقية Paralinguistic or vocal phenomena»⁽⁵⁾.

وبين سالزمان أنه إذا أخذنا مصطلح «الاتصال غير اللفظي» حرفياً، فإنه يشير إلى أي نقل للعلامات يتم إنجازه بوسائل أخرى غير الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة. ويشير سالزمان إلى أن الناس لا يتفقون جميعاً على ما يتضمنه هذا المصطلح، ويتساءلون عن قبوله التحديد. ويذكر أن هذا المصطلح، يتضمن - في اتساع - الحركات الجسمية، وتعبيرات الوجه، والمسافة بين المشاركين، واللمس، والشم، والصفير، وعلامة التدخين، ولغة الطبول، ونحوها من المؤثرات الصوتية الاختيارية، كتلك التي تصاحب

(5) Sebeok, p. 165

الملفوظات المنطوقة التي يمكن تدبرها في مجاورتها كلمات فعلية (كأنه يعنى ملفوظات نحو : هيه، بيه، هاء، ياء، مم.. الخ).

إنه يرى أن أنظمة الاتصال غير اللفظي، يمكن أن تنقسم إلى أنظمة تتج عن اللغة المنطوقة، وأنظمة أخرى تستقل عنها. وباستثناءات قليلة فقط، يمكن أن تنقسم أنظمة الكتابة إلى النوع الأول، من حيث إنها تشغل على أصوات الكلام.

وهناك تصنيف آخر للاتصال غير اللفظي بحسب القناة؛ أي بحسب الوسيط الذي تنقل عبره العلامات : فالقناة التي تستخدم في لغة الطبول قناة سمعية، بينما تستخدم علامات التدخين القناة البصرية. ويستخدم المكفوفون اللمس مثلما يحسون بالحروف البارزة في نظام برايل. ويستطيع الصم والعمى أن يتعلموا قياس الحركات التلغظية articulatory movements بوضع اليد على وجه المتكلم ورقبته (طريقة تادوما Tadoma Method)⁽⁶⁾.

ليست دقة العلاقات بين الاتصال اللفظي والاتصال غير اللفظي وحدها إذن - كما ذهب روبرت هابند Robert Hinde⁽⁷⁾ - هي المسئولة عن صعوبة تحديد «غير اللفظي»، بل إن هذه الصعوبة تنشأ حقاً من تنوع مظاهر «غير اللفظي» ذاته، وتعدد أشكاله وقنواته. ولكننا نريد هنا - بالرغم من كل ما سبق عن اتساع مجال «غير اللفظي» - أن نجعل المطلب الرئيس هو «السلوك الحركي»، بما يضمه ويتفرع عنه من حركات وإشارات وتعبيرات وأوضاع وهيئات جسمية، سواء أكانت مرتبطة بالسياق اللفظي أم منفصلة عنه.

نعنى من مظاهر الاتصال غير اللفظي المتعددة إذن بالسلوك الحركي، الذي يعد - فيما نرى - أهم تلك المظاهر في المواقف الاتصالية المختلفة على الإطلاق. وأشدّها

(6) Salzman, pp. 213 - 214 .

(7) Hinde, Robert: Biological basis of human Social behavior, Mc Craw - Hill, New York (1974) p. 146.

التصاقاً وتكاملاً - من الناحيتين: البنائية والوظيفية - بالاتصال اللفظي ذاته. ويلاحظ أن مصطلح «السلوك الحركي» الدال على هذا النوع من الاتصال غير اللفظي المرتبط بالحركات والإيماءات والتعبيرات العضوية الجسمية المختلفة، قد صار - في العقدين الأخيرين بوجه خاص - المصطلح الأشيع والأوفق علمياً عند محلي الخطاب والسماعين واللغويين بعامه.

(2) السلوك الحركي وأصل اللغة :

يرى ماريو باي أن الإيماءات ربما كانت أسبق وجوداً من الكلام⁽⁸⁾. وهناك زعم شائع بأن اللغة - في ارتقاء الإنسان - قد حلت محل الأنظمة غير الناضجة التي عرفتها حيوانات أخرى. ويرى باتسون Bateson أن هذا الزعم خطأ كلياً؛ لأنه لو كانت اللغة اللفظية verbal language - باي معنى - قد حلت حلولاً نظورياً محل الاتصال بوسائل السلوك الحركي Kinesics أو ما فوق اللغة paralanguage، لكان لنا أن نفترض انحطاطاً ظاهراً حل بالأنظمة القديمة. والأحرى أن السلوك الحركي عند الإنسان كان قد أصبح أغنى وأشد تعقيداً، وأن وسائل ما فوق اللغة كانت قد ازدهرت مع تطور اللغة اللفظية. وأن كلا منهما كان قد أحكم إلى صيغ معقدة من الفن، والموسيقى، والشعر ونحوها⁽⁹⁾.

وبالرغم من تحطنة باتسون الزعم السابق كلياً، فإن الفكرة التي تقول بأن الناس كانوا قد جعلوا استعمالاً تأثيرياً للحركات الجسمية affective use of gestures قبل أن يطوروا الكلام، صارت تلقى مؤخرًا تدعيباً جديداً من بعض الباحثين، مثل جوردون هيويس Gordon Hewes. يزعم هيويس أن الوجود السابق لنظام لغة

(8) باي، ماريو. أصل علم اللغة، ترجمة دكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ط2 (1983) ص 39.
(9) Sebeok, p. 158.

الحركة الجسمية gestural language system قد عرف له طريقاً إلى لغة مصوتة vocal language أسهل من استعمال مميزات نصوتية للحيوانات العليا غير الإنسانية استعمالاً انفعالياً⁽¹⁰⁾.

ومن الشواهد والأدلة التي تقدم لتدعيم النظرية الحركية الجسمية في أصل اللغة، أن العمل التجريبي الحديث مع الشمبانزي والغوريلا، قد بين أن هذه الثدييات قادرة على اكتساب مفردات العلامات الحركية التي هي أكبر من معجم نصوتياتها، وأنها تستعمل هذه العلامات - عند الحاجة - بدرجة من الأصالة⁽¹¹⁾.

وقد تناولت الأنثروبولوجيا اللغوية نظرية الحركة الجسمية في أصل اللغة؛ على نحو ما نجد عند سالزمان. يلاحظ سالزمان - مصيماً في ذلك - أن العلامات الحركية الجسمية، تميل إلى أن تكون علامات أيقونية iconic، من حيث إنها تماثل ما يفترض أنها تنقله، أكثر من كونها علامات اعتباطية arbitrary. وبناء على ذلك، يرى سالزمان أن تعيين الأسبقية التطورية للحركات الجسمية على الكلام، بعد مقبولاً بوجه عام. إن صيغة الاتصال غير المصوتة، ينبغي أن تكون لها مزية متميزة عند الصائد الأول في عمليات الصيد التي تعتمد على نقل الخطى نقلاً حذراً. كذلك، فإنها تمكن أفراد الجماعات الصغيرة من الاختفاء خشية الضواري!

أما الاتصال - فيما بعد - عن طريق الكلام، فإنه - كما يقول سالزمان - يحتاج إلى جهد أقل، كما أن احتمال انتشار المفردات غير محدود.

إن الإشكالية الأساسية مع نظرية السلوك الحركي، هي كيفية تدبير التعبير من الصيغة الحركية الجسمية المرئية إلى الصيغة السمعية الصوتية تدبيراً مقنعاً؛ وذلك أن

(10) Hewes, Gordon, W. : Primate Communication and the Gestural Origin of Language, in Current Anthropology 14 (1973) pp. 5-24, p. 12.

(11) راجع في ذلك Salzman, p. 92.

المسألة التي أجهزت ليست فحسب تغيراً سلوكياً من الإشارة باليد والتلويح بالأيدي إلى الكلام. إنها أيضاً التغيرات التشريعية الضرورية في المخ وفي الجهاز الصوتي⁽¹²⁾.

ويفترض هيويس Hewes أن الانتقال قد تسر عبر التقليد غير الواعي للحركات البدوية عن طريق حركات الشفتين واللسان⁽¹³⁾.

وبالرغم من ذلك، فإننا نحسب أن هذه الافتراضات لم تسد الثغرة إلا قليلاً، فما زالت نظرة السلوك الحركي في أصل اللغة قاصرة عن أن تسهم إسهاماً كافياً في الإجابة عن السؤال: كيف تولدت اللغة المنطوقة أو تطورت؟. نحسب أن هاليداي كان موفقاً أكثر من غيره، حين جعل للبحث في هذه المسألة - على نحو ما رأينا (انظر بحث مفهوم الاتصال اللفظي وطبيعته، من الفصل الأول) - وضعية علمية جديدة، فكان تمييزه الافتراضى بين اللغة الأولية واللغة منطلقاً من القياس على نموذج الطفل.

(3) السلوك الحركي والسياق الثقافي :

رأينا قبل ذلك (انظر مبحث الاتصال والتداولية) أن الارتباط الداخلى بين الاتصال والثقافة قد عرف طريقه منذ الستينيات، فيما أثاره إدوارد هول Edward Hall من أفكار، لتطوير التقريبية proxemics ؛ أى دراسة الأطر الثقافية للقواصل المكائبة والمسافات التقريبية بين الأفراد في مقابلات المواجهة face - to - face encounters.

إننا نلاحظ - بحق - أن قدراً لا بأس به من الحركات الجسمية والإشارات وتعبيرات الوجه، يبدو مشتركاً بين ثقافات متنوعة، في إنتاجه ومدلوله. ولكن يظل قدر غير قليل منها - بما هي علامات سيميائية اجتماعية - مقيداً بالثقافة أو الثقافات الفرعية في جماعة كلامية بعينها، وممارساً عمله من خلال الأعراف السائدة

(12) Salzman, pp. 92 - 93

(13) Hewes, Gordon, Primate Communication op. cit.

والفاعليات الاجتماعية لتلك الجماعة. ومن هنا يكون الاختلاف بين جماعة وأخرى في استقبال تلك الحركات الجسمية وقبولها وإدراك معانيها. وربما اتخذت حركات بعضها - في بعض المواقف الكلامية - مؤشراً على الطبقة الاجتماعية والمستوى الثقافي لمحدثها. وإذا كان هايمس - في إثنوجرافيا التكلم - قد انتهى إلى أن الكلام يتحدد نظامياً داخل سياقه الثقافي الاجتماعي، فإن الحركات الجسمية ونحوها - في التفاعلات الاتصالية اليومية - لن تختلف هي الأخرى في ذلك عن الكلام. إن تأمل السلوكيات الحركية المرتبطة بالتكلم، يوقفنا على أنه في الوقت الذي تستبطن فيه الحركة الجسمية من حركة صانعها، فإن تحديد شكل هذه الحركة تحديداً جوهرياً، إنما يتأني من طريق معرفة العوامل البيئية التي يخضع لها المتكلم. إن وصف الحركة بوجب الكشف عن معناها. حيثذ ينبغي لنا - كما يقول جوفمان - أن ندخل إلى الوضع الإنساني والمادى الذي صنعت فيه تلك الحركة. إن الحركات الجسمية الفردية - كما يقول جوفمان أيضاً - بيئتها المباشرة، لا بجسمها فحسب، ومن هنا ينبغي لنا أن نعرف هذه البيئة بطريقة منظمة⁽¹⁴⁾.

وبلاحظ الرحالة المراقبون أن أفراد المجتمعات على حوض البحر الأبيض المتوسط، يستعملون حركات جسمية، وتعبيرات الوجه، أكثر بكثير من أفراد المجتمعات التي تعيش في اسكتلندا أو اليابان. وعلى كل حال، فإن الإيطاليين - مثلاً - لا يستعملون جميعاً اللغة الجسمية body language نفسها. وبالمثل، فإنهم لا يتكلمون جميعاً لهجة واحدة في إيطاليا⁽¹⁵⁾.

ونحسب أن بيرد هويستل Birdwhistell هو أهم من عني بالبرهنة على أن السلوك الحركي سلوك مفيد بالثقافة، مثلما هي الحال تماماً مع اللغة. ولعل من أطرف

(14) Goffman, E.: The Neglected Situation, ibid, P. 62 .

(15) Salzman, p. 215 .

ما اتخذ من امثلة تدعيماً لنظريته، أن عزل الصوت من أفلام خطب السياسى وعمدة مدينة نيويورك الأسبق: فيورييللو لا جوارديا Fiorello La Guardia لن يعوق عن إمكانية الإخبار بما إذا كان يتكلم الإنجليزية، أو لغة الإسرائيليين الألمان، أو اللغة الإيطالية؛ وذلك أن الحركات الجسمية المرتبطة بإحدى هذه اللغات تختلف عن نظائرها في لغة أخرى⁽¹⁶⁾.

(4) السلوك الحركى ووظائفه العامة :

عنى علماء اللغة الاجتماعيون بالتنوعات الاجتماعية التى تترك أثرها فى السلوك الكلامى؛ كالعمر والجنس ونحوهما. وقد أشاروا - إلى جانب ذلك - إلى التصرفات الاجتماعية التى تحدد السلوك الكلامى؛ أى التى تقود إلى إضافة خواص مكتشفة فى السلوك الكلامى. وقد لاحظوا أيضاً أن هذه الإضافات ذات علاقات متنوعة بالأبنية الصوتية والصرفية والنحوية التى تمتلكها اللغة. ولعل الأهم - من جهة اهتمامنا هنا - هو ما لاحظوه من ملامح سلوكية حركية جديدة يتضمنها الكلام، وهى - كما يقول جوفمان - ملامح تزودنا بملاءمة من الخواص والمؤشرات التى ينبغى أن يعنى بها فى تحليل السلوك الكلامى⁽¹⁷⁾.

وإذا كانت اللغة الطبيعية فى صورتها المنطوقة هى النظام الرئيس، فإن لغويين آخرين يعرفون للنظام غير اللفظى دوره الهام فى الاتصال، ويعرفون أن صورة الموقف الانصالي الكلية، لا تكتمل بدونه. وكان هاليداي - مثلاً - يقر بأهمية الدور الذى تؤديه الأنظمة الخارجة عن نطاق اللغة؛ كالحركة الجسمية⁽¹⁸⁾.

(16) Birdwhistell, Ray, L.: Kinesics and Context: Essays on Body Motion Communication, Uni of Pennsylvania Press, Philadelphia (1970) p. 102

(17) Goffman, E. The Neglected Situation, P. 61

(18) Halliday, M.A.,K.: Language as Social Semiotic The Social Semiotic, ibid, p. 37

وبالرغم من أن الاتصال اللفظي هو الذى يراعى جوهرياً فى علم اللغة النصى، من جهة أن التصور تكون عادة من علامات لفظية، فإنه لا يمكن إغفال أهمية الإيماءات والحركات. يقول سورنسكى مثلاً : «من الممكن حقاً أن نعرض سياقات دلالية كبرى فى شكل إيمائى pantomimisch، بحيث تستغنى - بهذه الطريقة من الاتصال المحاكى - عن اللغة اللفظية verbale Sprache. وغالباً ما يكون للعلامات الإيمائية أو الجسمية وظيفة مصاحبة الأحاديث وإشكال الاتصال الشفهى الأخرى. ومع ذلك، فإن لهذه العلامات الإيمائية والجسمية وظيفة دلالية تكملية، من حيث إنها تظهر شكل العلاقة أثناء الاتصال وتقويه. كما أنها تشير إلى الموقف الشخصى والسلوك الانفعال الذى يسلكه أحدهم تجاه الآخرين أو ضد الآخرين» (19).

ويعد السلوك الحركى من العوامل الهامة فى التمييز بين الشكلين الرئيسين للاتصال اللفظى ذاته؛ أى التمييز بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة؛ وذلك أن اللغة المنطوقة تبدو - فى هيئتها الكبرى - مصحوبة بالحركة الجسمية Gestik والتعبير بالوجه Mimik. ولا تعرف الشفرة المكتوبة معادلاً مباشراً لذلك. ولما كانت الحركة الجسمية والتعبير بالوجه، مما يعد من الموقف؛ فإنه يتبين لنا ثانية أن الشفرة المكتوبة يمكنها أن تتعهد بالتعبير عن الموقف بطريق غير مباشر. وعند تحويل لغة مكتوبة إلى شكل صوتى، تعد الحركة الجسمية وتعبيرات الوجه، تفسيرية وغير مفيدة بالحدث الكتابى (20).

إن المعرفة بتفاصيل الأوضاع الجسمية والسلوكيات الحركية فى الموقف الاتصالى، يمكن أن تكون ذات أهمية لتفاصيل موقفية أخرى؛ فكما أن المشاركين فى هذا الموقف لديهم ما يسمونه حقيقة، فإن لديهم ما يرونه أيضاً. من أجل ذلك كان

(19) Sowinski, S. 68.

(20) Soell, Ludwig: Gesprochene und geschriebenes Fanzoesisch, ibid, S. 21.

الاحتياج إلى تلك التفاصيل حتى يصل إلى تفسيرات مناسبة ضرورية للمشاركة المتكافئة في تفاعل لفظي أو غير لفظي.

إن سلاسل الإسهامات في مثل تلك النشاطات المترابطة لمشاركين اجتماعيين عدة، يمكن - مثلاً - أن ينطق بها في دورات المتكلم *speaker turns*. وقد قام كثير من العمل في الدراسة الإثنوميثودولوجية (النهجية الشعبية) للمحادثة اليومية، على بيان الطرق التي يستعملها الناس في تنظيم دورات الكلام. ويستطيع المشاركون حيازة الدورة أو استقبالها، ثم يتبعون عدداً من الاستراتيجيات المناسبة لتوزيع مثل تلك الدورات أو تخصيصها، مستخدمين في ذلك كلا من الرموز اللفظية وغير اللفظية. ومن أمثلة الرموز غير اللفظية: النظرات، والحركات الجسمية⁽²¹⁾.

وتقودنا هذه الإشارة إلى وظيفة النظرات ونحوها في توزيع الأدوار الكلامية بين المتخاطبين، إلى استخدامها في وظيفة التأشير إلى تغير المحور. وإذا كان مصطلح «المحور» قد استخدم في وصف بنية الجملة، فإنه - بالضرورة - مصطلح بعين مكوناً جلياً بعينه. وقد اتخذ جريمس Grimes - مثلاً - هذا المصطلح في دراسة الخطاب؛ لوصف الطرق المختلفة التي تتبعها لغات متنوعة في تحديد «المكون المحوري للجملة *topic constituent of sentences*». ونحن - في إشارتنا هذه - لا نستخدم هذا المصطلح مكوناً نحوياً من أي نوع، إنما نعني مفهوم المحور النظري العام؛ أي المحور بمعنى ما يدور حوله الكلام في تخاطب بعينه. بعبارة أخرى: نعني بالمحور هنا القضية أو الموضوع الخاص الذي نذكر حوله أشياء توضحه، أو الذي يستتج استنتاجاً.

في ضوء ذلك، فإننا نلاحظ أن اللغة المنطوقة تفرض على متجها - كما هي الحال الخاصة باللغة المكتوبة - مقتضيات مختلفة. ومن هذه المقتضيات في اللغة المنطوقة: أن المتكلم - كما تتاح له طائفة من المؤثرات الصوتية النوعية - يُتاح له أيضاً أن يعبر بالوجه وينظم السلوكيات الحركية والأوضاع الجسمية المختلفة عن تغير

(21) van Dijk, Teun, A. : Dialogue as Discourse, ibid, p. 4.

الموضوع الذى يتكلم فيه. يقول براون/ يول: «يستخدم المتكلمون طائفة من العلامات الشكلية التى يشيرون بها إلى التغير فيما يتكلمون فيه. ويمكن أن تعد هذه العلامات مؤشرات إلى تغير المحور، يستخدمها المشاركون فى المحادثة؛ فنظرة المتكلم إلى محاوره، وتفرسه فيه، واستخدامه بعض الحركات الجسمية الدالة على تغييره خطابه، لها جميعاً أهمية فى تغير المحور»⁽²²⁾.

إننا ننظر إلى خواص كلامية عدة على أنها بدائل عن الأحداث السياقية غير اللغوية، أو نظائر وطيفية للأحداث السياقية الخارجة عن نطاق اللغة. ومثال ذلك أن يجعل المشارك من تغير وضعه الجسماني *changing his posture* علامة على انتقاله الرشيك من مواجهة خطابية بذاتها. وربما جعل المشارك من تغير هذا الوضع علامة على إعادة توجيه انتباهه إلى موضوعه على نحو ملحوظ. وهذا ما نشبهه بالبدائل السياقية فوق التركيبية؛ كالتنغيم الذى يغير المتكلم منسويه إلى نغمة هادئة مثلاً؛ ليدل بذلك على أنه قد دنا من تبليغه الأخير. وكما يستطيع التنغيم أن يقلب المعنى إلى التقيض، فإن خفض الرأس وانحناء الظهر مثلاً - فى موقف النفور والغضب - ليست علامات إذعان أو احترام حقيقيين، إنما التظاهر بهما على سبيل الهزء بالمخاطب.

من ناحية أخرى، فإن الحركات الجسمية والإيماءات مصاحبة المنطوقات، تعد عملاً إضافياً يحفظ للمشاركين فى الاتصال انشغالهم به، بل إنها تدعم أوضاع الكلام وحالاته، وتؤمن له نظامه، وتحفظ له إيجائيته. يقول جوفمان: «تخضع المنطوقات - بالطبع - لضغوط وضرورات لغوية (كما تفعل المعاني)، ولكن الأشخاص الحاضرين فى موقف اجتماعى، ينبغى لهم - فى كل لحظة - أن يقوموا بعمل إضافى. ويحفظ هذا العمل للمشاركين فى الكلام انشغالهم به. وينبغى للمنطوقات أن تقدم فى كساء من الحركات الجسمية الوظيفية *Functional gestures* أى الحركات التى تدعم

(21) Brown / Yule: Discourse Analysis, p. 106.

حالات الكلام وأوضاعه، والتي تؤمن له نظامه، وتحفظ أنظمته الإيجائية البسطة»⁽²³⁾.

ولا شك أن ذلك يقدم لنا دليلاً قوياً على علاقة التكامل بين قنوات الاتصال المختلفة، فإذا كانت القناة السمعية أشيع القنوات استخداماً، فإن قنوات الاتصال الأخرى لا يضرب عنها الصفح. إننا إذا تغاضينا عن القنوات الأخرى، فسوف نجعل حقيقة هامة، هي أن السلوك الاتصالي الذي يجعل استعمالاً أساسياً لقناة ما على نحو متكرر، إنما يعتمد على قنوات أخرى تقويها. ويصدق هنا ما يذكره سالزمان من أن القناة تقدم بديلاً تأثيرياً للأخرى: فالسلام العسكري الذي يستخدم القناة البصرية (الاتصال غير اللفظي)، يعد المعادل المرئي للتعبير عن الاحترام أو التعظيم عما - يمكن - بطريقة أخرى - أن يذكر شفهاً. ويجتهد المصورون الصحفيون في تقديم الوقائع الإخبارية مصورة؛ وذلك أن «الصورة تعدل ألف كلمة!»⁽²⁴⁾.

إن اصطحاب اللغة خاصة أو أكثر من الخواص الخارجة عن نطاقها، إنما هو ميل حيادي تام. ويلحظ المرء في المواقف الاتصالية الحية ميلاً قوياً إلى الحركات الجسدية، سواء أكانت حركات جسمية مصوتة vocal gestures (تأمل مثلاً استخدام طريقة اللسان علامة على الموافقة) أم حركات جسمية مرئية (كالإيماءات والتلويحات وتعبيرات الوجه). ويمكننا - من أجل ذلك كله - أن نجعل السلوكيات الحركية وتعبيرات الوجه ملمحاً مميزاً لمجرى الكلام، مثل تلك الملامح السياقية الدالة أسلوبياً والخارجة عن الكلام أو النص. ولم يكن غريباً أن يجعل إنكفست - مثلاً - مكاناً للحركة الجسمية في نموذج الذي صممه لأنماط السياق. وقد جعل هذا المكان بين عناصر السياق الخارج عن النص extratextual context الذي يعد - في هذا النموذج - مقابل السياق النصي textual context .

(23) Goffman, p. 65

(24) Salzman, p. 198.

(25) Enkvist, Nils Erik: Lingusitic Stylistics, ibid, pp. 58 - 59.

إن الافتراضات التي تكمن في علم السلوك الحركي، هي أنه لا حركة جسمية ولا تعبير وجه، يعوزه المعنى في السياق الذي يقع فيه، وأن الحركات الجسمية، ووضع الجسم الخاص posture، وتعبيرات الوجه، ذات أنماط معينة، كما في الحال مع المظاهر الأخرى التي يعرفها السلوك الإنساني الاختياري.

وتعد الحركة التعبيرية والتعبير بالوجه، من عناصر الدراما الجمالية aesthetic elements of drama، في جانب الحدث، والرقص، والموسيقى والغناء، هناك الحركة التعبيرية expressive movement والتعبير بالوجه mime؛ وذلك أن طريقة العرض في الدراما ليست محصورة في اللغة وحدها، ولأنها تتضمن حدثاً فيزيقياً يؤديه ممثلون أحياء، فإن هناك مجالا إضافياً للوسائل التعبيرية المفيدة لكل من المؤلف والمتلقي. على سبيل المثال، يمكن لحركات الممثل وتعبيرات وجهه أن تحكي الحدث action أو الحالة state التي يوحى بها الحوار وتعززهما، ويمكن لها أيضاً أن تضاد النص الأدبي وتحالفه، حتى تلك الأحداث الإضافية التي لا يحددها المؤلف حقيقة.

وقد تثير هذه الحركات والتعبيرات مشاركة وجدانية، تتبدى في رد فعل المشاهدين على شخصية الممثل أو لما وضع فيه من مأزق حرج. إن عرض الأحداث بغرض تعزيز الحكمة أو التعبير عن تعليق على الحدث، مما يمكن إنجازها دون حاجة إلى حوار خارجي dialogue. ويعرف هذا باسم «التعبير بالوجه أو التقليد بالإشارات mime»: أي الإشارة أو الدلالة على الأحداث وردود الأفعال عن طريق حركة الجسم وحدها.

وبالإضافة إلى تعزيز الحكمة plot، يمكن أن يستعمل التقليد بالإشارات أيضاً، من أجل إنتاج مادة مناسبة تمنح خلفية وتوفر طابعاً درامياً، مما يضيف حياة ولونا خاصاً على المسرحية.

إن تلقائية متواليات التقليد بالإشارات وهزليتها، مما يضيف قدراً عظيماً إلى نسج العمل وإلى بنيته وأهميته.

وإذا كان التقليد بالإشارات وسيلة فوق أدبية، فإن الحركة الجسمية - عندما نكتف وتُنظم في المكان والزمان - تصبح رقصاً، بالطريقة ذاتها التي يمكن بها أن ينهض الكلام الجزافي إلى مستوى البيت الشعري أو الترنيمة أو الأغنية.

إن هناك بعض الانفعالات التي تعد فوق التعبير بالكلمات، أو حتى فوق التعبير بالحركات الجسمية العادية. في مثل تلك اللحظات من التوتر العالي، ينبغي للشخصية أن تلجأ إلى الرقص، وأن تجعل المشاهدين يشاركون - على نحو تخيلي - في الصيغة التي أبدعت⁽²⁶⁾.

وتنهض هنا مسألة التمثيل الواقعي، من حيث إن المشاهد يقارن طريقة الشخصية الدرامية بنماذج من المتكلمين في الحياة الواقعية؛ أي في المواقف الاتصالية الماثلة. لا بد في التوظيف التعبيري للحركات الجسمية في الدراما من الالتصاق الحميم ببنية النص الدلالية العميقة وسباقه الموقفى الكلى، ولا بد أيضاً من مضاهاة تلك الحركات الواقع المرثى في إتقان وفطنة. ويشير ريتشارد تايلور R. Taylor إلى أن الممثلين الهواة يقعون في خطأ ترجمتهم كل الشاعر إلى عبوس الوجه عبوساً مبالغاً فيه، أو تشخيص بعض الأوضاع والحالات الكائنة عن طريق حركات جسمية⁽²⁷⁾.

ومن وجهة النظر إلى تقنيات الحدث الدرامي، يلاحظ أن الحركة بعامة movement والحركة الجسمية بخاصة gesture، أشد تعبيرية من النظرات المجردة. ونحن نفهم كثيراً عن طبيعة الشخصية ووعيها الداخلي inner consciousness، من الطريقة التي نسلك بها سلوكاً ما، سواء في المواقف المألوفة أم في المواقف الخاصة. إن رؤيتنا شخصاً يهرول إلى الغرفة، ويفلق الباب في عنف، ويلقى بكتاب على الطاولة، سوف يفهمنا حالته الانفعالية. ولن يستطيع تقطيع الوجه أن يعطى هذا الأثر ذاته⁽²⁸⁾.

(26) Taylor, Richard: Understanding the Elements of Literature, Hong Kong (1981) pp. 118 - 120.

(27) المرجع السابق ص 123

(28) المرجع نفسه ص 123

ولا يغيب عن بالنا هنا ما يملكه الممثلون الكوميديون من مهارة فى تحريف المعنى فيما ينطقون به من سطور، أو إبطاله، أو قلبه قلباً كاملاً، عن طريق إتقانهم تقطيع الوجه أو تلعب الفم، أو أية حركة جسمية أخرى ذات مضمون اتصالى مختلف. ويعرف أهل التمثيل الصامت المحترفون كيف يحملون النظارة على الدمع أو الضحك، دون أن ينطقوا كلمة واحدة.

السلوكيات الحركية إذن قناة اتصال خطيرة، وهى - بلا شك - جزء مكمل للنشاط الاتصالي اليومي الذي يمارسه كل فرد.

(5) السلوك الحركي ووظائفه الخطائية :

فى عام 1927 لاحظ إدوارد ساير Edward Sapir القيمة الاتصالية النظامية التى تتمتع بها الحركة الجسمية قائلا: «إننا نستجيب للحركات الجسمية فى خفة وبقطة بالغة، وفقاً لشفرة محكمة الصنعة وسرية، مكتوبة فى أى مكان، ولا يعرفها أحد، ويفهمها الجميع»⁽²⁹⁾.

وفى عام 1968م لاحظ أبركرومى العلاقة بين النكلم والأعضاء الصوتية من ناحية، والتخاطب والحركة الجسمية من ناحية أخرى؛ يقول: «إننا نتكلم بأعضائنا الصوتية، ولكننا نتخاطب بأجسامنا؛ فالخطاب يتكون من أكثر بكثير من المبادلة البسيطة لألفاظ منظوقة»⁽³⁰⁾.

وفى عام 1970م استخدم بيردويستل Birdwhistell كلام ساير نقطة انطلاق أساسية لعمله عن فهم السلوك الحركي Kinesics من خلال السياق. وكانت فرضية الجوهرية هى أن هناك مجموعة من السلوكيات الحركية الجسمية الضرورية التى ترتبط بالبنية اللغوية ارتباطاً مباشراً.

(29) Gosling, John: Kinesics in Discourse, in: Malcolm Coulthard and Martin Montgomery (eds.): Studies in Discourse Analysis, Routledge, London and New York. (1981) pp. 158 - 159, p. 166.

(30) المرجع السابق ص 158.

وكان ليردويستل سبق إلى تطوير منهجية علمية لدراسة مظاهر الحركة الحسية في السلوك الاتصالي الإنساني ووصفها عن طريق الوحدات التي توازي الوحدات المستخدمة في التحليل اللغوي، متأثراً في ذلك بعلم اللغة البنيوي. وتعرف إحدى هذه الوحدات، وهي الوحدة الحركية Kineme (قياساً على الوحدة الصوتية Phoneme)، تعرف بأنها الوحدة التقابلية المميزة الصغرى للحركة الجسمية. ويطلق على تنوع الوحدة الحركية اسم allokine (قياساً على تنوعات الوحدة الصوتية الواحدة allophone).

وتقع الوحدات الحركية Kinemes في ضمام، وتقع هذه الضمام - بدورها - في أبنية أوسع. على سبيل المثال، فإن إغلاق جفن العين وإعادة فتحه سريعاً، يمكن أن تكون لهما أهمية من الناحية الاتصالية، إذا لم تكن هذه الحركات اضطرارية. ويمكن لمعى هذه الغمزة أو الإغماضة أن يمتد من المكايدة إلى التواطز على شرط. أما العملية ذاتها، فتعد وحدة حركية. وأما ضميعة الإغماضات أو الغمزات - مع رفع حاجب العين وزاوية الفم - فإنها تنتج صبغة حركية تخص الوجه. لقد برهن ليردويستل على أن السلوك الاتصالي البصري ينتج خواص شكلية formal properties مطابقة - على الأقل - لتلك الخواص القابلة للوصف في السلوك السمعي⁽³¹⁾.

إن الخلاصة التجريبية، هي أن العناصر السلوكية الحركية Kinesic elements تظهر في مجاريها التفاعلية مصاحبة لمجرى الكلام أو مستقلة عنه استقلالاً ظاهراً: «إننا نعرف بعض الأشياء عن هيئة الجمل المنطوقة وعن هيئة السلاسل الحركية المكونة نكريباً معقداً. ولكننا شرعنا فقط في تأمل هيئة القوالب التبليغية. من المؤكد أن كل شيء نعرفه عن المنطوقات والأحاديث، يدل على أن السلوك الاتصالي سلوك منشعب

(31) Birdwhistell, Ray, L.: A Kinesic linguistic Exercise: The Cigarette Scene, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds.): Directions in Sociolinguistics, Basil Blackwell, Oxford (1989) pp. 381 - 409, p. 385.

فى الزمن، ولكن الأعراف المختصة بالمشاهدة أو الملاحظة تحجب كثيراً من حركية هذه العملية من الناحية التحليلية»⁽³²⁾.

وبالرغم من أن المنهج الكلى والسياقى للاتصال الذى دافع عنه بيردويستل قد صار مقبولا على نحو مطرد، فإن المدى الذى يمكن أن تحلل فيه اللغة الجسمية فى حدود وحداته يظل مثيرا للجدل، ومن أسباب ذلك أن التسجيل المفصل الذى عينه معقد ويستفد الرقت⁽³³⁾.

من ناحية أخرى، فإن نموذج بيردويستل اللغوى لا يبدو - كما يقول جوسلينج - مفصلا إلى مستويات لغوية شكلية، تقترن - بأغناء متنوعة - بتحقيق وظائف خطابية. وهذا هو العيب الجوهرى⁽³⁴⁾.

ولكن يبقى لمنهج بيردويستل فضل التنبيه - على نحو علمى عملى - إلى القيمة الاتصالية للسلوك الحركى بعامه، فضلاً عن أهمية دراساته فى البرهنة على أن علامات الباراكينيات Parakinesic Signals عبارة عن ناتجات إحالية لقنوات تفاعل أخرى. وهذه العلامات الإحالية تقوى الأبينة الشكلية الأخرى وتؤكددها وتكيفها. كذلك، فإن هذه العلامات تضع تقارير مفيدة عن السياق الموقفى للرسالة، مما يساعد فى التعريف بسياق التفاعل Context of interaction، بالتحقق من الفاعل Octor أو جماعة المستمعين Owdience، وفضلاً عن ذلك، فإن تلك العلامات توصل معلومات عن السياق الأكبر الذى يقع فيه التفاعل.

وإذا كان بيردويستل قد علق عمله على المعنى، فإن ذلك يعزز المنهج الذى أخذ به - بعد ذلك - جون جوسلينج، وهو تحليل السلوك الحركى فى ضوء وظائفه الخطابية.

لقد لرحظ فى بحث الفاعلية الحركية عند بيردويستل - بما تكونه من نظام

(32) راجع : Gosling, John : Kinesics, ibid, p. 167

(33) Salzman, P. 216

(34) Gosling, ibid, p. 166

اتصال نحى - أنها تفتقد التنظيم الصريح القاطع المنهجي، وأنها تفرق الباحث بقطع وطبقات سلوكية جمة.

من هنا كان تركيز جوسلنج على فحص العناصر الحركية التي تبدو ذات وظائف خطابية functional - discourse.

قدم جون جوسلنج فى بحثه (السلوك الحركى فى الخطاب 1981م) تأملاً نظرياً لهذا السلوك معتمداً اعتماداً دقيقاً على معلومات محللة، وهى معلومات فعالة فى عمل فرضياتها. وينطلق جوسلنج فى بحثه هذا من وجوب تأمل السلوك الحركى باعتباره جانباً ضرورياً ومكملاً للتحليل اللغوى لخطاب المواجهة - Face - to - face discourse. والسلوك الحركى عند جوسلنج مفهوم يقصد به ما يغطى جوانب بعضها من السلوك الاتصالي غير الصوتى بين المشاركين فى الخطاب⁽³⁵⁾.

يبين جوسلنج أن نموذج الخطاب الأصيل الذى قدمه سنكلير Sinclair وكالثراد Coulthard فى عام 1975م قد اعتمد على مبدأ غير بنائى للموقف، ورأى أن هذا المبدأ قد قدم صعوبات نظرية أساسية لتطويره واستعماله فى مجالات التفاعل اللغوى، حيثما تكون القيود الموقفية أشد تعقيداً وأقل وضوحاً لمعالها من تلك القيود التى تعرفها المواقف الكلامية المختارة من قبل؛ كالتدريس الصفى، والمقابلات الإذاعية، والاستشارات الطبية.

من هنا، كانت الحاجة إلى أن يكون تحليل الخطاب مدعماً بشيء من وصف المعرفة المناسبة وصفاً منظماً، وهى - غالباً - معرفة ضمنية بما وراء اللغة، ينتفع بها المشاركون بما هى الأساس السياقى لتفاعلاتهم اللغوية اليومية⁽³⁶⁾.

وبناء على تعريف جوفمان Goffman (1964م) الموقف الاجتماعى بأنه: «الوسط الذى يشهد إمكانات الإعلام أو التنبيه المتبادلة»، وبناء على فكرة هايمس عن الكفاءة التوصيلية، فقد انتهى جوسلنج إلى أن هناك - فى كل موقف - أعرافاً

(35) Gosling, p. 158.

(36) المرجع السابق ص 158

لغوية اجتماعية أو «قوانين استعمال» بتوقع أن يخضع لها المشاركون. من ثم، فإن اختيار الوظيفة الخطابية على نحو محدد، ينبغي له أن يكون مقبولاً في سياق بعينه، بينما لا يكون كذلك في سياق آخر، حتى بين المشاركين أنفسهم. ومن الأمثلة على ذلك الاختيارات الخطابية التي يتخذها معلم وطالب من مناقشتهم مقالاً، مقارنة بالاختيارات التي يتخذها هذان الشخصان ذاتهما، عندما يشتركان في تحصيل دورة عملية في الفصل مع دارسين حاضرين.

من ناحية أخرى، يؤكد جوسلنج أنه لا ضرورة لأن تنأى عن السلوك التوصيلي الملحوظ مباشرة بغية حل إشكالية الموقف في علاقتها بنظرية أعم للخطاب. ومهما يكن من أمر، فإن النظر إلى التغيرات اللغوية المتاحة للمتكلم؛ أي إلى العناصر التي يتقن منها في تشكيل خطابه في تفاعل مباشر أو في تفاعل قائم على المواجهة، يبين لنا أن هناك منطقة هامة لم تلق إلا عناية ضئيلة بالطرق المناسبة للإقدام على تحليل خطابي، وهي منطقة الاتصال غير الصوتي non-vocal communication. وهذه المنطقة يعوزها - كما يقول جوسلنج - منهج مبنى على أسس، وبدون هذا المنهج المبنى على أسس للتعامل مع دور السلوك الحركي في الخطاب، سوف تصح أي محاولة للوصف والتحليل الكاملين للمعطيات اللغوية الهامة في تفاعل المواجهة، محاولة ينقصها عدد من الاعتبارات الهامة، لا سيما في الخطاب متعدد الأطراف، حيثما تكون حقوق التكلم المشترك واسعة⁽³⁷⁾.

إن وصف الواقعة الكلامية ينسج لجميع النواتج الهامة توصيلياً في تفاعل المواجهة، وهو وصف يتضمن التعامل مع الفونولوجيا، والوحدات المعجمية، والنحو، والسلوك الحركي، بما هي جميعاً تحقيقات شكلية لأنواع المتنوعة من الوظائف التفاعلية التي يعدّها بها الخطاب مكوناً أعظم⁽³⁸⁾.

(37) المرجع السابق ص 158 - 159

(38) المرجع نفسه ص 160

أما المعطيات التي بنى عليها بحث جوسلنج، فكانت عدداً من المناقشات في حلقة بحث مسجلة بالفيديو. وقد جعل جوسلنج محاولته في تحليل المادة، في حدود النموذج الذي قدمه كل من سينكلير وكالثارد (1975م)⁽³⁹⁾. وفيما يلي نجمل أهم المحاور والنتائج التي ضمها هذا البحث:

(أولاً) تعد حلقات البحث وقائع اتصالية متعددة الأطراف، ويعطى في هذه الوقائع ثقل عظيم لعناصر التفاعل الصوتية. ولم يعول جوسلنج على هذا الشريط السمعي وحده في استقاء معلومات كافية لتحليل السلوك الاتصالي تحليلاً وظيفياً؛ فقد دون جوسلنج ملحوظاته في الوقت نفسه الذي أجرى فيه التسجيل. وإذا لم تتح لنا المعطيات البصرية Visual data، ستفقد قدراً عظيماً: من مخاطب الآخر، ومن يصفى عياناً إلى الآخر، وإلى أي درجة، وفي أي الموضوعات، وهل يحاول أحد الأشخاص الدخول في المناقشة. إن الإخبار عن الحالة أو السلوك، مما يمكن نقله أيضاً بوسائل غير صوتية non-vocal means، وعلى نحو ما تكون ردود الأفعال على المتكلمين، فإن الإيماءات مثال عظيم على ذلك أيضاً.

(ثانياً) يبدو الاتصال غير الصوتي على أهمية عظمى في مظاهر التفاعل بين الأشخاص، عندما لا تتاح القنوات الصوتية؛ لأنها مشغولة بالفعل. ويرتبط المظهر البارز من وظيفة الخطاب، المتحقق على نحو غير صرطي، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأخذ الدور turn taking وبتعيين المتكلم speaker – nomination.

(ثالثاً) تظهر أنواع الوظيفة التفاعلية المتحققة بوساطة السلوك الاتصالي غير الصوتي، تظهر ارتباطاً مشتركاً بالفونولوجيا أقوى من ارتباطها بالمستويين الشكليين الآخرين: النحو grammar، والدوال المعجمية lexis.

Sinclair, J. Mc. H., and Coulthard, R.,

(39) وذلك في كتابهما:

M.: Towards an Analysis of Discourse, Oxford uni. Press, London (1975).

(رابعاً) يمكن أن تنقسم المنطقة غير اللفظية إلى منطقة صوتية ومنطقة غير صوتية. ويصعب رسم الخط الفاصل بينهما، لا سيما من وجهة النظر الفسيولوجية، وذلك أن المقطع المتور نبراً عالياً - على سبيل المثال - سيكون مصحوباً بشد عضلي يرافقه في مناطق أخرى. ومن المفيد - من الناحية الوصفية - أن نميز بين السلوك الذى يختص اختصاصاً مباشراً بالتصويت phonation وبين السلوك الذى لا يختص به. ونسمى الأول بالصوتى vocal، بينما نسمى الآخر بغير الصوتى non-vocal. وتبدو هنا علاقة مباشرة بين السلوك غير الصوتى والتنغيم أقوى من العلاقة بين هذا السلوك وبين المستويات الأخرى كالنحو، والدوال المعجمية. إن كلا من التنغيم والسلوك غير الصوتى أشد ربطاً لوجهة نظر المشارك بـ «الغير» في حدود توجه الخطاب discourse orientation (أى انتقاء النغمات الدلالية أو الإبلاغية)، واستخدامه النغمة للدلالة - إلى جانب أشياء أخرى - على درجة التعاكس أو درجة التوازن contrastive - or - equativeness، والدلالة على إمكانية استمرار المنطوق أو توقفه.

(خامساً) يبدو أن هناك جسراً بين بعض مظاهر السلوك غير الصوتى وبين التنغيم، وهو ما بينه كيندون Kendon (1972م) حين ذكر أن ممثلاً للحكومة كان ينقر بإصبعه على المنضدة فى إيقاع ثابت مستريح، ثم يشرع فى الكلام بعد حوالى عشر ثوان. وقد لوحظ فى هذه المجموعة النغمية الأولى أن المقطع النغمى يتوافق مع نقر الإصبع⁽⁴⁰⁾.

وهناك أعمال تبين أن إيقاعية منطوق بعينه تدعم بحركة تزامنه⁽⁴¹⁾. ولا نجد وجهاً لتشكك جوسلنج فى أن موضع هذه الحركة من النغمة هو الذى يجعل تلك

(40) المرجع السابق ص 161 - 162

(41) راجع مثلاً :

Ekman, P., and Friesen, W.V.: Hand Movements, in: Journal of Communication, 22 (1972) pp. 353 - 374.

المقاطع تبين ما فيها من بروز رئيسي⁽⁴²⁾، وذلك أن البروز النغمي أدواته غير الصوتية هي - إذ ذاك - الحركة، والحركة ردفه في الزمن.

(سادساً) من الثابت أن السلوك غير الصوتي هام جداً في توصيل المعنى بأنواعه المختلفة بين الناس. وفي الخطاب متعدد الأطراف - لا سيما حال مقدرة المتكلمين على أن يخاطبوا بأنفسهم أى مشارك أو مشاركين - يثين لنا من تأمل اقتفاء الأثر الصوتي وحده أن أى محاولة لتأسيس العلاقة بين المرسل والمستقبل، ستكون عديدة الحدودى إذا لم يرجع فيها إلى الإشارات أو التلميحات البصرية Visual Cues. ويتضمن هذا - فى ذاته - تبريراً أو تأييداً للإقدام على علم السلوك الحركى الخطابى discourse kinesics فى مثل تلك المواقف الكلامية التى تصنع - بالطبع - غالبية التفاعلات التخاطبية الإنسانية.

(سابعاً) كان هاليداي قد اقترح إطاراً عاماً للمستويات، صممه لبيان التنظيم الداخلى للنص المنطوق والمكتوب. وتحقق الوظائف الخطابية على ثلاث مستويات شكلية هي: النحو، والدوال المعجمية، والاختيارات التنغيمية. وقد نظر إلى الفونولوجيا على أنها مستوى يبنى، يربط المادة الصوتية بالصيغة. ومعروف أن النص ينطلق من كونه مبدأً لفظياً بالضرورة. وإذا استوعبنا التفاعلية الإنسانية على أنها مكون النص، أو استوعبنا وظيفة الخطاب - بخاصة - على أنها عنصر بارز أو ملح فى مبادلة المعانى بين المشاركين فى تفاعل المواجهة، فإن حالة من التوسع فيما يضمنه مستوى الصيغة العام، سوف تحصل إذ ذاك. سنظل نقطع بأن الصيغة تشخص بوساطة النماذج اللغوية المتكررة التى تحقق - بأنحاء متنوعة - وظائف لغوية.

وبناء على هذا الأساس الذى وضعه هاليداي لمقولات نظرية نحوية، يبدو معقولاً - فى نظر جوسلينج - توسيع مستويات الصيغة، من أجل احتواء كل المناطق التى تحقق - على نحو منتظم - وظيفة خطابية. ويقترح جوسلينج أن يكون المستوى

(42) Gosling, P. 162.

الجديد المبكر مدعوا باسم «علم السلوك الحركى» الذى يضم كل الحركات الجسمية الدالة أو مترالبات الحركات الجسمية التى تحقق وظائف تفاعلية فى المواقف الانصالية القائمة على المواجهة face - to - face communicative situations⁽⁴³⁾ ينظر هنا إذن إلى السلوك الحركى على أنه مستوى من مستويات الصيغة اللغوية ذاتها. (ثامناً) وقد سعى جوسلنج إلى محاولة وصف بعض الوظائف التفاعلية العامة لهذا المستوى الحركى الجديد، باعتبار ما يقدمه من إخبار نافع عن مشاركة المشاركين، أو حالات اللعب states of play فى نقاط بعينها من الواقعة الكلامية. ومن أهم استعمالات الحركة الجسمية خطائياً وتفاعلياً ما يلى:

أ- تقدم الحركة الجسمية بديلاً غير صوتى للوظيفة الخطائية؛ إذ نجعل إيماءة بهز الرأس علامة على المرافقة، كأنها كلمة نعم، وهى تستخدم - إذ ذاك - كأنها عبارة عن تقييد بوعده.

ب- وربما كان من الأفضل أن ننظر إلى السلوك الحركى على أنه يساعد فى ربط الوظائف الخطائية - بطرق مختلفة - بخصائص الموقف الخارجة عن النص، إذ ننظر إلى الموقف هنا على أنه العلاقات الديناميكية الدائرة بين المشاركين.

ج- كذلك، فإن دراسة السلوك الحركى تميظ اللثام عن عدد من الوظائف التى لا تتحقق هويتها بين غيرها من الوظائف التى تتبدى على المستويات الشكلية الأخرى. وربما دل السلوك غير الصوتى لجماعة المستمعين على هذا المعنى: إنه دورك (أى كف عن الكلام).

د- يشير السلوك التفاعلى غير الصوتى إلى تقويم المتكلم - لحظة لحظة - حالة التقارب أو الاتجاه إلى نقطة واحدة فى زمان التكلم ومكانه.

هـ- إن تأسيس علم السلوك الحركى على أنه مستوى شكلى مستقل، يعد شيئاً هاماً، باعتباره أداة تفسيرية، تقف إلى جانب الاعتبارات النظرية الأخرى تماماً.

(43) المرجع السابق ص 162 - 163.

و- فى اى خطاب، يمكن أن تشخص نقاط التكملة أو التكملة المحتملة فى المنطوق Utterance أو فى الدورة turn بواسطة التكملات على مستويات شكلية متنوعة، ويعد السلوك الحركى أحد هذه المستويات. ومن الأمثلة على ذلك، أن المرء - فى إنهاء الدورة على نحو حاسم حقاً - يتوقع فاصلاً جلياً، ليس أكثر من إطالة الوقت بمركبات جملية متعلقة أو مترابطة. وقد يحدث ذلك عن طريق النهاية المنخفضة، أو عن طريق النظرة غير المركزة unfocused gaze (وقد تكون متبوعة بتعيين عيني eye nomination، ولكن هذا يشفر على أنه مادة تابعة)، أو عن طريق ثنى الأيدي، أو عن طريق الإعلان عن النهاية بحال من السكوت. وربما كانت هذه الفواصل فى حلقة بحث بين المتكلمين متبوعة بصمت، قبل أن يتكلم متكلم جديد، وربما كان هناك - قبل ذلك - شئ من السلوك غير الصوتى. وهذا شبيه بعلم الأسلوب، حيث نجد فى الشعر توافقاً لطيفاً بين الوحدات الفونولوجية كالبيت الشعرى أو السطر، وبين الوحدات النحوية كالجملية أو العبارة.

ز- ومن الأسباب الأخرى لجعل السلوك الحركى مستوى شكلياً من مستويات تحقيق الوظيفة الخطابية، أنه يبدو ممكناً استعمال السلوك غير الصوتى للإبقاء على دورة التكلم (أى مواصلة حقوق التكلم)، بالرغم من أن الدورة - فى حدود التحقيقات على مستويات أخرى - يمكن لها أن تكون قد وصلت بالفعل إلى نهايتها. إن وضع المشاركين وحقوقهم التالية فى الكلام أو فى المقاطعة، تبدو هنا أيضاً حقوقاً مشتركة، ولكن يتوقع أن كثيراً من تلك الحقوق مما يمكن شرحه وتوضيحه فى حدود السلوك الحركى. بعبارة أخرى: يتعرف الناس على علامات الغلبة الحركية Kinesic signals of dominance من الآخرين، باعتبار ذلك جانباً من جوانب تنشئتهم الاجتماعية وتعلمهم، مع أشياء أخرى.

ح- على أية حال، فليست هناك علاقة ضرورية بين المستوى اللغوي من المادة الإدراكية الواردة The linguistic level of a perceived input item ووضعها في تدرج من الوحدات من ناحية، وبين هذا المستوى ووضع الاستجابة الصادرة المناظرة المناسبة من ناحية أخرى. على سبيل المثال، فإن رفع حاجبي العينين إلى أعلى، ونظر المستمع نظرة تصميم وعزم، ينبغي لهما أن يحملتا المتكلم الذي يشاهده على اختيار مراده المعجمية التالية في عناية أشد مما كان سابقاً، لا سيما إذا كانت علاقات الحالة Status relations لمصلحة المستمع.

ط- وإذا افترضنا - عودة إلى مسألة أخذ الدور - أن نقطة التكملة المحتملة قد وصلت إلى نهايتها في الخطاب، فإننا نجد عند هذه النقطة - من الناحية النظرية - إمكانيات عدة: يمكن للمتكلم آخر أن يأخذ دوراً بعد وقت ما، وقد تكون هناك وقفة مريكة. ويمكن للمتكلم الأصلي أن يواصل كلامه، وقد يشند الصمت كأنه الحجر القاسي (تعد الثواني الثلاث - في الواقع - وقتاً طويلاً جداً). وربما سبقت الوقفة أو علمت بالهمة البسيطة: م م، أو بإيماءات بهز الرأس nods.

ي- يلزم - مع مسألة أخذ الدور - أن ننظر إلى السلوك الحركي على أنه مستوى شكلي له مكانته الخاصة. ومما يلاحظ هنا أن المتكلم - مع نهاية دورته أو عند اقتراب هذه النهاية - يشغل بتأسيس اتصال بصري eye - contact مع عضو آخر من المجموعة، ويقع هذا الشخص - من ثم - تحت ضغط مؤثر، أن يشرع في كلامه بعد الأول. ولتنزلة المتكلم الأول ضغطها الأشد على هذا الشخص. إن استخدام الاتصال البصري في التأثير في اختيار المتكلم التالي، مما يبدو سمة مميزة عامة من سمات التفاعل اللغوي وجهاً لوجه في الحضارة الغربية (والعربية أيضاً). إن تجنب المرء الاتصال البصري، يعني أن ليس عنده ما يلزمه بالكلام. ويعد

الاتصال البصرى (أو التعمين البصرى) وسيلة تكتيكية تنال اهتماماً عظيماً من المعلمين مع طلابهم.

وقد يرغم المرء فى الاتصال البصرى على الاستعانة بالقناة اللفظية. وبعد الاتصال البصرى - فى مثل هذا الموقف - وسيلة غير ناطقة أو عجماء - brutal device، ويحتاج إلى تخفيف أو تلطيف لفظى لاحق - Subsequent verbal mitigation، وهو يبين أن هناك علاقة من نوع ما بين المستويات المختلفة. إن المشاركين يودون الكلام فى نشاط وإيجابية ناشدين اتصالاً بصرياً، وموجهين نظرتهم - بناء على ذلك - إلى المتكلم الذى يمتلك الخبرة فى تحقيقه⁽⁴⁴⁾.

ك - وتعامل البحوث عن «حركية المجموعة Group dynamics» مع الأوضاع النسبية لأجسام المشاركين ومواقعهم. ويلاحظ أن الموقع Position يؤثر فى إنتاج حركات جسمية بعينها؛ فالمشارك يدير رأسه عندما يلتفت إلى مخاطبه. وتعتمد هذه الاستدارة على المواقع النسبية لكلا المشاركين. وتعد المسافة بينهما هامة أيضاً من الناحية الحركية الجسمية. ومن الطريف أن من يمتلك حقاً أكبر فى الكلام - سواء فى التعليم الصفى التقليدى أو فى حوارات المحاضرات العلمية - يحظى أيضاً بحرية موقعية أكبر، إذ يمكنه أن يقف وأن يتكلم حولهم، مما قد يؤدي إلى انتشار الحركات الجسمية وتوزعها.

وعندما يدخل شخصان أو أكثر فى تفاعل اتصالى، فإن شرائحهما التفاعلية تتداخل، ومن ثم يتجان - فى آن واحد - «صيغة مواجهة» تعرض ظروف تبدل المنطوق؛ كالتلميحات والحركات الجسمية التى تتكون منها الخطابات.

وكان عمل كيندون Kendon قد كشف - فى وضوح - عن توازيات بين نظام بعض مظاهر السلوك غير الصرئى التى تبدو وظيفية خطائياً وبين العمل المتحقق فى الخطاب، لاسيما على مستوى المبادلة exchange والتعامل transaction. إن

(44) المرجع السابق ص 163 - 166.

التحية البسيطة الروتينية، تؤدي - فى أى مكان للعمل - بتبادلية النظرة، بالإضافة إلى الحواجب المنخفضة، فإذا حل أحد المشاركين حواجه، فعل المشارك الآخر الشيء نفسه. وهذا مما يمكن أن يتظر إليه على أنه مبادلة حركية Kinesic exchange. وإن أمكن أن نجعله حقاً مبادلة أولية تعاملية. ويمكن لنا أيضاً أن نجعله موازياً تماماً لتحقيقات المستويات الصوتية. إذا أنتج أحد المشاركين الإخبارية Hi - فى نغمة متوسطة - فعل الآخر مثل فعله.

ومن محددات المبادلة الحركية، تعيين المتفاعلين الموقف، ودرجة التزامهم، وغو ذلك من المحددات التى تؤثر فى اختيارهم التحقيق على المستوى الحركى. من هنا، فإن التمييز بين الوظيفة التفاعلية العامة والوظيفة الخطابية المحددة، يعد تمييزاً مفيداً؛ فالنتيجة تظل تحية خطايا، حتى بالرغم من إمكان اختلاطها بالتحقيقات التى تمنع من عوامل أخرى؛ كالوضع التأثيرى affective state الذى يعد هاماً فى حدود التفاعل⁽⁴⁵⁾.

ل- ويتضمن مشروع علم السلوك الحركى الخطابى discourse Kinesics عزل السلوكيات غير الصوتية ووصفها، تلك السلوكيات المتنوعة التى تحقق - على نحو منتظم - وظائف تفاعلية، لا سيما الوظائف الخطابية منها. وبناء على ذلك، فإن البحث عن المواد الحركية الجسمية الدالة بحثاً مباشراً وفى حد ذاته، لا يعد منجهاً مفيداً؛ وذلك أنه لا يقيد فى تأمل أهمية وقوع هذا السلوك غير الصوتى الذى تدعمه وتبينه الموضوعات والقضايا المصوغة لفظياً - verbalized propositions. والأحرى أن ننظر إلى السلوك الحركى فى حدود عدد كاف من الاختيارات بين المواد المحققة لوظيفة خطابية، والتى يملئ مكانها من النظام دورها الاتصالى.

م- وهناك معطيات أخرى نقدمها تحليلات جوسلنج، تتضمن أموراً هامة للوظيفة التفاعلية، وإن لم يكن لها - بالضرورة - وظيفة خطابية. تعرض هذه المعطيات

(45) المرجع السابق ص 168 - 169

أنواعاً من التغير المرتبط بالجلسة، أو الوقفة أو الوضع الجسمي الخاص، أو التغير المرتبط بالحركة الجسمية. وتنتج هذه التغيرات من سلوك المشاركين في آن معاً في مواضع بعينها من المحادثة. ومن الأمثلة على ما سبق: تقطيب الوجه الذي يستخدم - فيما هو شائع بين الناس - للإشارة إلى اختلاف أو نزاع محتملين مع ما قيل للتو (أو مع ما فعل للتو). ويحقق التغير الوضعي والتغير الحركي الجسمي وظائف تفاعلية، فتشابه المشاركين في هذه التغيرات، يوحى بالتماسك أو التضامن في اعتراضهم أو قبولهم ما سمعوه لثرتهم. ومن المعمول به - مثلاً - في نظام المؤسسات إظهار الأيدي عند أخذ الأصوات في جلسة بعينها. ولهذا التمييز بين الموافقة والمعارضة - في المجال غير الصوتي - توافقيات مع مبادئ أخرى من علم اللغة؛ ومن ذلك عمل جيلس Giles عن التقارب النبري والتباعد النبري - accent convergence/divergence، ومنه أيضاً نموذج بورتون Burton عن المحادثة العرضية أو المفاجئة (casual conversation)⁽⁴⁶⁾.

وغنى عن البيان أن المشاركين يختارون بين دورين اثنين ممكنين: دور التكلم أو دور غير التكلم. وبالنظر إلى فحص كيفية ممارسة هذين الدورين من الناحية السلوكية الحركية، نلاحظ أن السلوك الحركي - بطبيعته المؤكدة emphatic - يمكن المرء من الاتصال دون تكلم، ولهذا دلالاته الهامة على بحثه بحثاً منظماً. إن السلوك الحركي المرتبط بالكلام، يصبح ذا وظيفة خطابية عندما يحقق تبادلية بين المشاركين في نقطة ما. وبما يبدو هاماً ودالاً على وظيفة خطابية متحققة على المستوى السلوكي الحركي: تغير الهيئة أو الوضع الجسمي Postural change. فهذا الوضع يدل على استقبال المرء قطعة من الخطاب، ويشير إلى رغبة أحدهم في تغيير التكلم مثلاً.

(46) راجع

Burton, D. : Towards an Analysis of Casual Conversation, Nottingham linguistic circular, 17,2, (1978) PP. 137 - 159.

ويستطيع غير المتكلم - أثناء دورة بعينها - أن يغير وضعه الجسمي و نظره ناحية المتكلم تغييراً فجائياً تماماً. ولهذا التغيير علاقته بدرجة انشغاله بالموضوع الذي بدور حوله الحديث للتو. ويمكن أن يعد هذا مكوناً من مكونات الوظيفة الخطائية، وهي هنا - على وجه التحديد - : الرغبة في التكلم أو طلب الدور a turn claim. وبالإضافة إلى الإسهامات الممكنة في الوظيفة الخطائية التي يقدمها تغيير الوضع الجسمي، فإن الوضع الرئيس ذاته يؤثر أيضاً في تحقيق حركات جسمية أخرى هامة خطابياً؛ وذلك أن الطريقة التي يستخدم بها المتكلم ذراعيه ويديه - على سبيل المثال - تبدو متأثرة بدوره في الوضع الجسمي الكلي.

وفي حدود الوضع الجسمي الرئيس - في علاقته بدور المتكلم - يبدو لنا أن الحركات الجسمية الأولية التي ترتبط بـ «دورة التكلم» هي وضع الجسم نصف قائم، مع رأس منخفضة في البداية، متجهة ناحية المتكلم السابق.

ن- إذا عدنا إلى النظرة والاتصال البصري، وجدنا أنفسنا في أوسع أقاليم السلوك الحركي. نلاحظ هنا أن المتكلم النمطي يميل إلى بدء دورته نتيجة تبادلية النظرة مع المتكلم السابق. وينظر ذلك المتكلم - بعد هذا - بعيداً، ثم يوزع نظره على المجموعة، مركزاً - دون إطالة - على الأعضاء المنفردين، وينظر - من حين إلى آخر - إلى أسفل، أو ينظر متفرساً المكان دون تركيز. ويعتقد أن الوظيفة الخطائية الإضافية لما سبق، هي الالتماس الارتدادى أو الارتجاعى feedback request، الذى يتحقق عن طريق معاودة النظرة التنبهية المترددة. ويبدو أن مثل هذا السلوك سلوك يميز النقاش الديمقراطي. ويمكن له أيضاً أن يرتبط بالرغبة في مواصلة حقوق التكلم: فإذا نشأ الاتصال البصري مع متكلم بعينه، فإنه ينبغى - إذ ذاك - أن يحدث تغيير في المتكلم. ويمكن لتلقى النظرة أيضاً أن يربط نفسه بأفكار المتكلم، أو بمضمون المتكلم Speaker's content. وقد لاحظ جوسلنج أيضاً أن الكلام الموجه إلى عضو واحد، يتميز بثبات اتجاه النظرة ثباتاً أشد. ويبدو هذا النوع من الاتجاه المركز للنظرة مرتبطاً بنوع بعينه من السلوك

الاعتراضى الذى يقدم كذلك درجة أعلى من التركيز Concentration والشد
المضلى Muscular tension (47).

ومن الأشياء الأشد نمطية فى المادة التى اعتمد عليها جوسلنج الميل العام عند
المتكلمين - عند نهايات الدورات - إلى محاولة تعيين شخص أو أكثر تعييناً بصرياً.
وبلاحظ - عند تعيين أكثر من شخص - أن حقوق التكلم تصبح عند المتكلم أكثر
انفتاحاً من ذى قبل. ويمكن أن يظل التعيين البصرى ممثداً حتى يوجد المتكلم التالى
المحتمل (48).

س- ويمكن البرهنة - إلى حد ما - على أن السلوك الحركى، أو القدر العظيم من
الحركة الجسمية Body movement، إنما يكون - بوجه عام - لخدمة النظرة
أو الاتصال البصرى. إن المرء لا يستطيع أن يقيم اتصالاً بصرياً، دون النظرة فى
اتجاه الآخر. ولا يمكن لهذه النظرة - بدورها - أن تقع دون حركة الرأس، وربما
اقتضت تغيير الرضع الجسمى كله (49).

ع- ولما كان التوجيه السلوكى الحركى هاماً جداً لأخذ الدورة، فإنه يمكن أن نجعل هذا
السلوك بنية فوقية محتوية على فضلة، تستحق الاعتبار، لاسيما فى علاقتها
بمواضع تغيير التكلم المحتمل، من أجل إنتاج علامات سلوكية حركية مدركة
بالعين، لا لبس فيها، للمشاركين معاً فى خطاب Co-participants .
وبين لنا النظر الواسع إلى المحيط الأشمل للوقائع الكلامية Speech events
أن الشروع فى الكلام يستلزم مكوناً سلوكياً حركياً متقاطعاً معه.

لقد ثبت أن الوظائف الخطابية يمكن أن تتحقق بأى من المستويات الثلاثة:
النحو، والدوال المعجمية، والتنظيم. ويمكن أن يستخدم أحد هذه المستويات للاحتفاظ
بقوة الارتكاز على تنميط السلوك الحركى. على سبيل المثال، فإن تلك المستويات

(47) Gosling, ibid, PP. 172 - 174

(48) المرجع السابق ص 174

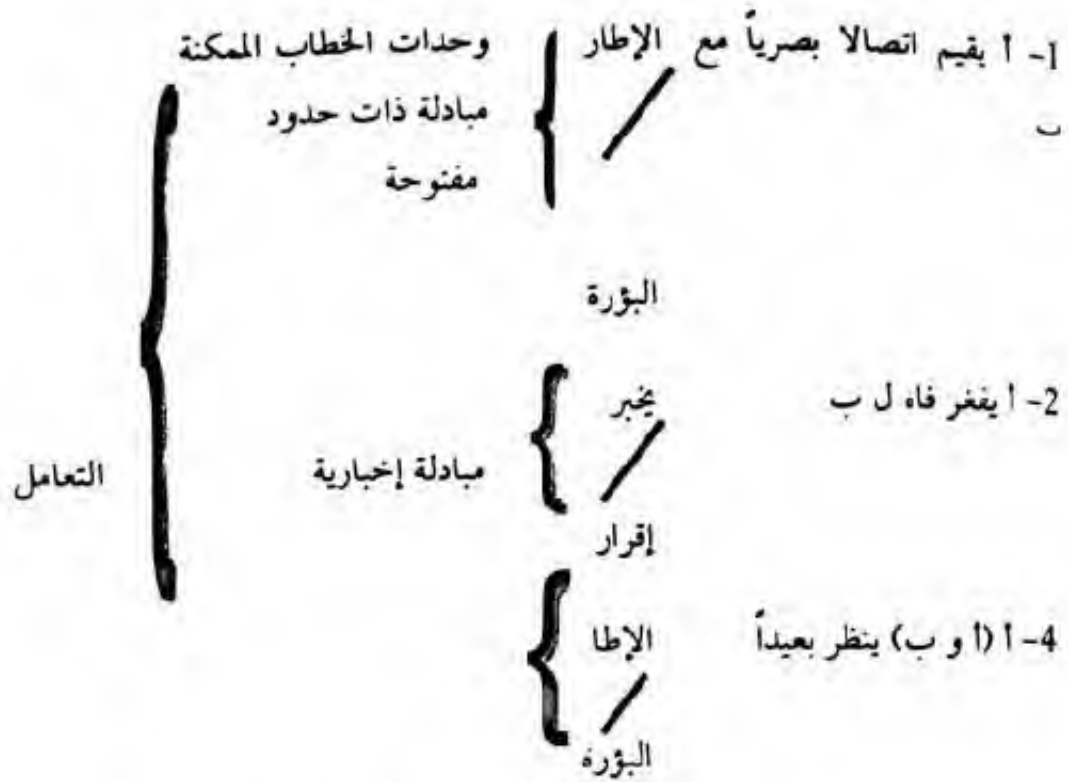
(49) المرجع السابق ص 182

الثلاثة، يمكن - على انفصال، وإن كانت متزامنة عادة - أن تحقق «نهاية الدورة»
وبدل الدليل بقوة على أن السلوك الحركي يلعب دوراً إضافياً وحيوياً في هذا الأمر،
لا سيما في التفاعل متعدد الأطراف⁽⁵⁰⁾.

ف- بالنظر إلى الوظائف اللغوية الكبرى التي سبق إلى تحديدها هاليداي - فيما
رأينا في الفصل الأول - وهي وظيفة الربط بين الأشخاص، والوظيفة الفكرية أو نقل
الأفكار، والوظيفة النصية، تبدو وظيفة الربط بين الأشخاص في تفاعل المواجهة ناتجة
حركياً Kinesically.

لقد رننى أن تحقيقات السلوك الحركي الموظف خطائياً، تنتج من حركات
جسمية دالة، وهي تتضمن - لكي تصبح فعالة - عنصراً من عناصر التبادلية
mutuality في نقطة ما، مثل الاتصال البصري. وقد نيت أن مثل هذه التبادلية عبارة
عن الحال الراهنة التي تصنعها بنية متجددة من حركة جسمية عنيفة إلى حركة جسمية
خفيفة عبر الوقت. مثل هذه الحال الراهنة المؤهلة تسمى باسم حال التشكيل الوجهي
Face in formation state. وفيما يلي مثال توضيحي على التعامل بالسلوك
الحركي في حلقة البحث بخاصة (انظر جدول رقم 7).

(50) المرجع السابق ص 183.



جدول رقم (7) (51)

إن تحليلات جوسلنج محاولة لوضع أسس عملية لبحث الوظائف الخطائية والتفاعلية المختلفة للسلوكيات الحركية. وما زالت حتى الآن أهم التحليلات في هذا المجال. وقد تميزت بالدقة والسهولة في آن معاً. وتثبت هذه التحليلات - على هذا النحو - أن السلوك الحركي ينبغي له أن يعد مستوى من المستويات الشكلية ذات المكانة الخاصة في عملية التفاعل الكلامي. من ناحية أخرى فقد أثبت جوسلنج أن هناك علاقة هامة بين المستويات في إنتاج الخطاب. فقد بين بالفعل أن المشاركين يتنجون غالباً استجابة سلوكية حركية سريعة جداً للشروع في الكلام، وليست المواد الصغرى للارتباط، كإيماءات الرأس، إلا استجابات سلوكية حركية متكررة للواردات السمعية بخاصة auditory inputs.

(51) المرجع السابق ص 184

وبالرغم من المعلومات والنتائج فائقة القدر التي أثمرتها تحليلات جوسلنج، فقد فانه التنويه بالعلاقة بين الاستخدام المتكرر للسلوك الحركي ومتزلة المشارك. ربما نلاحظه هنا أن مستويات التحقيق الشكلية الأخرى، تطغى على مستوى السلوك الحركي إذا كان المتكلم أدنى منزلة من السامع، أو إذا كانت العلاقات الاجتماعية الموجودة سلفاً *pre - existing social relations* بينهما ضعيفة. كذلك، فإن جوسلنج - في حديثه عن الاتصال البصري - لم يلتفت إلى أن اتجاهية النظرة من أشد السلوكيات الحركية تقيداً بالسلوك الكلامي؛ فنظر المتكلم إلى أحد المشاركين لا يعنى دائماً تعيينه متكلماً تالياً، إنما يعنى - في حالات غير قليلة - أن يلتبس عنده استجابة ما للكلام، وقد لا يعنى إلا شد انتباهه إلى ما يدل به من كلام.

ومن تحليلات جوسلنج ما كان يسمح بجمع الإشارات المتضادة والمتفرعة من أصل واحد، ونقصد بالتضاد هنا التضاد الاتجاهي، فإشارة إصبع الإبهام - مثلاً - إلى أعلى تعنى الفوز والغلبة، وقد تعنى الرضا والزهو بما تم، فإذا جعلت هذه الإشارة ذاتها إلى أسفل، دل الاتجاه - إذ ذاك - على العكس، بل قد يدل على الازدراء والاستهزاء.

كذلك، فإن تحليلات جوسلنج - ومادتها من حلقات بحث يتوقع معها أن يكون المشاركون من الجنسين - كانت تقدر أن تعبر انتباهها إلى التمايز الحركي بين الرجل والمرأة، وإلى ما يمكن أن نجعله من السلوكيات الحركية خاصاً بالمرأة، كالنظرة في طبقات معينة، أو ما نلاحظه من ضرب ظهر الكف اليسرى ببطن الكف اليمنى استغراباً، أو ضرب الصدر ببطن الكف اليمنى عادة تحسراً، أو ما شابه ذلك. وربما التمسنا له في ذلك عذراً لسبيين: أولهما: أنه ربما كانت طبيعة المادة المسجلة والملاحظة لا تسمح بمثل هذه الحركات، والآخر: أنه ربما كانت مثل هذه الحركات مما اختصت به العادات الكلامية في البيئة العربية.

الفصل الثالث

العبارة والإشارة وموقف التراث العربى

حدّ القدماء اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. وعرضوا لمقاييس الجودة فى الخطاب الأدبى من زاوية العلاقة بين اللفظ والمعنى وأبطلوا من كل وجه أن تكون الفصاحة وصفاً للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان. وأبانوا عن أمر النظم، وأنه ليس شيئاً غير تروخى معانى النحو فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعانى أولاً فى نفسك، ثم تحددو على ترسيبها الألفاظ فى بطقك، وأن الألفاظ لا تخلو من المعانى، فلو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعانى لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب ووقفوا على وجوه الخطاب والمخاطبات، وأن الكلام يخرج على ظاهره إلى أغراض أخرى فيما يدخل فى منطوق الكلام ومقصد المتكلم. ونظروا إلى العبارة، ووجدوا أن العبارة فى الكلام ذاته أكثر من الإشارة (بمفهومها اللفظى البلاغى)، وأن التصريح أغلب من التلويح. ولكنهم لاحظوا التعريض والإيماء إلى الغرض من وجه لا يفتن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر وميروا فى الكلام بين الاختصار المفهم والإطناب المفهم. وعرفوا وجوه الاتساع والتفنن من كناية ومجاز. وأحاطوا بأكثر من ذلك مما يدور حول مسائل المنطوق وقضاياها وظواهره، فهل اهتموا بالمحددات والعوامل الموقفية المختلفة التى تؤثر فى الاتصال اللفظى المنطوق؟ وهل أدركوا أن الاتصال ليس كله اتصالاً لفظياً، وأن هناك نوعاً آخر هو الاتصال غير اللفظى؟.

1- العوامل والمحددات الموقفية الاتصالية :

ندلنا آراء القدماء العلمية من ناحية، ورواياتهم عن السلوكيات الكلامية فى المواقف الاتصالية الفعلية من ناحية أخرى، على معرفتهم الكافية بطائفة من المحددات

الأساسية غير اللغوية للموقف الاتصالي اللغوي. ويمكننا أن نحصر أهم ما لاحظوه من محددات مرفقية فيما يلي:

أ- محدد الرؤية :

روى عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: «لا تكون بليغاً حتى تكلم أنتك السرداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادى قومك»⁽¹⁾. ويفهم من هذا ضمناً صعوبة الاتصال في الظلمة. والاتصال في الظلمة يعرض مهارة خاصة عند المتكلم. بعبارة أخرى، يفهم من النص احتياج المشاركين في الاتصال إلى رؤية أحدهما الآخر؛ لما في الرؤية من غناء عن بعض ما يلزم الاتصال، من سؤال عن رد الفعل ونحوه.

ويذكرنا هذا بما رواه ابن جنى (ت 392 هـ)، قال: «قال لي بعض مشايخنا - رحمه الله - أنا لا أحسن أن أكلم إنساناً في الظلمة»⁽²⁾. ولعل ربط إحسان التكلم بالضوء، أي بالرؤية، لأن المتكلم يرى في وجه سامعه أثر كلامه، ويتاح لأحدهما - آنذاك - أن يرى فاعلية إشارات الآخر وحركاته وتعبيراته، في توجيه مجرى الخطاب وسياسة الموقف الاتصالي على نحو أو آخر ■

ب- محدد النظر والإصغاء :

ومما يدخل في صميم الموقف الاتصالي اللفظي النظر إلى المتكلم والإصغاء إليه. وقد عرف العرب ذلك فيما رواه عن ابن عباس - رحمه الله - قال : «جليسى على ثلاث : أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغى إليه إذا حدث»⁽³⁾.

(1) الميرد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف - بيروت، د. ت، 1/246.

(2) ابن جنى (أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت د. ت، 1/247.

(3) الكامل 1/102 - 103.

يقلب عينيه، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته. وكان يقول: «ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره»، حتى كلمه إبراهيم بن سيار النظام عند أبوب بن جعفر، فاضطره بالحجة، وبالإضافة في المسألة، حتى حرك يديه وحل حبوته وجأ إليه حتى أخذ يديه⁽⁶⁾.

وتبدر سمة مستحسنة ما تضمنته رواية الجاحظ عن ثمامة بن أشرس، قال الجاحظ: «وكان لفظه في وزن إشارته»⁽⁷⁾.

هـ- محدد العرف والعادة :

ومن نظرهم في الاتصال اللفظي الفعلي إلى حال السامع، ما يجعلونه في الكلام من حذف استخفافاً؛ لعلم السامع بما يريد القائل، وهذا من أهم ما يميز الشفرة المنطوقة في قناة الاتصال اللفظي؛ كقولك: «الهلل والله، أى هذا الهلال». وأغنى عن قوله (هذا) القصد والإشارة. وكان يقال لرؤية: كيف أصبحت؟ فيقول: خير عافاك الله (بكسر الراء)، فلم يضم حرف الخفض، ولكنه حذف بكثرة الاستعمال⁽⁸⁾.

وكان ابن جنى (ت 392 هـ) يفسر حذف الباء في كلام رؤية السابق بدلالة الحال عليها بجرى العادة والعرف بها⁽⁹⁾. والعادة والعرف من العوامل الاتصالية التداولية غير اللغوية والمؤثرة في بنية العلامات اللغوية ذاتها.

وقد فطن ابن جنى إلى ما رأيناه عند اللغويين المعاصرين من عناية بأثر الموقف - بما فيه من حضور ومشاهدة - في الاستغناء أحياناً عن بعض المنطوقات التي تكون

(6) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان والتهيين، دار الفكر للجمع (1968م) 1/ 66.

(7) المرجع السابق 1/ 79.

(8) الكامل 1/ 294.

(9) الخصائص 1/ 285.

معروفة بين المشاركين أو وقوع حذف فيها. وكان ابن جنى يجعل من ذلك ما رواه سيويه، أن أحدهم يقول: ألا نا؟ أى نجى، فيقول الآخر: بلى فاء، أى فاقبل ونحوه⁽¹⁰⁾. ويروى ابن جنى أيضاً أن أبا بكر كان يتوقف - للأمر السابق ذاته - عن كثير مما أسرع إليه أبو إسحاق من ارتكاب طريق الاشتقاق. قال ابن جنى: «واحتج أبو بكر عليه بأنه لا يؤمن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها، ولم ندر ما حديثها، ومثل له بقولهم (رفع عقيرته) إذا رفع صوته. قال له أبو بكر: فلو ذهبنا نشتق لقولهم (ع ق ر) من معنى الصوت لبعد الأمر جداً، وإنما هو أن رجلاً قطعت إحدى رجله فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته، فقال الناس: رفع عقيرته؛ أى رجله المعقورة. قال أبو بكر: فقال أبو إسحاق: لست أدفع هذا. ولذلك قال سيويه فى نحو من هذا: أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، يعنى ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل»⁽¹¹⁾. وفى المثال الذى ذكره أبو بكر ما يبين العلاقة الوثيقة بين الصوت والصورة، أو المنطوق والحركة. ولعل (الصفقة) - بهذه المناسبة - ترجع فى العربية إلى ما كان يتخذ للإعلان عن السلع فى الأسواق من صفق أو تصفيق بالأيدى.

و- محدد دلالة الحال :

ويقود الكلام السابق إلى التنويه بفطنة القدماء إلى محدد دلالة الحال الذى يدنو من السياق الموقفى عند المحدثين. كان ابن جنى قد عرض فى (باب فى أن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان فى حكم الملفوظ به، عرض لما أسماه بـ «دلالة الحال»، وجعل «من ذلك أن ترى رجلاً قد سدّد سهما نحو الغرض ثم أرسله، فتسمع صوتاً، فتقول:

(10) المرجع السابق 1/ 247.

(11) المرجع السابق 1/ 248.

القرطاس والله (بفتح السين)؛ أى أصاب القرطاس. فـ (أصاب) الآن فى حكم الملفوظ به البتة؛ وإن لم يوجد فى اللفظ، غير أن دلالة الحال عليه ثابت مناب اللفظ به»⁽¹²⁾.

إن التكلم - فيما سبق - يتوصل إلى الحال بالرقوة، ويدل عليه بالمنطوق الذى داخله الحذف؛ لأنه يدرك أن المستمع - وهو هنا صاحب السهم - يمكنه أن يكمل المحذوف بدلالة الحال، وهى إصابته الغرض. والرؤية ودلالة الحال على المحذوف عوامل ومحددات مرفقية تداولية التفت إليها ابن جنى منذ ألف سنة أو يزيد!

ز- محدد الإبقاء على إقامة الاتصال :

فضلاً عما سبق، فقد عرفوا فى اللغة المنطوقة، ظاهرة أسموها بـ «الاستعانة»، وهى تسمية تعود إلى أبى العباس المبرد (ت 285 هـ). والاستعانة عنده أن يدخل فى الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه، ليتذكر به ما بعده، وهذا ما لاحظته أبو العباس فى كثير من كلام العامة، مثل قولهم: ألسن تسمع؟ أفهمت أين أنت؟ وما أشبه ذلك⁽¹³⁾. ولعل هذا مماثل ما أشار إليه ياكوبسون فى وظيفة إقامة الاتصال، التى تهدف إلى توكيد الاتصال وتثيته، أو إيقافه. وكان ياكوبسون - بناء على هذا الأساس - يصنف كل العلامات التى تنشئ بالضرورة الاتصال، أو تسعى إلى إطالته أو إيقافه، كما تعتمد على التأكيد من فاعلية الاتصال (ألو، أسمعنى؟) أو إلى لفت انتباه المتحدث أو التثبت من عدم إهماله الخط (قل، أسمعنى؟)⁽¹⁴⁾.

ح- محدد السكوت :

وإذا كان الموقف الاتصال المباشر يقوم على التفاعل اللفظى بين المشاركين بمبادلة المنطوقات، فربما استخدمت فيه وسيلة مضادة تماماً، هى السكوت. ونعنى به

(12) الخصائص 1/ 284 - 285.

(13) الكامل 19/1.

(14) غبرور (بيار) : السبعيا، مرجع سابق ص 12.

من السكوت الدال أو الإيجابي الذي يتخذه أحد المشاركين رداً أو استجابة لمنطوق
بعينه. وقد عرف العرب ذلك، ودلوا عليه في أمثالهم، يقولون: «ربما كان السكوت
جواباً». قال الميداني: «هذا كقولهم: ترك الجواب جواب»⁽¹⁵⁾.

وقال أبو عبيد: «يقال ذلك للرجل الذي يحل سخطه عن أن يكلم بشيء فيجواب
بترك الجواب»⁽¹⁶⁾.

2- هل عرف القدماء السلوكيات الحركية قناة للاتصال؟

كان العرب في مآلوف نهجهم في الأخبار والروايات، يحرصون على تعيين ما
صاحب الاتصال اللفظي في مجالهم من إشارات وحركات جسمية، باعتبارها من
مكملات الموقف الاتصالي بعامة، بل بما هي بدائل - في بعض الأحيان - عن
المنطوقات، أو بما هي عاكسة آثار المنطوقات على المخاطب. ومن ذلك مثلاً ما حدث
به محمد بن المتشر بن الأجدع الهمداني أن رسول الحجاج أتاه، فأمر بالمسير إليه،
فوجد الحجاج متضياً سيفه، فطلب منه الحجاج الدنو، فخشى ذلك، قال محمد بن
المتشر: «فقلت له: أيها الأمير، والله ما غششتك منذ استنصحتني، ولا كذبتك منذ
استخبرتنني، ولا خنتك منذ ائتمنتني، ثم حدثه الحديث، فلما صرت إلى ذكر الرجل
الذي المال عنده، أعرض عني بوجهه وأوما إلى يده، وقال: لا تسمه»⁽¹⁷⁾.

ومن ذلك أيضاً، ما رواه أبو العباس المبرد أن سفيان بن عيينة قال لجلسائه يوماً:
إني أرى جارنا هذا السهمي قد أثرى وانفسحت له نعمة..... فمم ذلك؟ يعني يحيى
ابن جامع. فقال له جلساؤه: إنه يصير إلى الخليفة، فيتغنى له. فقال سفيان: فيقول
ماذا؟ فقال أحد جلسائه: يقول:

(15) الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد): مجمع الأمثال 1/202...

(16) المرجع السابق 1/302.

(17) الكامل 1/178.

أطرف نهاري مع الطائفين وأرفع من مزرى المسبل

فقال سفيان : ما أحسن ما قال؟ فقال الرجل:

واسهر ليلي مع العاكفين وأتلو من المحكم المنزل

قال: حسن والله جميل. قال: إن بعد هذا شيئاً. قال سفيان: وما هو؟ قال:

عسى فارج الكرب عن يوسف يُسخر لى ربة المحمل

فزوى سفيان وجهه، وأوما بيده أن أكف، وقال: حللاً حلالاً⁽¹⁸⁾.

ولعل تغير وجه سفيان وإيماءته بالكف، لما فى الشطر الثانى من خروج على المعايير المعترف بها اجتماعياً، وهو ما يذكرنا بما رأيناه من قبل عند جامرز، وأن التفاعل اللفظى يعد نسقاً اجتماعياً، تختار فيه المنظومات وفقاً للمعايير والتوقعات المعترف بها بين أفراد الجماعة الكلامية.

أما عطاؤهم الفكرى الذى حملته لنا مصادر التراث اللغوى والبلاغى، فإنه يؤكد ^{نقطة} لنا فطنتهم إلى منزلة الإشارة فى السلوك الكلامى ودورها فى الكشف عن مقاصد المتكلمين، أو اعتبارهما لأغراض بلاغية فيما أنتجوه من نصوص أدبية رفيعة. وبعض ذلك لمحات مقتضبة عارضة، وبعضه مما أفردت له الأبواب وحصلت فيه المسائل تقصياً حقيقته.

أما هذه اللمحات العارضة، فنعرّفها فى غير موضع، نحو لمحة الخطيب القزوينى (ت 739 هـ) إلى ما يعتاده المتظرفون فى فنون القول وشجون الحديث من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء⁽¹⁹⁾.

(18) الكامل 1/ 393.

(19) القزوينى (الخطيب): الإيضاح فى علوم البلاغة، شرح وتعليق وتقييد د. محمد عبد المنعم خفاجى، منشورات دار الكتاب اللبنانى، ط4 (1395هـ - 1975م) 1/ 286.

وأما هذه المحاولات التي اجتهدت في تقصى حقيقة الإشارة، فإننا سرور نفق
هنا عىء محاولتين متميزتين فى تراثنا العربى لكل من الجاحظ (ت 255 هـ) وابن جنى
(ت 392 هـ).

(أ) الإشارة ونظرية الجاحظ البيانىة :

لعل أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ) أول من فطن من علمائنا
القدماء إلى قناة الاتصال غير اللفظية وسيطاً للتفاهم بين الناس. فى (باب البيان) من
كتابه القيم (البيان والتبيين):

أ- يحدد الجاحظ البيان بأنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى. وينبه إلى أن
البيان اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى، ومثك الحجاب دون الضمير،
حتى يفضى السامع إلى حقيقة، ويهجم على محموله كائنأ ما كان ذلك البيان، ومن
أى جنس كان الدليل⁽²⁰⁾. ومن ذلك يستنتج أن البيان أوسع من أن تتخذ له وسيلة
واحدة، ولا يكفى به الدليل اللفظى وحده.

ب- فإلى جانب الدليل اللفظى، يمكن أن يتسع البيان لدلائل أخرى، تؤدى
وظيفة التبليغ وتوضيح المعانى؛ لأن مدار الأمر والغاية التى يجرى القائل والسامع -
كما يقول الجاحظ - إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأى شىء بلغت الإفهام وأوضحت عن
المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع⁽²¹⁾.

ج- وإذا جعلنا الاتصال - مبدئياً - مرادفاً للإفهام أو الدلالات على المعانى
عنده، فإن الجاحظ قد وضع يده منذ أكثر من ألف سنة على نوعى الاتصال الرئيسين:
اللفظى وغير اللفظى، بل وضع يده عليهما مستخدماً هذه المصطلحات ذاتها. لقد نظر

(20) البيان والتبيين 55/1.

(21) المرجع السابق 55/1.

الملاحظ إلى أصناف الدلالات على المعانى، من جهة اللفظ؛ فجعلها فى نوعين رئيسين اثنين: الدلالة اللفظية على المعنى، والدلالة غير اللفظية. ومن جهة الدلالة على المعنى باللفظ وغير اللفظ، نضم أصناف الدلالات - فيما يحصيه تحديداً - خمسة أشياء: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التى تسمى نصبة. وهذه الخمسة الأشياء متميزة، ولكنها تكشف - فى الجملة - عن المعانى. ولعل تعيينها فى هذا الترتيب، يوسن - فيما نرى - إلى تمايزها فى كثرة الاستعمال أكثر من تمايزها فى القيمة أو الوظيفة. فإذا كانت الوظيفة العامة الجامعة بينها هى الإبانة، فإن لكل نوع وظيفته الخاصة التى عينت له محلاً طبيعياً فى هذا التمييز، ومن ثم يسقط النفاصل الوظيفى بينها، ليقوم التكامل. يقول الملاحظ: «وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التى تسمى نصبة. والنصبة هى الحالة الدالة، التى تقوم مقام تلك الأصناف. ولا تقصر عن تلك الدلالات. ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة، ثم عن حقائقها فى التفسير، وعن أجناسها وأقذارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها فى السار والضار، وعما يكون منها لغوا يهرجاً وساقطاً مطرحاً» (22).

بناء على كلام الملاحظ السابق، سيصبح اللفظ أساساً للدلالة اللفظية على المعنى، بينما تبني الدلالة غير اللفظية على الأنواع الأربعة الأخرى، وهى - على الترتيب - : الإشارة، والعقد، والخط، والنصبة.

(22) المرجع السابق 56/1.

وربما جاز لنا - في ضوء نظرية الاتصال الحديثة - أن نجعل اللفظ والخط ممثلين معاً للاتصال اللفظي، من جهة القصد باللفظ والاتصال اللفظي المنطوق، والقصد بالخط للاتصال اللفظي المكتوب. ولعل الجاحظ نفسه قد رمى إلى شيء من ذلك، بدليل تطرقه إلى تحديد الخواص الفارقة بين النطق والكتابة. يقول الجاحظ: «والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدر سامعه، ولا يتجاوز به إلى غيره»⁽²³⁾. ويستعين في تحديد تلك الخواص بكلام الآخرين أيضاً، يقول: «وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحض ذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام. وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراجح»⁽²⁴⁾.

د- ولعل مفهوم العقد عند الجاحظ، مما يؤكد إدراجه مع العلامات غير اللفظية؛ فالعقد عنده الحساب. وهو الحساب دون اللفظ والخط؛ كمعرفة الحسابات الفلكية⁽²⁵⁾. وكان سوونسكي - على نحو ما رأينا - قد أجاز إدراج القوالب الحسابية والرياضية في العلامات اللفظية، فهي تتوسل في عملها بعلامات خطية على الأقل. أما النصة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ. وذلك - كما يقول الجاحظ - ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام... الخ⁽²⁶⁾. إن ما يبدو لنا صامتا، هو ناطق أيضاً؛ «فالصامت ناطق من جهة الدلالة»⁽²⁷⁾. وهو ناطق -

(23) المرجع السابق 58/1

(24) المرجع نفسه 58/1.

(25) انظر المرجع السابق 58/1 - 59

(26) المرجع نفسه 59/1

(27) المرجع نفسه 59/1

بلا شك - من جهة الدلالة على عجزه عن الكلام، تماماً كالعجماء التى هى معرفة
من جهة البرهان على عجمتها وعيها عن البيان.

ونحب أن النصب من العوامل الخارجة عن نطاق اللغة ؛ لأنها ليست مفهوم
الشيء ذاته إنما هى دلالة حاله التى يستنبطها المستخدم.

هـ - أما الإشارة، فهى - كما يبين ترتيب الجاحظ نفسه - رأس العلامات غير
اللفظية، كأنها تحتل المركز الأول بين العلامات غير اللفظية من حيث الوظيفة
الاتصالية أو الدلالة على المعنى، وكأنها - بالتالى - تحتل المركز الثانى (بعد اللفظ) بين
وسائط الاتصال على الإطلاق.

ولنا أن نزوه بما فطنت إليه عقلية الجاحظ - منذ أكثر من ألف سنة - من
جوانب النظر إلى الإشارة :

1- فالإشارة عنده اصطلاح يتسع لجميع أشكال السلوكيات الحركية ؛
كتعبيرات العين والوجه، والحركات الجسمية، والأوضاع البدنية الدالة. الإشارة عنده
باليد، وبالرأس، وبالعين، والحاجب، والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالشرب
والسيف⁽²⁸⁾. ولنا أن نستنبط من قوله «تباعد الشخصان» فطنته المبكرة إلى المسافات
الفيزيقية الفاصلة بين المشاركين فى الاتصال، وما لهذه المسافات من أثر فى تعيين
السلوك الحركى أو الإشارى المناسب.

2- وقد لاحظ الجاحظ الوظيفة الاتصالية التى تشغلها الإشارة، وتفاوت هذه
الوظيفة بتفاوت هيئة الإشارة. وهذا ما يستنبط من قوله: «وقد يتهدد رافع السيف
والسوط، فيكون ذلك زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً»⁽²⁹⁾.

(28) المرجع السابق 56/1 - 57.

(29) المرجع السابق 57/1.

3- التفت الجاحظ في بحثه الإشارة إلى أهم جوانب النظر في السلوكيات الحركية في العصر الحديث؛ ونعنى وظيفتها في علاقتها باللفظ (أو المنطوق) من ناحية، وفي نياتها عن اللفظ (المنطوق) من ناحية أخرى. يقول الجاحظ: «والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ»⁽³⁰⁾.

وإذا كان الجاحظ قد أجمل في قوله: «وبعد فهل تعدوا الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها»⁽³¹⁾، فإن شاغله في المقام الأول هو - بالطبع - السلوك الكلامي أو ما يسميه «صناعة الكلام». ويكفيه - آنذاك - ملاحظة اختلاف الإشارات في الطبقات والدلالات؛ فإشارة العين - مثلاً - تعرف طبقات متفاوتة من النظر والغمز ورفع الحاجب ونحوها من الطبقات الأخرى التي ترتبط كل منها بدلالة خاصة في موقف اتصال بعينه.

4- بل يلتفت الجاحظ أيضاً إلى مزية في الإشارة يقتضها المنطوق؛ فالإشارة - بما هي قناة بصرية - تمكن من قصر المشاركة في الاتصال على من تريد، بما يكون في الإشارة من إمكان السر والخفاء. أما المنطوق، فيمثل قناة سمعية آلتها الصوت. لن يكون ظهور هذه القناة إلا بظهوره. يقول الجاحظ: «وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، من أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس»⁽³²⁾.

(30) المرجع نفسه 57/1.

(31) المرجع نفسه 57/1.

(32) المرجع نفسه 57/1.

5- فى محاولة للربط بين السلوك الكلامى والسلوك الحركى، برهن الجاحظ على أسبقيته إلى فكرة النظر إلى السلوكيات الحركية، باعتبارها - على نحو ما رأينا آنفاً - من مكملات الكلام أو منمماته. يقول الجاحظ فى استخلاص يشبه القانون: «
وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان»⁽³³⁾.

على هذا النحو، فإن كلام الجاحظ قد دار حول ستة اعتبارات جوهرية تصلح - فيما نرى - أن تصنع نواة نظرية للاتصال بنوعيه، لاسيما هذه الالتفاتات الفذة إلى السلوكيات الحركية، وهى:

أولاً: توفيقه فى تقديم تصنيف عام للدلالات على المعانى إلى اللفظية وغير اللفظية.

ثانياً: الإشارة واللفظ شريكان.

ثالثاً: تنوب الإشارة عن اللفظ كثيراً.

رابعاً: تميز الإشارة - دون اللفظ - بالخفاء.

خامساً: حسن الإشارة (باليد والرأس ونحوهما) من تمام حسن البيان باللسان.

سادساً: الإشارة اصطلاح عام تدخل فى حوزته الإشارة والإيماءات والحركات الجسمية وتعبيرات الوجه والعينين جميعاً، فالإشارة عنده هى - فى اختصار - المصطلح المقابل للعبارة.

وبناء على ما تقدم، يمكننا القول بأن الجاحظ هو واضع البذرة الأولى لنظرية السلوك الاتصالي الحركى فى التراث العربى بخاصة والتراث الإنسانى بوجه عام.

(33) المرجع نفسه 57/1.

(ب) ابن جنى ومشاهدة الأحوال :

فى كتاب (الخصائص) يعقد أبو الفتح عثمان بن جنى (ت 392 هـ) بابا بعنوان (باب فى أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها). فى هذا الباب، يبقى الأهم هو التفات ابن جنى إلى ما نسميه الآن بالسياق غير اللغوى أو السياق الخارج عن النص أو سياق الموقف، وهو ما يسميه بـ (الغائب) بما يضم من أحوال شاهدة مختلفة صاحبت السلوك الكلامى:

أ- ويعرف ابن جنى «الغائب» بقوله: «فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها، وتطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها من استخفافها شيئا أو استثقاله، وتقبله أو إكباره، والأنس به أو الاستيحاش منه، والرضا به أو التعجب من قائله، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود، بل الخالفة على ما فى النفوس»⁽³⁴⁾.

ب- ويضرب ابن جنى على الحال الشاهدة بالقصد مثلا بقول الشاعر نعيم بن الحارث بن يزيد السعدى :

تقول - وصكت وجهها بيمينها - أبعلى هذا بالرحى المتقاعس⁽³⁵⁾

والشاعر يسوق هنا كلامه على لسان امرأة كان قد عقد له عليها النكاح ولم يدخل بها بعد، فمرت به فى نوبة وهو يطحن بالرحى لضيف نزلوا به، فقالت: أبعلى هذا؟! تعجبا واحتقارا له، فقال الأبيات. وهذه الأبيات عند المبرد (ت 285 هـ)

تقول - وصكت صدرها بيمينها -

أبعلى هذا بالرحى المتقاعس

(34) الخصائص 1/ 245

(35) المرجع السابق 1/ 245 والمتقاعس الذى يخرج صدره ويدخل ظهره - وتلك هيئة من يطحن بالرحى

فقلت لها : لا تعجبي وتينى
 بلائى إذا التفقت على الفوارس⁽³⁶⁾
 الست أرد القرن بركب درعه
 وفيه سنان ذو غرارين يابس
 إذا هاب أقوام تمثت حول ما
 يهاب حمياء الألد المداعس
 لعمر أيبك الخير إنى لخادم

لضيفى، وإنى إن ركبت لفارس⁽³⁶⁾.

استخدم الشاعر فى بيته الأول - وهو ما يعنينا هنا - قناتين اثنتين : أولاهما لفظية، والأخرى غير لفظية. اعتمد فى القناة اللفظية السمعية على حكاية كلامها باللفظ (أبعلى هذا)، فأعلم أنها كانت متعجبة منكورة. ولكنه اتخذ - فى الوقت ذاته - قناة غير لفظية بصرية مصاحبة، اعتمد فيها على حكاية سلوكها الحركى حال الكلام (وصكت وجهها)، فأعلم بذلك عن دهشتها البالغة وإنكارها الشديد هيئة زوجها الذى رآته - فى تقاعسه بالرحى - على غير ما يرى الرجال!. هذا كله ما فطن إليه ابن جنى، قال: «فلو قال حاكياً عنها: أبعلى هذا بالرحى المتعاصر - من غير أن يذكر صك الوجه - لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكورة، لكنه لما حكى الحال فقال: (وصكت وجهها) علم بذلك قوة إنكارها، وتعاضم الصورة لها. هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال فى نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل (ليس المخبر كالمعاين). ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر

حال هذه المرأة بقوله: وصكت وجهها، لم نعرف به حقيقة تعاضم الأمر لها⁽³⁷⁾.
يتبين من ذلك إدراك ابن جني الواعي الفرق بين الاختصار - في الإخبار -
على قناة اتصال واحدة، والجمع بين قناتين اثنتين في آن معاً: سمعية ومرئية؛ فسماع
حكاية الحال تجعلك عارفاً بالمقصد، ولكن مشاهدتها تجعلك بالمقصد أعرف ولحقيقته
أبين.

ج- إن نقل الأحوال الشاهدة باللفظ أفضل في الكشف عن المعنى وتفسيره
وإنبائه بالذهن من تركها. كذلك، فإن مشاهدة تلك الأحوال ذاتها ومعابقتها
وحضورها تفيد أكثر مما تفيد بسماعها فحسب. يقول ابن جني: «ولست كل حكاية
تروى لنا، ولا كل خبر يُنقل إلينا، يشفع به شرح الأحوال التابعة له، المقترنة - كانت
- به. نعم ولو نقلت إلينا لم نقد بسماعها ما كنا نفيد لو حضرناها»⁽³⁸⁾.

د- إن مشاهدة إنسان عادي الأحوال ذاتها، تمكنه من استبصار المقصد، على
غور لا يستطيع اللغوي المتخصص تحصيله؛ وذلك لما في الواقعة الانصالية من مقابلة
العين، ومشاهدة الوجوه، ورؤية الحركات والإشارات الدالة المقترنة بشدة الإصغاء،
والكلفة بالكلام (كما يقارن معه بين موقف قراءة الشعر وموقف حضور الشعر ينشده
صاحبه)، وكيفيات التبليغ وتحديد المقاصد والأحداث الإنجازية المختلفة وقت الكلام.
يقول ابن جني: «وبعد، فالحمالون، والحماميون، والساسة، والوقادون، ومن يليهم
ويعتد به منهم، يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصله أبر عمرو من شعر
الفرزدق إذا أخبر به عنه، ولم يحضره ينشده. أو لا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر، فأراد
أن يخاطب به صاحبه، وينعم تصديره له في نفسه، استعطفه ليقبل عليه؛ فيقول له يا

(37) الخصائص 1/ 245 - 246

(38) المراجع السابق 1/ 246

فلان، أين أنت، أرني وجهك، أقبل على أحدثك، أما أنت حاضر ياهناه، فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه، اندفع بجذته أو يأمرة أو ينهائه، أو نحو ذلك. فلو كان استماع الأذن منسياً عن مقابلة العين، مجزئاً عنه، لما تكلف القائل، ولا كلف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه. وعلى ذلك قال:

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها
من العداوة أو ود إذا كانتا

وقال الهنلى (أبو خراش خريلد بن مرة) :

رقونى وقالوا: يا خريلد لا ترع

فقلت - وانكرت الوجوه - : هم هم

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلاً على ما فى النفوس. وعلى ذلك قالوا: «رب إشارة أبلغ من عبارة»⁽³⁹⁾.

وكان بعض شيوخ ابن جنى قد سبقوا - كما ألمحنا من قبل - إلى إدراك أثر المشاهدة فى إنجازه التخاطب، قال ابن جنى: «وقال لى بعض مشايخنا - رحمه الله - : أنا لا أحسن أن أكلم إنساناً فى الظلمة»⁽⁴⁰⁾.

إن المشاهدة والحضور - فيما يؤكد ابن جنى - يؤديان فى معرفة وجوه الخطاب وتحديد المقاصد والأغراض ما لا تزديه الحكايات ولا تضبطه الروايات. وفى المشاهدة والحضور غناء عن تأويل يُعنى به اللغوى نفسه أو الاضطراب إلى القصور وغوامض ما فى الأنفس. يقول ابن جنى: «فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبى إسحاق،

(39) المرجع نفسه 246/1 - 247 ورقونى: سكتونى، وقالوا: لا بأس عليك. وقوله هم هم أى هم الذين أخاف.

(40) المرجع السابق 247/1.

ويونس، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعي، ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسهم، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة. لا عبارة، لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه، غير منهم الرأي والنحيزة والعقل»⁽⁴¹⁾.

ونلاحظ أن الإشارة في كلام ابن جني اسم جامع للإشارات والإيماءات والتلويحات والحركات الجسمية ونحوها، على النحو ذاته الذي استخدمت به الإشارة عند الجاحظ من قبل. الإشارة عندهما إذن هي الاصطلاح المقابل للعبارة.

هـ - للإشارة إذن - بأنواعها المختلفة - مثل هذه القدرة على الدلالة على الأغراض. وقد التفت منها ابن جني تعبيرات وجه المتكلم المصاحبة لسلوكه الكلامي، والتي يراها المستمع أو المشارك في الاتصال، في هيئة أو أخرى، فتغنيه - بدلالاتها العرفية - عن بعض المنطوقات. يقول ابن جني: «وكذلك إن ذممت إنساناً، ووصفته بالضيق، قلت: سألناه وكان إنساناً وتزوى وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لثيماً أو لحزاً أو ميخلاً أو نحو ذلك»⁽⁴²⁾.

وإذا كانت محاولة الجاحظ السابقة قد انطلقت من منظور بياني، بؤرته الدلالة على المعنى بوسيط من الوسائط المختلفة وإيادته، فإن محاولة ابن جني هذه قد انطلقت من منظور لغوي أقرب ما يكون إلى نهج السيائية الاجتماعية، بؤرته معرفة أغراض المتكلمين ومقاصدهم في ضوء مشاهدة الأحوال. من هنا كانت عناية ابن جني

(41) المرجع نفسه 248 / 1.

(42) الخصائص 247 / 1.

الجوهريه بدور المشاهدة في الإلمام بمحددات الموقف الاتصالي المتباينة من خلفيات تاريخية وما ينتج عن المشاركين من إشارات وسلوكيات حركية مصاحبة للكلام أو متعمة له أو نائبة عنه أو مساعدة في تفسيره.

ويستكمل المنظوران السابقان في التنبه إلى أن التاريخ للسلوكيات الاتصالية الحركية في الفكر اللغوي والسيميائي الإنساني، ينبغي له أن يبدأ من التراث العربي منذ منتصف القرن الثالث الهجري على وجه التقريب، سواء من حيث وظائفها قناة للاتصال، أو من حيث هي وسيط للدلالة على المعنى بعامة، أو من حيث هي إحدى المحددات الحرة للسياق المرفقي أو دلالة الحال الشاهدة.

الفصل الرابع

السلوك الحركى من اللغة المكتوبة

رأينا قبل ذلك أن الإشارات والحركات وتغيير الأوضاع الجسمية، علامات مميزة للغة المنطوقة، وهى جزء منها. أما اللغة المكتوبة، فإن الكاتب يجب أن يخبر القارئ المنفصل عنه مكانياً بالموقف، والإشارات من أهم محدداته التى يخبر عنها لغوياً فحسب. وهذا يعنى من البداية، أن تحويل لغة مكتوبة إلى مادة صوتية، يجعل الإشارات، والحركات الجسمية، وتعبيرات الوجه، تفسيرية وغير مقيدة ببنية الحدث الكتابى.

وفى محاولتنا الآن تحليل الإشارات والحركات الدالة فى اللغة المكتوبة، إنما نفردنا أهداف مختلفة؛ منها أن السعى إلى التحليل الإثنوجرافى - أو الأنثروبولوجى برجه عام - للسلوكيات الكلامية عند العرب، ينبغى له - فيما نرى - أن ينطلق من أقدم ما أنتجوه من نصوص، حتى نصل إلى المواقف الكلامية والوقائع الكلامية فى التخاطب اليومى الآن. ومن هذه الأهداف أن اللغة المكتوبة مصدر رئيس من مصادر التعرف على ما يمكن أن نسميه بالإشارات والحركات والأوضاع الجسمية الموروثة حال التكلم عند العربى. ومنها الوقوف على أشيع الحركات والإشارات المصاحبة للسلوك الكلامى فى البيئة العربية. ومنها تركيد حقيقة نراها مهمة فى تفسير النص المكتوب، وهى أن وصف الواقعة الكلامية وأوضاع المشاركين فيها وصفاً كلياً متكاملًا، إنما يفيد فائدة مباشرة فى تفسير النص وفهمه ومعرفة الوسائل غير اللغوية المنحلة فى توليد المعنى اللغوى. ومنها تشخيص العادات الاتصالية عند الجماعات

الكلامية العربية بوجه عام. ومصادرنا في ذلك كله النص القرآني، والحديث النبوي،
والشعر العربي: الشرقي والأندلسي.

وفضلاً عن السلوكيات الحركية التي نص عليها في النص القرآني والحديث
النبوي والشعر، على نحو ما سنرى - وهي تمثل قناة اتصال بصرية - فإننا لا نعدم
إشارات إلى قنوات اتصال أخرى؛ كالقناة الشمية، ومن ذلك قول علي بن الحليفة
المهدي:

ومغرب بالمرج ييكى لشائه وقد غاب عنه المسعدون على الخب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنشق يستشفى برائحة الركب⁽¹⁾

أما وقوفنا على نماذج متنوعة من السلوكيات الحركية، فإنما يكون - بالطبع -
على الإشارات والحركات الاختيارية ذات الوظيفة الاتصالية؛ وذلك أن هناك حركات
اضطرارية تعرض للجسم أو لعضو من أعضائه، مما لا يكون للإنسان فيها اختيار،
ومنها ما ارتبط عند العرب بأمر بعينه؛ كخلجة العين التي كانت تعنى عندهم أن
الحبيب مواشك القرب. ومن ذلك مثلاً قول عمر بن أبي ربيعة على لسان محبوبته:

فلما اكفهر الليل، قالت لحُرْدٍ

كواعبٍ في ريط وعصب مسهم

لقد خلجت عني، وأحسب أنها

لِقُرْبٍ أبى الخطاب، ذلك مزعمي⁽²⁾

(1) السيوطي (جلال الدين): نزعة الجلساء في أشعار النساء، شرحه وعلق عليه سمير حنين حلي، مكتبة
التراث الإسلامي، القاهرة (1989م) ص 63.

(2) ديوانه، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (1411هـ - 1992م) ص 309

هذا، ويقرد استقراؤنا النصوص اللغوية المختلفة ذاتها، إلى التمييز بين ثلاثة أنواع رئيسية للسلوكيات الحركية، هي :

1- تعبيرات الوجه والعينين.

2- الإشارات والحركات الجسمية.

3- أفعال والأوضاع.

وقد بنى هذا التصنيف على أساسين اثنين: أولهما طبيعة الاتصال بين الوحدات الحركية المتشابهة أو المتقاربة، والآخر الوظائف الاتصالية المشتركة الجامعة بين عناصر كل نوع، والتي تميزه - بعامة - عن وظائف اتصالية أخرى لنوع آخر. وإذا كان صنيعنا مع النصوص التي استقرأناها أقرب إلى الفحص الأولى منه إلى السح الكامل، فقد كانت تلك النصوص - فيما أحسب - كافية لبيان أنواع فرعية متنوعة داخل كل نوع رئيس ومزودة بمعطيات مهمة لنظرية السلوك الحركي ذاتها.

(1) تعبيرات الوجه والعينين :

يعرف العربى دور الوجه والعينين فى الاتصال. وتنقل تعبيرات الوجه المختلفة - بالمهنية العامة أو بالحركة الدالة - ما يرمى أحد المشاركين إلى توصيله إلى غيره فى واقعة اتصالية بعينها: رضا أو غضب، سرور أو نفور، حض أو تحذير، وكذلك تقول العينان.

فى أمثال القوم ما يدل على وعيهم بما سلف؛ يعرفون أن البغض تبديه لك العينان، ومثلهم: «إذا قرح الجنان بكت العينان»⁽³⁾، و «شاهد البغض اللحظ»⁽⁴⁾،

(3) الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري): مجمع الأمثال، حققه محمد عيسى الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة (1374 هـ - 1955 م) 76/1.

(4) المرجع السابق ص 361/1.

ويعرفون أن العين أم من اللسان، قال خالد بن صفوان: «احترس من العين، فوالله
هي أم عليك من اللسان»⁽⁵⁾. ويقولون: «رب عين أم من لسان»⁽⁶⁾. ويعرفون كذلك
أن «رب طرف أفصح من لسان»⁽⁷⁾.

وإذا جئت إلى أشعارهم تستطلع دور تعبيرات الوجه والعيون في الاتصال
عندهم، قال لك زهير:

متى تك في صديق أو عدو تحبرك الوجوه عن القلوب⁽⁸⁾
وقال العباس بن الأحنف:

يدل على ما بالحب من الهوى تقلب عينيه إلى شخص من يهوى
وإن أحر الحب الذي في فؤاده فإن الذي في العين والوجه لا يخفى⁽⁹⁾
ويحدثنا عمر بن أبي ربيعة كثيراً عن علمه لغة العيون، يقول مثلاً:

ولما التقيتا بالثنية، أومضت مخافة عين الكاشع المنعم
أشارت بطرف العين، خيفة أهلها إشارة محزون، ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً راهلاً وسهلاً بالحبيب المنعم⁽¹⁰⁾

كان عمر كأنما ينقل نظرة العين وتعبيرها المرئي إلى منطوقات مسموعة:

نظرت إليك، وذو شمام دونها نظرا يكاد بسرهما يتكلم
فأبان رجع الطرف أن لا ترحلن حتى يحين الناس ليل مظلم⁽¹¹⁾

(5) المرجع نفسه ص 314/1.

(6) المرجع نفسه ص 204/1.

(7) المرجع نفسه ص 306/1.

(8) ديوانه، دار صادر - بيروت، د.ت ص 16.

(9) ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر (1406 هـ - 1986 م) ص 18.

(10) ديوانه، مرجع سابق، ص 311.

(11) المرجع السابق ص 327 وذو شمام: اسم جبل. ورجع الطرف: نظرته وتردده.

ويقول عمر:

وإذا رنت، نظر التزييف، بعينها
فعرقت حاجتها، وإن لم تنطق⁽¹²⁾
ويقول أبو تمام جامعاً في أبيات قليلة أنواعاً عدة مما يسمى باللغات الصامتة:

اليس عجيباً أن بيتاً يضمني وإياك لا نشكو ولا نتكلم
إشارة أفواه، وغمز حواجب وتكسر أجفان، وكف يسلم
والستنا ممنوعة عن مرادنا وأبصارنا عنا نجيب وتفهم⁽¹³⁾

والآن، كيف كان الجمع بين الاتصال اللفظي والاتصال غير اللفظي، ممثلاً هنا في تعبيرات الوجه والعينين، في النص المكتوب؟ وكيف اتخذت هذه التعبيرات علامات غير لفظية على كشف سياقات المنطوقات اللفظية ذاتها من أجل تفسيرها تفسيراً مناسباً؟

نعرف أن أصل الوجه الجارحة. ولما كان الوجه أول ما يستقبلك، وأشرف ما في ظواهر البدن، استعمل في مستقبل كل شيء وفي أشرفه ومبدئه، ف قيل: وجه كذا ووجه النهار⁽¹⁴⁾. وبناء على ذلك، كانت دواخل الإنسان وأحواله الباطنة أول ما تلحظ على وجهه.

(12) المرجع السابق ص 244.

(13) أبو تمام (حيب بن أوس الطائي): ديوانه، نسر الفاظه ووقف على طبعه محيى الدين الحياطة، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة، د. ت، 463.

(14) الأصفهاني (الراغب): المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت د. ت. ص 513.

(١) القرآن الكريم :

وفى القرآن الكريم، كان الوجه دالا على تلك الحالات المتباينة. واتخذ لذلك السوء والمنكر والسواد والغبرة والفترة وغيرها؛ فى حال الغم والغضب والخوف من العقاب. كذلك، فقد اتخذ البياض والإسفار فى حال الرضا واطمئنان النفس.

من الخال الأولى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَدْعُونَ ﴾ (الملك 27). والسوء كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية^(١٥). ومن تلك الخال أيضاً قوله : ﴿ وَإِذَا تُنْفِثَ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا يَنْتَسِرُونَ كَأَنَّهُمْ عَلِيبٌ يُهْرَقُونَ ﴾ (الحج ٢٧). والمنكر كل فعل لتحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف فى استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة^(١٦). كأنما ظهر على وجوههم ما همموا به يفعلونه من منكر، كأن يسطون بالذين يتلون عليهم آيات الله، والسطو : بطش برفع اليد.

ويعبر عن تغير الوجه للغم بالغبرة والفترة؛ قال تعالى : ﴿ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْفَعُهَا فِتْرَةٌ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (عبس 40 - 42).

والغبرة : ما يعلق بالشئ من الغبار وما كان على لونه. والفترة : شبه دخان يغطى الوجه من الكذب^(١٧)، وكأنما عبر بهذه الأشياء المرئية عما فى النفس من مشاعر الغم وما فى القلب من فجور.

ويعبر بعلامات بصرية أخرى عما فى النفس من حالات مختلفة؛ كالألوان. والسواد أهول لون عند العرب، وقد جعل من ملامح الوجه الدالة على الحزن والغم

(١٥) المفردات ص 252.

(١٦) المرجع السابق ص 505.

(١٧) المرجع نفسه ص 393.

عند البشارة بالأنثى؛ قال تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل 58). قال الزركشي (ت 794 هـ)، وأما قوله ﴿ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ فهو على الأصل، لظهور الصفة نهاراً، والمراد الدوام أيضاً؛ أى استقرت له الصفة نهاره⁽¹⁸⁾ وقال تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (الزخرف 17).

وقد جعل السواد غاشياً من الكذب أيضاً، قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ (الزمر 60).

والبياض أفضل لون عند العرب وقد عر عن الفضل والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يندنس بما يعاب. هو أبيض الوجه⁽¹⁹⁾ وابتضااض الوجوه عبارة عن مسرة وقد اتخذ اللرنان: الأبيض والأسود علامات على حالتين متضادتين ومصيرين متعاكسين، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢٠٠) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَيُحْمَىٰ عَلَيْهِمْ اللَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (آل عمران 106 - 107).

وعلى نحو الابيضاض قوله تعالى ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة 22)، وقوله: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ ﴾ (٢٠١) ضاحكةٌ مُّتَبَشِّرَةٌ ﴾ (عبس 38 - 39) والنضرة: الحسن والرويق والسرور⁽²⁰⁾ والإسعار: إشراق اللون سروراً⁽²¹⁾.

(18) الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله) البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار

المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (1972م) 3 / 71

(19) المفردات ص 66

(20) المرجع السابق ص 496

(21) المرجع نفسه ص 233

والعبس من تعبيرات الوجه المعروفة؛ فهو قطوب الوجه من ضيق الصدر⁽²²⁾. ومنه قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ (عبس 1-2) والأعمى: هو المكي القرشي عبد الله بن أم مكتوم، الذي أعرض عنه الرسول ﷺ، وعبس في وجهه، وتولى نحو نفر من سادات قريش أملاً في أن يسلموا، ويكونوا عزاً لدين الله.

أما تعبيرات العين، بما هي سلوك بصرى، فإن النص القرآنى يعرض لها حالات متنوعة:

(أ) فقد عبر عن العفة بنوع النظرة أو طبقتها؛ كالإغضاء الذى أمر به المؤمنون فى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (النور 30)، كما أمرت به المؤمنات فى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ (النور 31). فالإغضاء إذن سلوك بصرى مستحسن.

والطرف فى اللغة تحريك الجفن، وعبر به عن النظر؛ إذ كان تحريك الجفن لازمه النظر، كما يقول الأصفهاني⁽²³⁾. ويحسن من المرأة قصر الطرف. وهى فاصرة الطرف إذا كانت لا تمد طرفها إلى ما لا يجوز؛ قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَصِرَتْ الْظُرُفُ﴾ (الرحمن 56). وهى عبارة عن إغضائهن لعفتهن.

(ب) وهناك سلوكيات بصرية مرغوب فيها، مستقبحة، ومنها الغمزة؛ فأصل الغمز الإشارة بالجفن طلباً إلى ما فيه معاب⁽²⁴⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(22) المرجع السابق ص 320

(23) المفردات ص 302

(24) المرجع السابق ص 365

أُخْرِجُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣١﴾ (المطففين 29 - 30).

ولمى القرآن الكريم ما يدل على سلوك يتبع فيه صاحبه المعاب أيضاً، كاللمر والممز؛ ولكنهما - فيما يبدو - بدلان على سلوكيات لفظية، من حيث إن هر الإنسان اغتيابه⁽²⁵⁾، ومن حيث إن اللمر الاغتيال وتبع المعاب⁽²⁶⁾.

(ج) وتتخذ حركة العين ومقدار انفتاحها واتجاه نظرها، تتخذ علامات على حالات نفسية متفاوتة. ومن ذلك النظر الخفى، والنظر الخاشع، والنظر الشاخص، والنظر الزائغ، والنظر الدائر، والنظر المزلق

من النظر الخفى قوله تعالى ﴿ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفٍ ﴾ (الشورى 45). والنظر الخفى هو النظر المستر إنه - كما يقول أبو عبيدة (ت 210 هـ) - نظر لا تفتح معه العين، إنما ينظر ببعضها⁽²⁷⁾ ويعبر به - كما يبدو هنا - عن المذلة والإحساس بالخفية والخسران. ولعل النظر الخفى يدل أيضاً على استسلام لا مفر منه!

ومن النظر الخاشع قوله تعالى: ﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَاقُّهُمْ ذَلَّةٌ ﴾ (الفلم 43)، وقوله: ﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَاقُّهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج 44). والخشوع: الضراعة. وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يرجد على

(25) المرجع السابق ص 546

(26) المرجع نفسه ص 454

(27) أبو عبيدة (معجم من المثنى النبوى) بحار القرآن، عارضة بأصوله وعلق عليه د محمد مؤاد سركيس.

مكتبة الخاشع مصر، د ت 201/2

الجوارح. والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب⁽²⁸⁾. وهو هنا - كما نفهم
الآيات - خشوع الذلة لا ضراعة الإيمان.

ومن النظر الشاخص قوله تعالى: ﴿وَأَقْتَرَبَ الزَّعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ
أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنبياء 97)؛ أى أن أجفانهم لا تطرف، كما يقول
الأصفهاني⁽²⁹⁾، كأنما نزع مول يوم العرض عنها حركتها المعهودة.

ومن النظر الزائغ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا زَاغَتْ الْأَبْصَارُ﴾ (الأحزاب 10)، وقوله:
﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ (ص 63). وكأنما الزيغ حركة تخرج
عن حد الاستقامة الذي يكون في المواقف العادية لنظر العين. وهو تعبير عن شدة
الخوف أيضاً. وقال الأصفهاني: «يصح أن يكون إشارة إلى ما قال يورنهم مثليهم رأى
العين»⁽³⁰⁾.

ومن النظر الدائر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ
أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (الأحزاب 19). فهو إذن دوران غشيان،
مصدره، الخوف، لا دوران إحاطة مدركة واعية بالمكان والأشياء. وهذا ما أفاده السياق
اللغوي بالتشبيه، للإبانة وكشف الهيئة.

وإذا كانت أنواع النظر الأربعة الأخيرة، تعبر عن درجات مختلفة من الخوف،
فإن هناك النظر المزلق، الذي يعبر عن شدة الكراهية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (الفلم

(28) المفردات 148.

(29) المفردات 256.

(30) المفردات ص 217.

51). قال الأصفهاني: «والمزلق: المكان الدحيض، قال، (ليزلقونك بأبصارهم)، وذلك كقول الشاعر:

نظرا يزيل مواضع الأقدام

ويقال: زلقه وأزلقه فزلق. قال يونس: لم يسمع الزلق والإزلاق إلا في القرآن»⁽³¹⁾. كأنما حمل نظرهم الداحض هذا - دحضهم الله - ما في قلوبهم من كراهية الرسالة والرسول!

(ب) الحديث النبوي :

وإذا انتقلنا الآن إلى الحديث النبوي الشريف، رأينا من دقة الرواية وإحكامها الحرص البالغ على تسجيل أثر الكلام على وجه الرسول الكريم. بعبارة أخرى رأينا الحرص على بيان التفاعل بين السلوك الكلامي والسلوك غير الكلامي المرتب وفي أحاديث عدة تلقى عبارات تدل على هذا، نحو: فتمعر وجهه⁽³²⁾، وفغضب حتى احمرت وجنتاه⁽³³⁾، وأحمر وجهه⁽³⁴⁾، وتغير وجهه⁽³⁵⁾، وفغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى روى في وجهه⁽³⁶⁾، وفعرفت في وجهه الكراهية⁽³⁷⁾، وقتلون وجهه⁽³⁸⁾ إلخ...

(31) المرجع السابق ص 215.

(32) البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) متن البخاري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت)

1978 م) 2/ 65

(33) المرجع السابق 1/ 29

(34) المرجع نفسه 1/ 29

(35) المرجع نفسه 2/ 207

(36) المرجع نفسه 2/ 249

(37) المرجع نفسه 2/ 249

(38) المرجع نفسه 2/ 262

وتدلنا سياقات الأحاديث اللغوية على أن تغير الوجه - بعامة - علامة على
عدم الرضا من تقصير سائل في فهمه، أو إساءة في رد أو تصرف، أو تقدير أمر. ومن
ذلك ما روى «عن زيد بن خالد رضى الله عنه أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه
وسلم عن اللقطة، قال عرفها سنة، فإن جاء أحد يخبرك بعفاصها ووكائها وإلا
فاستفق بها. وسأله عن ضالة الإبل، فتمعر وجهه، وقال: مالك ولها، معها سقاؤها
وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر، دعها حتى يجدها ربها»⁽³⁹⁾، وفي رواية: «فغضب
حتى احمرت وجنتاه، أو قال: احمر وجهه»⁽⁴⁰⁾. قال العسقلاني (ت 852 هـ): «قوله
(فغضب): إما لأنه كان نهى قبل ذلك عن التقاطها، وإما لأن السائل قصر في فهمه،
فقاس ما لا يتعين التقاطه على ما لا يتعين»⁽⁴¹⁾.

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما، قال: «جاء نفر من بنى تميم إلى النبي
صلى الله عليه وسلم، فقال: يا بنى تميم أبشروا. قالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير
وجهه ...» - الحديث⁽⁴²⁾.

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها أخبرته أنها اشترت غرقة فيها
نصاوير، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على الباب؛ فلم يدخل،
فعرفت في وجهه الكراهية ... - الحديث⁽⁴³⁾.

(39) متن البخارى 65/2.

(40) المرجع السابق 66/2.

(41) العسقلاني (أحمد بن على بن حجر): فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل
البخارى، قام على ترفيمه وتصحيحه: محمد فؤاد عبد الباقي وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت 187/1، والوكاء - بكسر الواو - ما يربط به. العفاص بكسر العين
المهملة - الوعاء. والمراد بالسقاء أجوافها، لأنها تشرب فتكتفى به أياماً. حذاؤها: المراد هنا خفها.

(42) متن البخارى 207/2.

(43) المرجع السابق 256/3.

وعن عبد الله قال: «لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فتغير وجهه...» - الحديث⁽⁴⁴⁾

وقد يكون من الرسول الكريم العجب لتصرف القوم، فيشتم لذلك. روى أن أبا عبيدة بن الجراح قدم بمال الجزية من البحرين، فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انصرف، تعرضوا له، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم... - الحديث⁽⁴⁵⁾.

وقال كعب رضى الله عنه: «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه⁽⁴⁶⁾. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يضحك تصديقاً لقول حتى تبدو نواجذه⁽⁴⁷⁾».

أما تعبيرات العين، فلا نكاد نجد لها إشارة إلا ما كان من نظر النبي الكريم إلى المتكلم رعاية منه صلى الله عليه وسلم لحقه في السماع منه، وما ينبغي أن يتحلى به الناس من أدب أثناء المشاركة في الخطاب. بيد أنه قد روى عن عدى بن حاتم، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة⁽⁴⁸⁾. وإذا كانت الإشاحة حركة بالوجه كله، فالنظر المتكرر - في وجل - هو مسيئها، وهو - في وجله - أول ما يترأى للمخاطبين، فينقل إليهم غرض الخطاب.

(44) المرجع السابق 70 / 3

(45) المرجع نفسه 13 / 3

(46) المرجع نفسه 89 / 3

(47) المرجع نفسه 185 / 3

(48) المرجع نفسه 135 / 4

(ج) الشعر العربي :

أما الشعر، فقيه حشد من الأبيات التي تصف الحال الشاهدة وانعكاسها على
الوجوه والعيون. يبدى الجبان نواجذه من شدة الذعر عند اللقاء، يقول عنثرة:

لما رأني قد نزلت أريده أبدى نواجذه لغير تبم⁽⁴⁹⁾
والناجد آخر الأضراس، كأنما فغر فاه إذا استبد به الفزع واستغرب الهلع!
ويعبر بتقلص الشفتين عن الجبن أيضاً، كما في قوله:

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضع الفم
في حرمة الحرب التي لا تشتكى غراتها الأبطال غير تغمغم⁽⁵⁰⁾
ومن الطريف حقاً أن يعبر بعرق الجبين عن شدة الخجل، وهو ما يعرفه الناس
اليوم، وكان عرفه حاتم الطائي في قوله:

وكلمة حاسد، من غير جرم سمعت، وقلت: مري، فانقذي
وعابوها على، فلم تعني ولم يعرق لها، يوماً، جيني⁽⁵¹⁾

وكثيراً ما يعبر - في خطاب المواجهة - عن الضيق بتجهم الوجه، كقول عمر:

فطرقت باب العامرية موهنا فعل الرفيق أتاهاهم للموعد
فإذا وليدتها، فقلت لها: افتحي لتيم صب الفؤاد مصيد
فتجهمت لما رأني داخلا بتلهف من قرلها وتهدد⁽⁵²⁾

(49) ديوانه، قدم له وعلق حواشي سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة،

بيروت د.ت ص 192.

(50) المرجع السابق ص 193.

(51) ديوانه، دار صادر، بيروت (1401 هـ - 1981 م) ص 90.

(52) ديوانه ص 110.

ويعبر بالمبوس كثيراً عن الجدل للأمر وعند الخطيب، وهو مما يمدح به عندهم،
كقول ابن زيدون:

مر في ضمان العزم، يعبس وجهه للخطيب، والخلق الندي الضحاك⁽⁵³⁾
وربما كان المدح بنقيضه، وهو نوع ثقة بالذات، واستصغار ما بدا جلالاً، ومنه
قول الخنساء عن صخر:

إذا ما الضيق حل إلى ذراه تلقاه بوجه غير بسر⁽⁵⁴⁾
ويصبح التيم - في بعض الحالات - الذي يعد سلوكاً بصرياً غير لغوي
بديلاً عن اللغة في مثل قول عمر:

حيثها، فتيمت، فكانها عند التيم منزلة تيم⁽⁵⁵⁾

وتختلف نظرات العين، فتختلف تعبيراتها. ولا يكاد يخلو ديوان من إشارات إلى
تعبيرات العين. ويعكس هذا ما عرفه العرب في مخاطباتهم اليومية من دور النظرة في
كشف المقصد، أو في إكمال المنطوقات اللفظية ذاتها. فهناك النظر بحاجة، كما في قول
النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود⁽⁵⁶⁾

ويعبر بالنظر الشرر عادة عن الغضب الذي يبدو في نظر الناظر كبرا وأنفة،
كقول النابغة أيضاً:

(53) ديوانه، شرح دكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، ط 1 (1411 هـ - 1991 م) ص 123.

(54) ديوانها، المكتبة الثقافية، بيروت د.ت ص 42.

(55) ديوانه ص 328.

(56) ديوانه، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 (1405 هـ - 1984 م) ص

ينظرون شذراً إلى من جاء عن عرض بأوجه منكرات السرق، أحراراً⁽⁵⁷⁾
 ويعبر بالطرف المشدود عن الجفاء، وبالطرف الكليل - في هذا السياق - عن
 المودة والمحبة، ومن ذلك قول طريف بن أبي وهب العبي
 وشد إلى الطرف متن كان طرفه بعهد عبيد الله وهو كليل⁽⁵⁸⁾
 ويعبر عن المعنى ذاته بالحاجب الأشوس، كما في قول كثير عزة:
 يحبون بسامين طورا وتارة بحيون عباسين شوس الحواجب⁽⁵⁹⁾
 وتتخذ غمزة الحاجب بديلاً بصرياً عن الاتصال اللفظي، عند التحية، كقول ذي
 الرمة:

ولم يستطع إلف لإلف تحية من الناس إلا أن يسلم حاجبه⁽⁶⁰⁾
 وشعراء الغزل هم أكثر الناس حديثاً عن العين. وطالما ربطوا بين نظرة المحبوبة
 الساجية ومعنى الحياء والدلال، كقول كثير عزة:

قامت تراءى لنا والعيـن ساجية كأن إنسانها في لجة غرق⁽⁶¹⁾
 ولعل إيماءة العين من أشد السلوكيات البصرية احتياجاً إلى منطوقات الاتصال
 اللفظي لتفسيرها، بل ربما لا يتحدد معناها إلا من خلال الموقف الاتصالي الاجتماعي،
 بما فيه من معرفة مشتركة ومآله من خلفيات اتصالية تاريخية بين المشاركين في

(57) المرجع السابق ص 123.

(58) أبو نغم (حبيب بن أوس الطائي): ديوان الحماسة، شرح العلامة التبريزي، دار القلم - بيروت د.ت.
 443/1.

(59) ديوانه، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت ط 1 (1413 هـ - 1993 م) ص 46.

(60) ديوانه، بتحقيق دكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت ط 1 (1402 هـ - 1982 م) 2
 / 832 أي بغمز بحاجبه خوف الرقباء.

(61) ديوانه ص 130 وإنسان العين ناظرها ومراودها.

الخطاب. ويبدو لنا أن عمر بن أبي ربيعة هو أكثر شعراء العربية على الإطلاق احتفاءً بإيماءات العين واعتناءً بفهم ما تحكيه. ومن ذلك قوله:

أومت بعينها من الهودج لولاك في ذا العام لم أحجج⁽⁶²⁾

(2) الإشارات والحركات :

ونعنى بها حركات الأطراف والأعضاء وأجزاء الجسم المختلفة. وما يهمنا هنا - بالطبع - هو الحركات الاختيارية التى يؤدّيها الإنسان إزاء موقف أو حدث أو سلوك لفظى بعينه. ويمكننا - من واقع تأمل هذه الحركات والإشارات فى القرائن المختلفة - أن نجد لها نوعين رئيسيين اثنين هما :

(أولاً) الحركة الجسمية البسيطة : وهى التى تصدر بكاملها عن عضو بعينه أو عن جزء محدد من الجسم.

(ثانياً) الحركة الجسمية المركبة: وهى التى تصدر عن عضو بعينه فى علاقتهم بأعضاء أو أجزاء أخرى من الجسم، بحيث لا تبدو هيئة الحركة مكتملة إلا بمثل هذه العلاقة. بعبارة أخرى: لا تقع الحركة المركبة من العضو وحده، بل منه فى علاقته الحركية الوظيفية بعضو آخر. وقد يكون هذا الآخر من جنسه أو لا يكون.

(أ) القرآن الكريم :

(أولاً) الحركة الجسمية البسيطة :

فى القرآن الكريم - وهو الأساس الذى اعتمدنا عليه فى بناء التصنيف السابق - نلاحظ أن حالات الحركات البسيطة تفوق كمياً نظيرتها المركبة. أما من الناحية الكيفية، فإننا نلاحظ أيضاً أن الحركة من الحركات البسيطة - بالرغم من أنها موصوفة

تعبية

(62) ديوانه ص 92.

بهذه الصفة - فإن لها - أحياناً - أن تصنع هيئة أو وضعاً جسيماً هي متجنه والسبب فيه. ومن ثم، فإن تعبيريتها ينبغي أن توصل بهذه الهيئة أو الوضع الكلى الناشئ. وفيما يلي هذه الحركات:

1- حركة اللسان : يتخذ هذا العضو الذى يتج الاتصال اللفظى بأسره وظيفة أخرى، عندما تتخذ هيئته الحركية - باعتبار ارتباطه بهذه الوظيفة الأساسية والأهم - تتخذ علامة على النظاهر بالانخراط فى اللفظ بالشئ، فى الوقت الذى يكون فيه منها التحريف والميل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (آل عمران 78). قال الشوكانى (ت 1250 هـ): «أى طائفة من اليهود يلوون، أى يحرفون ويعدلون به عن القصد. وأصل اللوى: الميل، يقول: لوى رأسه؛ إذا أماله... وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (وإن منه لفرقاً...) قال: هم اليهود، كانوا يزيدون فى الكتاب ما لم ينزل الله. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال: يعرفونه»⁽⁶³⁾. وقال الراغب الأصفهاني: «ولوى لسانه بكذا كناية عن الكذب وتخصر الحديث»⁽⁶⁴⁾.

2- حركة الخد : ويكون الفعل (صعر) مع (الخد) مصاحبة لفظية أرساها القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (لقمان 18). قال أبو عبيدة (210 هـ): «مجازة: ولا تقلب وجهك،

(63) فتح القدير، مرجع سابق 1/ 354 - 355.

وقارن: محمد العبد (دكتور): المفارقة القرآنية: دراسة فى بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 2

(1426 هـ - 2006 م) ص 150

(64) المفردات ص 457.

ولا تعرض بوجهك في ناحية من الكبر. ومنه الصعر الذي يأخذ الإبل في رموسها حتى يلتفت أعناقها عن رموسها. قال عمر بن حنبل: «التغلبى»:

وكما إذا الجبار صعر خده أقناله من ميله فتقوم
والصعر داء يأخذ البعير في عنقه أو رأسه، فيشبه به الرجل الذي ينكبر على الناس⁽⁶⁵⁾. وقال السيوطي (911 هـ): «ولا تصعر خلك للناس: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك»⁽⁶⁶⁾.

3- حركة العنق: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران 153). قال الشوكاني (1250 هـ): «ومعنى (تلوون) تخرجون وتقيمون: أي لا يلتفت بعضكم إلى بعض هرباً، فإن المخرج إلى الشيء يلوئ إليه عنقه أو عنق دابته (على أحد) أي على أحد ممكن معكم؛ وقيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»⁽⁶⁷⁾. والعضو الذي صدرت عنه الحركة مفهوم من السياق اللغوي بدلالة الفعل (لوى).

4- حركة الرأس: وقد وقعت في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (المنافقون 5)، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الإسراء 51). ويقال: لوى رأسه ويرأسه أماله. و (لوا رموسهم) أمالوها⁽⁶⁸⁾. وإمالة الرأس هنا حركة تعبر عن الصد والاستكبار كما أوضح سياق الآيات اللغوية. ولعل

(65) جاز القرآن 2/127.

(66) الإتيان 1/117.

(67) فتح القدير 1/389.

(68) المفردات ص 457.

هذه التلوية لا تخلو من استهزاء؛ قال البخارى فى معناها: «حركوا، استهزأوا بالنبي صلى الله عليه وسلم»⁽⁶⁹⁾.

أما إنغاض الرأس، فهو هزها، قال السيوطى (فسينغضون). يهرون⁽⁷⁰⁾ وذكر السيوطى أيضاً أن (ينغضون): يذهبون، بلغة الخزرج⁽⁷¹⁾. وقال الراغب: «الإنغاض تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه، قال: (فسينغضون إليك رؤوسهم) يقال: تغض تغضاً إذا حرك رأسه، وتغض أسنانه فى ارتجاف»⁽⁷²⁾.

اتخذت الحركة فيما سبق سلوكاً اتصالياً خاصاً دالاً على الصد فى استهزاء، أو على الإنكار والاستبعاد؛ تلوية للرأس أو إنغاضاً، فى هذه الهيئتين الميثية المقابلة للاتصال اللفظى، بما هى استجابة غير لفظية.

5- حركة الكف: ومنها حركة تقليب الكف علامة على الندم. ومن ذلك قوله تعالى: «وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَىٰ مَا آتَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا» (الكهف 42). قال الزركشى: فأصبح يقلب كفيه أى نادماً⁽⁷³⁾. وكان الزركشى قد عقد فصلاً فى الإجمال ظاهراً، ولاحظ أن ما فيه من الإجمال فى الظاهر كثير، وعدد أسبابه، ومنها كثرة استعماله التى منها الموضع السابق⁽⁷⁴⁾. وقال الراغب: «وتقليب اليد: عبارة عن الندم ذكرنا الحال ما يوجد عليه النادم. قال تعالى: (فأصبح يقلب كفيه) أى يصفق ندامة»⁽⁷⁵⁾.

(69) متن البخارى 3/ 203.

(70) الإتيان 1/ 115.

(71) المرجع السابق 1/ 135.

(72) المفردات ص 500.

(73) البرهان 2/ 213.

(74) راجع البرهان 2/ 209 - 213.

(75) راجع المفردات ص 621.

(ثانياً) الحركة الجسمية المركبة :

يمكننا - وفقاً لتحديد المقصود بالحركة الجسمية المركبة فيما سلف - أن نجد لها الأشكال الفرعية الأربعة التالية :

1- اليد مع الوجه : كقوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (الذاريات 29). قال السيوطي : فصكت : لطمت (76).

وكنا قد وقفنا في الفصل الثالث على كلام لابن جنى عن بيت نعيم بن الحارث بن يزيد السعدي، الذي ورد فيه صك الوجه أيضاً، وكيف أبان ابن جنى عن أن إشارة الشاعر - في منظومه اللفظي - إلى هذا السلوك الحركي، قد أعلمت قوة إنكار زوجته ونعاضم صورته لها. وهذا السلوك الحركي يشبه في مغزاه العام ما عرضت له الآية الكريمة، مع اختلاف - بالطبع - في مسببات الحركة بين الحالين. في الآية الكريمة كان صك الوجه علامة تعجب من أمر أن تلد عجوز عقيم. وفي الآية الكريمة حكاية فعلها. وصك الوجه مما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب، كما يقول ابن كثير (77). وتكشف الحركة، وهي من السياق غير اللغوي، عن المحذوف لفظاً، أي (أتلد عجوز عقيم؟) أو (أعجوز عقيم تلد؟). وهذا من المواضع الدالة دلالة واضحة على علاقة النائر والتأثير بين السياق غير اللغوي والسياق اللغوي، أو بين العلامات الحركية والمنطوقات اللفظية.

2- اليد مع الفم : كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ

(76) الإنقاذ 1/ 117.

(77) مجاز القرآن 1/ 336.

مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ (إبراهيم 9) قال أبو عبيدة: «مجازه مجاز المثل، وموصفه موضع كفوا عما أمروا بقوله من الحق ولم يؤمنوا به ولم يسلّموا ويقال: رد يده في فمه؛ أي أمسك إذا لم يجب»⁽⁷⁸⁾. وقال الزركشي: «أي لم يتلقوا النعم بشكر»⁽⁷⁹⁾.
هذا السلوك الحركي المركب إذن علامة مرثية على الإمساك عن الإجابة، وهنا إجابة النعم بشكر.

3- اليد مع الإنسان : ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الطَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَبَّتْنِي أَلْتَحَدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان 27). ويعبر هذا السلوك الحركي - وتأمل استخدام المثنى يديه في المنطوق - عن الندم الشديد أو الحسرة العظيمة على ما فات وما ارتكب من فعل وخيم العاقبة.

وقد يكون باعث العض الغيظ؛ كقوله تعالى : ﴿ هَتَأْتُمْ أَوَّلًا نَجِبُوتَهُمْ وَلَا تَجِبُونَهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ (آل عمران 119). وهنا نلاحظ مواءمة لفظية لطيفة بين باعث العض وهو الغيظ (لا الندم الشديد) وبين الشيء المعرض وهو الأنامل (وليس البدين). ويقول الشوكاني: «وإذا خلوا....» ناسفا ونحسرا، حيث عجزوا عن الانتقام منكم. والعرب تصف المغناط والنادم بعض الأنامل والبنان⁽⁸⁰⁾.

4- الأصابع مع الأذان : وذلك كقوله تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ (البقرة 19)، وقوله : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ

(78) مجاز القرآن / 336

(79) البرهان / 213

(80) فتح القدير / 376

لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعُهمْ فِي أَذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾

(نوح 7)

قال الراغب في استغشاء الثياب : «أى جعلوها غشاوة على أسماعهم ، وذلك عبارة عن الامتناع من الإصغاء . وقيل : استغشوا ثيابهم ، كناية عن العدو ، كفولهم شر ذبلاً والقى ثوبه» (81).

وبالرغم مما يذهب إليه بعض القدماء من تفسير الأصابع بالأنامل على المجاز، من حيث إنه تسمية الجزء باسم الكل (82)، فإن في التعبير عن الأنامل بالأصابع - كما لاحظ الزركشى نفسه - حكمة الإشارة - في آية البقرة - إلى أنهم يدخلون أناملهم في آذانهم بغير المعتاد، فرارا من الشدة، فكانهم جعلوا الأصابع (83). وفي آية نوح كان وضع الأصابع في الأذان من باب منعها تماماً من الإصغاء للدعوة، وهو معنى مؤكد بهيئة استغشاء الثياب.

(ب) الحديث النبوى :

لأولاً الحركة الجسمية البسيطة :

تنوعت - في روايات الحديث النبوى الشريف - حركات الجسم وإيماءات اليد ونحوها تنوعاً كبيراً. وقد تفاوتت أنواع تلك الحركات والإيماءات: قلة وكثرة. وهى تبين - فى مجملها - أن الرسول الكريم كان يرى - فى حالات بعينها - ضرورة أن تكون العبارة مقرونة بالإشارة الدالة بوضوح على المراد، وحتى يدرك عنهم الالتباس وتفوق الحركة الجسمية البسيطة كمياً نظيرتها المركبة. وقد تنوعت أشكالها

(81) المفردات ص 361

(82) انظر مثلاً الإيضاح للقرئوس ص 399، والبرهان 2/262

(83) البرهان 2/262

وظائفها. وهناك أبواب أفردت للإشارة نحو (باب الإشارة في الطلاق والأمور)⁽⁸⁴⁾ و (باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس)⁽⁸⁵⁾. ومن باب اللسان (إذا قذف الآخر من امراته بكتابة أو إشارة أو بإيماء معروف فهو كالمتكلم)⁽⁸⁶⁾.

1- حركة الرأس : ومن ذلك ما روى في باب (من سأل وهو قائم عالماً جالساً)، «عن أبي موسى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل»⁽⁸⁷⁾. وتبدو وظيفة الحركة هنا من باب فتح قناة الاتصال بالسائل وإبداء الإصغاء إليه، فيما يتطلبه خطاب المواجهة.

2- إشارة اليد والأصابع : وهي أكثر الإشارات وروداً في متون الأحاديث ولها حالات ووظائف مختلفة:

أ- فقد تكون الإشارة لمجرد تحديد المشار إليه أو تعيينه أمناً للبس ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة، وأشار بيده على أنفه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين....» - الحديث⁽⁸⁸⁾.

ب- وقد تبدو الإشارة مصاحبة المنطوق من باب تدعيمه؛ ومن ذلك ما روى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل في حجته، فقال: «ذبحت قبل أن

(84) من البخاري 276/3.

(85) المرجع السابق 27/1.

(86) المرجع نفسه 278/3.

(87) المرجع نفسه 36/1.

(88) من البخاري 148/1 وانظر أمثلة أخرى 1/283، 2/325، 3/26، 277.

أرسي، فأرمأ بيده، قال: ولا حرج»⁽⁸⁹⁾. قال: «حلقت قبل أن أذبح، فأرمأ بيده، ولا حرج» قال العسقلاني (ت 852 هـ): «وقوله (فقال) يحتمل أن يكون بياناً لقوله (أرمأ)، ويكون من إطلاق القول على الفعل... ويحتمل أن يكون حالاً، والتقدير فأرمأ بيده قائلاً لا حرج، فجمع بين الإشارة والنطق. والأول اليق بترجمة المصنف»⁽⁹⁰⁾

ولعل الإيماء هنا يأخذ هيئة دفع الظن بالخرج فيما فعل، ولذلك جعلنا هذه الإشارة مدعمة للمنطوق اللفظي.

ج- وقد تكون الإيماء باليد موضحة هيئة الشيء أو كيفية حدوثه؛ ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ويكثر المهرج، قيل: يا رسول الله، وما المهرج؟ فقال: هكذا بيده، فحرقها كأنه يريد القتل»⁽⁹¹⁾. قال العسقلاني: «قوله (فقال هكذا بيده) هو من إطلاق القول على الفعل. قوله (فحرقها) الفاء فيه تفسيرية؛ كأن الراوى بين أن الإيماء كان محرفاً. قوله (كأنه يريد القتل)؛ كأن ذلك فهم من تحريف اليد وحركتها كالضارب، لكن هذه في معظم الروايات وكأنها من تفسير الراوى عن حنظلة؛ فإن أبا عوانة عن عباس الدوري عن أبي عاصم عن حنظلة، وقال في آخره: «وأرانا أبو عاصم كأنه يضرب عنق الإنسان»⁽⁹²⁾.

ولعل من الحالات الدالة على ذلك أيضاً ما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة، فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو

(89) المرجع السابق 27/1.

(90) فتح الباري 1/181.

(91) متن البخاري 27/1.

(92) فتح الباري 1/182.

لن

قائم بصلّى، يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه، وأشار بيده يقللها»⁽⁹³⁾. وفي رواية أخرى ما بين هيئة هذه الحركة، وهو قول أبي هريرة: «وقال بيده ووضع أمله على بطن الوسطى أو الخنصر»⁽⁹⁴⁾. قال الزين بن المنير: «الإشارة لتقليلها هو للترغيب فيها والحض عليها؛ لیسارة وقتها وغزارة فضلها»⁽⁹⁵⁾.

ومن ذلك أيضاً ما روى عن سهل بن سعد الساعدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو كهاتين، وقرن بين السبابة والوسطى»⁽⁹⁶⁾. والقرن بينهما - كما هو واضح - سلامة على شدة القرب والدنو، بحيث إن ما يترأى من مسافة ليس بشيء. ومن ذلك أيضاً ما روى عن سهل قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً»⁽⁹⁷⁾.

د- وإذا كانت وظيفة الإمامة كيفية في الحالة السابقة، فهي لبيان الكم في حالات أخرى. ومن ذلك ما روى عن جبلة بن سحيم قال: سمعت أن عمر رضي الله عنهما يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الشهر هكذا وهكذا، وخمس الإبهام في الثالثة»⁽⁹⁸⁾. يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.

ومن ذلك أيضاً ما رواه سلمة، قال: «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخذ بيدي، قال: مالك؟ قلت له: فداك أبي وأمي! زعموا أن عامراً حبط عمله.

(93) متن البخاري 1/ 166.

(94) المرجع السابق 3/ 277، وانظر أمثلة أخرى: 2/ 233، 3/ 212، 4/ 30، 99.

(95) فتح الباري 2/ 416.

(96) متن البخاري 3/ 278.

(97) المرجع السابق 3/ 278.

(98) متن البخاري 1/ 327.

قال النبی صلی الله علیه وسلم: کذب من قاله، إن له لأجرین، وجمع بین اصبعیه»⁽⁹⁹⁾. والجمع بین الإصبعین إشارة واضحة على العدد المقصود.

وكانت العرب قد تواطأت على إشارات بعینها للعد. قال الصنعانی (ت 1182 هـ) عن الإشارات التي اتخذت للأحاد والعشرات والمئين: «أما الأحاد فللواحد عقد الخنصر إلى أقرب ما يليه من باطن الكف. وللاثین عقد البنصر معها كذلك. وللثلاثة عقد الوسطى معها كذلك. وللأربعة حل الخنصر. وللخمس حل البنصر معها دون الوسطى. وللستة عقد البنصر وحل جميع الأنامل. وللسبعة بسط الخنصر إلى أصل الإبهام مما يلي الكف. وللثمانية بسط البنصر فوقها كذلك. وللتسعة بسط الوسطى فوقها كذلك. وأما العشرات فلها الإبهام والسبابة: قلل عشرة الأولى عقد رأس الإبهام على طرف السبابة. وللعشرين إدخال الإبهام بین السبابة والوسطى. وللثلاثين عقد رأس السبابة على رأس الإبهام عكس العشرة. وللأربعين تركيب الإبهام على العقد الأوسط من السبابة وعطف الإبهام إلى أصلها. وللخمسین عطف الإبهام إلى أصلها. وللستین تركيب السبابة على ظهر الإبهام عكس الأربعین. وللسبعین إلقاء رأس الإبهام على العقد الأوسط من السبابة وردد طرف السبابة إلى الإبهام. وللثمانین رد طرف السبابة إلى أصلها وبسط الإبهام على جنب السبابة من ناحية الإبهام. وللتسعين عطف السبابة إلى أصل الإبهام وضمها بالإبهام. وأما المئين فكالأحاد إلى تسعمائة في اليد اليسرى. والألوف كالعشرات في الیمن»⁽¹⁰⁰⁾.

أهـ- وقد تكون الإشارة بديلاً عن المنطوق ذاته؛ أي تحمل الإشارة محل العبارة،

(99) المرجع السابق 49/3.

(100) الصنعانی (محمد بن إسماعیل الأمير الیمنی الصنعانی): سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، بتحقیق إبراهیم عصر، دار الحديث، القاهرة، د.ت 320/1.

أو لنقل: الاكتفاء بالإشارة المفهمة عن التصريح. ومن ذلك ما روى عن كعب رضى الله عنه أنه تقاضى ابن أبى حردر ديناً كان له عليه فى المسجد، فارتفعت أصراهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيته فخرج إليهما، حتى كشف سجف حجرته، فنادى: يا كعب، قال: لبيك يا رسول الله، قال: ضع من دينك هذا، فأوماً إليه، أى الشطر، قال: لقد فعلت يا رسول الله (101).

وفضلاً عن إفادة الحديث وضوح إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم لمخاطبه، وهو شرط يهيم للإشارة وظيفتها، فإننا نلمح فى جعل الإشارة بديلاً عن العبارة ملساً لطيفاً، هو قدرة الإشارة على بيان المقصد مع تحقيق التلميح فى الطلب فى مثل هذه الحال، وإيثار ذلك على المباشرة والتصريح. ولعل هذه الإشارة كانت تلوجاً بمجد الكف، كأنما نشطر شيئاً إلى شطرين.

ثانياً) الحركة الجسمية المركبة :

ويمكننا أن نميز بين حركتين اثنتين على الأقل، هما:

1- تشبيك الأصابع : وتشبيك الأصابع حركة مركبة باعتبار العلاقة بين أصابع اليدين التى تصنع الهيئة المقصودة للحركة، حتى تكتسب مغزاها. ومن ذلك ما روى عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه» (102).

وتبدو لنا هذه الحركة أصدق من غيرها وأدق فى تصوير هيئة المؤمنين فى تماسكهم وتأزرهم. وهى لتوكيد المنطوق الذى صاحبه وتدعيمه بتصوير معناه.

(101) من البخارى 61/2.

(102) المرجع السابق 95/1.

2- ضرب الفخذ: ومن ذلك ما رواه الزهري قال: «أخبرني علي بن حسين أن حسين بن علي أخبره أن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقة وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة، فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله انفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فأنصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى بيتنا، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: وكان الإنسان أكثر شياً جديلاً» (103).

قال العسقلاني (ت 852 هـ): قوله: «يضرب فخذه فيه جواز ضرب الفخذ عند التأسف» (104). ونقل ابن بطلال عن المهلب قال: «وأما ضربه فخذه وقراءته الآية، فدل على أنه ظن أنه أخرجهم، فتدم على إنباههم» (105) وقال العسقلاني فيما ذهب إليه المهلب: «وأقره ابن بطلال، وليس بواضح، وما تقدم أولى» (106). وقال النووي: «المختار أنه ضرب فخذه تعجباً من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بما اعتذر به» (107). وتفسير الحركة على نحو ما قال النووي، هو ما غيل إليه أيضاً. وهذه الحركة - بناء على ذلك - علامة بصرية على التأسف لما اعتذر به.

(ج) الشعر العربي :

(أولاً) الحركة الجسمية البسيطة :

فضلاً عن توارد الاستخدامات البلاغية التعبيرية الكنائية المبنية على عناصر إشارية وحركية في نصوص شعرية وفيرة، فإن هناك حالات متعددة اتخذت فيها تلك

(103) فتح الباري 10/3.

(104) المرجع السابق 11/3.

(105) المرجع نفسه 11/3.

(106) المرجع نفسه 11/3.

(107) المرجع نفسه 11/3.

الإشارات والحركات - وهذا ما يعيننا الآن - لوظائف اتصالية مختلفة، تدعىها - عادة - المواقف الاتصالية اللفظية المباشرة بين المشتركين في التخاطب. وكثيراً ما يحدثنا الشعراء، لاسيما الغزليين منهم، عن التخاطب من غير كلام، وعن توسيط الإشارة في حالات يعينها لا تناسبها العبارة. يقول العباس بن الأحنف مثلاً:

يا للرجـال العاشقين توافقنا فتخاطباً من غير أن يتكلما
حتى إذا خشيـا الوشاة واشفقنا جعلـا الإشارة بالأنامل مـلماً⁽¹⁰⁸⁾
وكانت المرأة تأمن الإشارة باليد أو العين، وتجعل من ذلك رسائلها الموجهة إلى من يهمه الأمر. وهو أمر طبيعي في البيئة العربية. تقول عليـة بنت الخليفة المهدي:

صـحافتنا إشـارتنا وأكثـر رسلنا الحـدق
لأن الكتـيب قـد تـقرأ وليس يرسلنا نثـق⁽¹⁰⁹⁾

وتوثق استخدامات بعض الحركات عرفية دلالاتها بين الجماعة الكلامية. ومن ثم كانت تلك الحركات والدلالات قاسماً مشتركاً بين الشاعر ومستمعيه. إن قرع السن - مثلاً - علامة على الندم، يقول أبو تمام:

ولو أنـى أطعـتك فـى أمور

قرعت ندامـة، من ذاك، سنى⁽¹¹⁰⁾

ورفع الأنف علامة على الإباء والشمم، ومنه قول كثير عزة:

أناس ينال الماء قبل شفاهم

له واردات العـرض شم الأرائب⁽¹¹¹⁾

(108) ديوانه ص 266.

(109) نزهة الجلساء في أشعار النساء، مرجع سابق ص 62.

(110) ديوانه ص 139.

(111) ديوانه ص 45.



ومن الطريف أن الشاعر قد يجد في اتخاذ إشارة بعينها ، في موقف اتصال بعينه ، ما يزرى به ويقلل من شأنه ، وهو جانب من الدلالة الاجتماعية التي أحاطت ببعض الإشارات عند العرب في حالات محددة ، نرى منها مثلاً إشارة السلام في قول ابن زيدون :

فبهم أرى السلام إشارة تسوغ بي إزاء من شاء أن يزرى⁽¹¹²⁾

ولعل حرارة العرب في التحية جعلت ابن زيدون يرى في الاكتفاء بالإشارة ، رداً على السلام ، ما يفسح المجال أمام تحقيره بين الناس ، أو الشماتة به على الأقل ! ويمكننا - الآن - أن نتأمل أشكال الحركات الجسمية البسيطة على النحو التالي:

1- حركة الإصبع: وترتطف هذه الحركة غالباً في أمرين رئيسين اثنين:

(أ) فقد يعبر بشئ الأصابع عن معنى التقدم في الفضل والمترلة، كقول أبي العلاء المعري:

يشار إليك بدعاء ويشئ على فضلك الخنصر⁽¹¹³⁾

وقول ابن زيدون :

زعيم لأبناء السيادة بارع عليهم به تشئ الخناصر، إن عدوا⁽¹¹⁴⁾

ب- وتتخذ إشارة البتان - أطراف الأصابع - علامة على معان عدة، أهمها التحية أورد التحية فتكون في الحالين بديلاً سلوكياً حركياً عن منطوقات لفظية، ومن ذلك قول عمر:

أشارت إلينا بالبتان، تحية فرد عليها مثل ذاك بنان⁽¹¹⁵⁾

(112) ديوانه ص 105.

(113) أبو العلاء المعري: ديوان سقط الزند، المجموعة الكاملة شرح وتحقيق دكتور ن. رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت ص 130.

(114) ديوانه ص 79.

(115) ديوانه ص 359.

ونبذ لنا حالات نستلزم فيها الإشارة وعى المرسل والمستقبل بملاسات الموقف
الاتصالي وخلفيته التاريخية الخاصة، حتى يتضح مقصد الرسالة الإشارية. ويمكننا أن
نلمح ذلك في مثل قول عمر:

إن نأت غربة بهند، فإنا قد خشينا أن لا تقارب حيننا
فاشارت بأن قلبى مريض من هواكم يحن وجدا رصينا⁽¹¹⁶⁾

فالكلام هنا دال بغيره؛ وهو الإشارة، ومن هنا يبدو ضرباً من التعبير التمثيلي
الباتومي.

2- حركة اليد : وهى تتخذ شكلين اثنين غالباً :

أ- فقد تكون الإشارة باليد بديلاً عن الكلام؛ كقول عمر:

فلما تقضى الليل إلا أقله وكانت توالى نجمه تستغور
أشارت بأن الحى قد حان منهم هبوب ولكن موعد منك عزور⁽¹¹⁷⁾

ب- وقد يعبر بخلع يد من يد عن الفراق. وهو - فيما يبدو لنا - تعبير كنانى،
لكنه يقدر فى واقعة اتصالية مباشرة أن يحمل المعنى ذاته. ومن ذلك ما أنشدته امرأة
البهناوى فى زوجها:

لما غدا لأكيد عهدى ناقضا وأراد ثوب الوصل أن يتمزقا
فارقت، وخلعت من يده يدي وتلوت لى وله: وإن يفرقا⁽¹¹⁸⁾

3- قرع السن : وهو تعبير عن الغيظ والندم، ومنه قول عمر:

أطعت الرشاة الكاشحين، ومن يطع مقالة واش، يقرع السن من ندم⁽¹¹⁹⁾

(116) ديوانه ص 389 يحن: يحنى ويستر. رصينا: ثابتاً.

(117) ديوانه ص 126 وهبوب: نهوض من النوم. عزور: اسم مكان.

(118) نزهة المجالس ص 86.

(119) ديوانه ص 321 والكاشحون: المفضون.

✓
وقول ابن زيدون :

ودع الصبر محب ودعك ١٠ ذائع من سره ما استردعك
بقرع السن على أن لم يكن ١١ زاد في تلك الخطي، إذ شيعك⁽¹²⁰⁾

4- حركة القدم : ويعبر بنقل القدم عن علو المركز، ومنه قول ابن زيدون :

أيا المعالي نحن في راحة فانقل إلينا القدم العالية⁽¹²¹⁾

5- حركة الوجه : وهي حركة الصد بالوجه تعبيراً عن عدم الرغبة في الرؤية أو

السمع، أي تعبيراً عن رفض إقامة الاتصال مع الآخر. ومن ذلك قول عمر:

واعلمي أنني أصبت بلاء داخل في الضلوع دون الحجاب

ثم صدت بوجهتها عمد عين زينب للقضاء أم الحجاب⁽¹²²⁾

6- حركة الرأس : وتتخذ أشكالاً ووظائف اتصالية مختلفة، من أهمها:

أ- قد يعبر بلى الرأس عن الرفض والمخالفة، ومن ذلك قول عمر:

ولوت رأسها ضرارا وقالت إذ رأيتني : اخترت ذلك أننا

حين آثرت بالمودة غيري وتناسيت وصلنا ومللتنا⁽¹²³⁾

ب- وقد يعبر بهز الرأس عن التعجب من أمر، ومن ذلك قول عمر أيضاً:

ألا هل حاجك الأظعا ن إذ جـاوزن مطـلحاً

نعم، ولو شك بينهم جرى لك طائر سحـا

(120) ديوانه ص 209.

(121) ديوانه ص 321.

(122) ديوانه ص 66.

(123) ديوانه ص 84 ، وضرارا : مخالفة.

سلكن الجنب من ركك
فمن يفرح بينهم
وهزت رأسها عجباً
وقالت : مازح مزحاً⁽¹²⁴⁾

ومنه قوله أيضاً في مرقف آخر:

لقد أرسلت جاريتي
وقولي في ملاطفة
فهزت رأسها عجباً
وقالت لها : خذي حذرا
لزينب : سولي عمرا
وقالت : من هذا أمرا⁽¹²⁵⁾

ج- وقد يعبر بهز الرأس عن معنى آخر هو إبداء الأسف والحسرة. يقول عمر
أيضاً:

فقلت لأسماء اشتكاء، وأخضلت
أبني لنا، كيف السبيل إلى التي
فقلت، وهزت رأسها، لو أطمعنا
مسارب عيني الدموع السواجم
نأت غربة عنا بها ما نلائم
تجنبتها أيام قلبك سالم⁽¹²⁶⁾

وربما نبهنا اختلاف وظيفة الحركة في الموضعين الأخيرين إلى ما كان من
اختلاف في اتجاه حركة هز الرأس، أو طبقة هذه الحركة؛ كأن تكون الحركة عمودية
في حال الدلالة على العجب، بينما تبدو أفقية في حال الدلالة على الحسرة والأسف.
د- وتنخذ طائفة الرأس علامة على الحزن وانكسار البال، ومن ذلك قول

(124) ديوانه ص 93.

(125) ديوانه ص 181 وانظر نماذج أخرى ص 197، 278.

(126) ديوانه ص 316.

الخناء:

نعمرى لقد أوهيت قلبى عن العزرا
وطاطات راسى والفؤاد كئيب⁽¹²⁷⁾

(ثانياً) الحركات الجسمية المركبة :

ويمكننا أن نتأمل أهم هذه الحركات وأهم وظائفها على النحو التالى:

1- الأصابع مع الأسنان : وتشغل هذه الحركة المركبة وظائف اتصالية مختلفة،

ومن أهمها:

أ- أن تكون علامة على الحزن، ومن ذلك قول عنتره:

غدا تصبح الأعداء بين ييوتكم
تعص من الأحزان كل بنان⁽¹²⁸⁾

ب- وقد تدل بعض الأصابع - فى سياق لغوى آخر - على الغيظ والندم،

كقول رجل من بنى بكر:

ولقد هدبت الركب فى ديمومة
فيها الدليل يعص بالخمس⁽¹²⁹⁾

يعنى حينما يضل يصيبه غيظ وندم، فيعض أصابعه الخمسة.

ج- وربما كان عض الإبهام - فى واقعة اتصالية أخرى - علامة على

الترجس، كقول عمر:

دخلت على خوف، فأرقت كاعبا

فهب قطع الصوت نشوى من الكرى

فعضت على الإبهام منها، مخافة

هضم الحشار ربا العظام

كمفتيق الراح المدام شمولا

على، وقالت: قد عجت دخولا⁽¹³⁰⁾

(127) ديوانها ص 24.

(128) ديوانه ص 225.

(129) ديوان الحسانة 386/2 ، والدمومة : الأرض الواسعة، كأنما يدوم فيها السراب.

(130) ديوانه ص 283.

وتعلو طبقة الخوف إلى الذعر لمفاجأة، بدلالة الحركة ذاتها في قول عمر أيضاً
فحييت إذ فاجأته فتولعت
وكادت بمخوض التحية تجهر
وقالت - وعضت بالبنان - : فضحتي

وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر⁽¹³¹⁾
د- وقد يعبر بعض الإبهام أيضاً عن الأسف والارتباك، كقول عمر أيضاً:
فلما تقضى الليل، قالت فتاتها
أرى قبل أن يستيقظ الحي أرفق
وعضت على إبهامها، وتنكبت
قريباً، وقالت: إن شرك ملحق⁽¹³²⁾

2- الكف على الكبد : يشير وضع الكف على الكبد إلى ما يلحق من عناء أو
نعب في السير. وهذه الإشارة - مربطة بالمرأة - علامة على اكتنازها باللحم، كقول
عمر:

نظل من زور جارتها واضعة كفها على الكبد⁽¹³³⁾
وفي وقائع اتصالية أخرى، يعبر بوضع الأنامل على الأكباد عن الفزع، كقول
أحد شعراء الحماسة (ولم يسمه أبو تمام):
لما راهم لم يحسوا مدركا
وضعوا أناملهم على الأكباد⁽¹³⁴⁾

(131) ديوانه ص 125.

(132) ديوانه ص 248، فتاتها: وصيفتها. أرفق: أسهل وأفضل. تنكب. عدل واجتب. ملحق: نازل لا حق.

(133) ديوانه ص 119.

(134) ديوان الحماسة 452/1.

3- الكف مع الوجه: وهى حركة اللطم. ويعبر بها عن الروع أو الفرع

الشديد، كقول عمر:

نجت أمى ولم يلد الأوى سمروا

وصاحبى هندوانى به أنـر

فلم يرعها، وقد نضت مجامعها

إلا مـواد وراء البيت يـستر

فلطمت وجهها واستبهت معها

بيضاء آنـة من شأنها الحذر⁽¹³⁵⁾

4- الكف مع النحر أو الصدر: ويعبر بصك النحر - وهى حركة نسائية عادة -

عن الإنكار أو التعجب من أمر غير لائق. ومن ذلك قول المهذلول بن كعب العنبرى:

نقول - وصكت نحرها يمينها -

أبعلى هذا بالرحى المتقاعس⁽¹³⁶⁾

فصكها وجهها حين القول (مثلاً فى هذا الاستفهام الإنكارى) تأكيد سلوكى

حركى مرئى لاستنكارها الشديد إقدامه على عمل من أعمال النساء، هو الطحن بالرحى

لأضياف، وقد ظهر فى جلسة مزرية بالرجال متقاعساً؛ أى دخل ظهره وخرج صدره.

وربما صدرت هذه الحركة من الرجل، لاسيما عند الشعراء الغزلين المترققين

ذرى القلوب الضعيفة!، كقول العباس بن الأحنف:

إذا القلب أوما أن يطير صبابـة

ضربت له صدرى وألزمه كفى⁽¹³⁷⁾

(135) ديوانه ص 136.

(136) ديوان الحماسة 289/1، والصك: الضرب الشديد بشيء عريض، أو هو الضرب مطلقاً.

(137) ديوانه ص 208.

وإن كان الضرب هنا أداة تثبيت وتصبر، ومن ثم تتوقع أن تتفاوت طبقتة عما سلف، فتدوم الكف على الصدر مدة الطول، ويكون قرارها عليه أثبت وأكد مما رأينا عند زوجة العنبري، ويدعم ذلك قول العباس - في بيته السابق - : (والزمته كفى). وهذا من أهم ما ينبه إلى تفاوت طبقات الحركة أو الإشارة مع تفاوت وظائفها التبليغية.

5- اليد مع الجبين : وذلك أن صك الجبين يتخذ علامة بصرية على تمكن الشيء من الإنسان. ومن هذا قول العباس بن الأحنف أيضاً:
فلا هي تفر من مرها
ولا نحن من شربها فاترونا
إذا أمكنت بعضنا لم يزل

يرفعها أو يصك الجبين⁽¹³⁸⁾

6- اليد مع اليد : وهي حركة مسح اليدين: إحداهما بالأخرى. وهي علامة على الانتهاء من الشيء أو تركه أو إيماله. وهي من أطرف الحركات التي نجد لها امتداداً في بعض استخداماتنا في العصر الحديث. وقد وردت تلك الحركة في قول العباس:

من ماب فيك عدواً أو أخائقة

فامسح يدبك، وكن منه على الياس⁽¹³⁹⁾

(138) ديوانه ص 289

(139) ديوانه ص 180

(3) الهيئات والأوضاع الجسمية :

يقصد بالهيئة الحالة التي يكون عليها الشيء محسوسة كانت أو معقولة، لكن في المحسوس أكثر⁽¹⁴⁰⁾. ويقصد بالوضع هنا الهيئة في حال تغيرها من صورة إلى صورة مع تغير موضوع الكلام أو حالة الخطاب.

وغنى عن البيان أن الحركات الجسمية السابقة - لا سيما الحركات المركبة - مما يجعل الجسم أخذاً هيئة بعينها أو يسلك وضعاً بدنياً خاصاً. وإذا كانت تلك الحركات في مجملها - مقارنة بما سترأه الآن من حالات - تتسم بالجزئية ومحدودية ما تنتجه من تغير بدنى، فإن لنا أن نجعل الحركات المركبة ممثلة أوضاعاً جزئية. ومن ثم، سوف نمحس كلامنا هنا للأوضاع الحركية الجسمية الكلية أو الكبرى.

ولا شك أن الإبانة عن الهيئة أو الوضع، مما يكسب الواقعة الاتصالية - في النص المكتوب - حيوية ودقة استحضار في الخيال.

وحرى بالإشارة هنا أن العرب قد نظروا إلى بعض الحركات على أنها حركات مستكرهة؛ لأن الهيئات الجسمية التي تتج عنها تنافى ما تحب العين أن تقع عليه؛ ومن ذلك وضع اليد في الخاصرة، وهو ما يستقبحه العربى حتى اليوم. روى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها، أنها كانت تكره أن يجعل يده في خاصرته، وتقول : إن اليهود تفعله⁽¹⁴¹⁾.

(أ) القرآن الكريم :

في النص القرآنى مواضع عدة لتعيين سلوكيات جسمية تتخذ هيئات وأوضاعاً دالة تعبيرياً. ويمكننا أن نميز بين عشر هيئات وأوضاع أساسية على الأقل، وهى:

(140) المفردات ص 548

(141) متن البخارى 257/2

1- هيئة الخشوع : ويعبر عنها بخر الأذقان، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (الإسراء 107)، قوله :
﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الإسراء 109). ومعنى خر:
سقط سقوطاً يسمع منه خرير.

والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو⁽¹⁴²⁾. ولعل
استعمال الخرف في الآية تنبيه على اجتماع أمرين. السقوط، وحصول الصوت منهم
بالبكاء خشوعاً. وقد جعل الزركشى الأذقان في الآية من إطلاق اسم الجزء على
الكل؛ فالأذقان عنده الوجوه⁽¹⁴³⁾.

2- هيئة التواضع : ويعبر عنها بمحفظ اليد أو الجناح، ومن ذلك قوله تعالى :
﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر 88)، وقوله : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء 215)، وقوله : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ
مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (الإسراء 24). قال السيوطي في آية الشعراء: «(وبلغة بني حنيفة:
الجناح : اليد).⁽¹⁴⁴⁾ وقال أبو عبيدة : (واخفض جناحك) أى ألن جانبك
وكلامك»⁽¹⁴⁵⁾. وقال الزركشى في آية الإسراء: «فإنه يستحيل حمله على الظاهر؛
لاستحالة أن يكون آدمى له أجنحة، فيحمل على الخضوع وحسن الخلق»⁽¹⁴⁶⁾.

3- هيئة المذلة والقهر: وهى رضا فى مذلة، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة 29)، والصاغر: الراضى بالمتزلة

(142) المفردات ص 144.

(143) البرهان 2/ 266.

(144) الإتيان 1/ 135.

(145) مجاز القرآن 2/ 91.

(146) البرهان 2/ 206.

الدنية⁽¹⁴⁷⁾ ويدخل في ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ سَيَذَخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ ﴾ (غافر 60). قال الأصفهاني: «أى اذلاء، يقال: أدخرته؛ أى أذلكه فذل»⁽¹⁴⁸⁾.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (السجدة 12)، وقوله: ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ (الأنبياء 64 - 65). قال أبو عبيدة: «ثم نكسوا على رؤوسهم مجازة قلبوا. ويقال: نكست فلانا على رأسه، إذا قهره وعلاه ونحو ذلك»⁽¹⁴⁹⁾. وقال الراغب: «النكس: قلب الشيء على رأسه»⁽¹⁵⁰⁾.

وقال الزركشى فى آية السجدة السابقة: «أخرج فى صورة الخطاب لما أريد العموم؛ للفصد إلى تفضيع حالهم، وأنها تنامت فى الظهور حتى امتنع خفاؤها، فلا تختص بها رؤية راء تختص به، بل كل من يتأتى منه رؤية داخل فى هذا الخطاب»⁽¹⁵¹⁾.

ويعبر عن تلك الهيئة أيضاً بإخضاع العنق، كقوله تعالى: ﴿ إِنْ كُنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (الشعراء 4).

4- هيئة الارتداد والتولية: ويعبر عنها بالانقلاب على الأعقاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ﴾ (البقرة 143)، وقوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

(147) المفردات ص 282

(148) المرجع السابق 166

(149) مجاز القرآن 2/40

(150) المفردات ص 505

(151) الرهان 1/114

الرُّسُلُ أَفْلَاحٌ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴿ آل عمران 144 ﴾، وقوله: ﴿ قُلْ أُنذِرُوا مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرْثُ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ ﴾ (الأنعام 71).

قال أبو عبيدة: «انقلبتم على أعقابكم»: كل من رجع عما كان عليه، فقد رجع على عقبيه⁽¹⁵²⁾. وقال: «ونرد على أعقابنا»: يقال: رد فلان على عقبيه؛ أي رجع ولم يظفر بما طلب ولم يصب شيئاً⁽¹⁵³⁾. والعقب: مؤخر الرجل... ورجع على عقبه: إذا انشأ راجعاً، وانقلب على عقبه نحو رجع على حافرته⁽¹⁵⁴⁾. وقال الشوكاني: «أى كيف ترتدون وتركون دينه إذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو ويتمسك أتباعهم بدينهم»⁽¹⁵⁵⁾.

ويعبر عن هذا المعنى بالنكوص على الأعقاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٌّ مِنْكُمْ ﴾ (الأنفال 48). قال أبو عبيدة: «نكص على عقبيه» مجازة: «رجع من حيث جاء»⁽¹⁵⁶⁾. وقال ابن كثير (ت 774 هـ): «قال ابن جرير: قال ابن عباس فى هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين وألقى فى قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإنى جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة (نكص على عقبيه) قال:

(152) مجاز القرآن 1/ 104.

(153) المرجع السابق 1/ 196.

(154) المفردات ص 340.

(155) فتح القدير 1/ 385.

(156) مجاز القرآن 1/ 247.

رجع مدبراً، وقال إنى أرى ما لا ترون: وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين، معه رايته، فى صورة رجل من مدلج، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس... فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب، فرمى بها فى وجوه المشركين، فلولوا مدبرين» (157)

5- هيئة الضيق: ويعبر عنها بتصعد الصدر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام 125).

6- هيئة اللهو: ويعبر عنها برفع الرأس، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمْنَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّبُونَ﴾ (١٥٨) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (١٥٩) وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ (النجم 59 - 61). والسامد: اللاهى الرافع رأسه، من قولهم: سمد البعير فى سيره (158). ومن هذه الهيئة أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيُزِمِرَ تَشَخُّصٌ فِيهِ الْإِبْصَرُ﴾ (١٦٠) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (إبراهيم 42 - 43). يقال هطع الرجل يبصره: إذا صوبه، ويعبر مهطع: إذا صوب عنه (159)، واقنع رأسه رفعه (160). وقال المبرد (ت 285 هـ): «وقال الله جل وعز (مقنعي رؤوسهم): ومن قال: هو الرافع رأسه، فتأويله عندنا أنه يتناول، فينظر ثم يطاقن رأسه، فهو بعد يرجع إلى الإغضاء والانكسار» (161).

(157) تفسير القرآن العظيم 317/2.

(158) المفردات ص 241.

(159) المفردات ص 543.

(160) المرجع السابق ص 413.

(161) الكامل 97/2.

7- هيئة التأبى : ويعبر عنها بشد الرأس إلى خلف. وهو هنا التأبى عن الانقياد للحق، والغفلة عن الإنذار. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَلاً فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ (يس 8). وجاء فى مسائل نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس، قال: «أخبرنى عن قوله تعالى: (مقمحون)، قال: المقمح: الشامخ بأنفه المنكسر رأسه. أما سمعت قول الشاعر.

ونحن على جوانبها قمرود نغض الطرف كالإبل القماح⁽¹⁶²⁾

ولعل غض الطرف هنا علامة التغافل عن الشيء إهمالاً له وكبرا عليه، لا علامة حياة وعفة.

وقال الراغب: «والقمح رفع الرأس لسف الشيء؛ ثم يقال لرفع الرأس كيفما كان قمح. وقمح البعير رفع رأسه، واقمحت البعير شددت رأسه إلى خلف. وقوله: (مقمحون) تشبيه بذلك، ومثل لهم، وقصد إلى وصفهم بالتأبى عن الانقياد للحق وعن الإذعان لقبول الرشد، والتأبى عن الاتفاق فى سبيل الله. وقيل: إشارة إلى حالهم فى القيامة»⁽¹⁶³⁾.

8- هيئة التكبر : ويعبر عنها بسلوكيات حركية عدة، منها إبعاد الجانب أو تشنيه، أو مد الظهر. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ (الإسراء 83). قال أبو عبيد: «نأى بجانبه» أى تباعد بناحيته وقربه⁽¹⁶⁴⁾.

ومنها قوله أيضاً: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ثَانِي عَظِيمِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ (الحج 8-9). قال أبو عبيدة:

(162) الإتيان 1/ 130.

(163) المفردات ص 412.

(164) مجاز القرآن 1/ 389.

«ثاني عطفه»: يقال «جاءني فلان ثاني عطفه: أي يتختر من التكبر»⁽¹⁶⁵⁾
 ومن مد الظهر بتخترًا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ (القيامة 33) وقال الفراء (ت 207 هـ): يتمطى يتختر؛ لأن الظهر هو المطا، فيلوى ظهره
 بتخترًا، وهذه خاصة في أبي جهل⁽¹⁶⁶⁾
 وقد يدل على هذه الهيئة أيضاً بتصغير الخد، وقد نهى عنه الرسول صلى الله
 عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾
 (لقمان 18)

«والصغر: ميل في العنق، والتصغير: إمالة عن النظر كبراً»⁽¹⁶⁷⁾
 9- هيئة الإهمال: ويعبر عنها ببند الشئ وراء الظهر. ومن ذلك قوله تعالى:
 ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 101)، وقوله
 ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ
 ظُهُورِهِمْ﴾ (آل عمران 187)، وقوله: ﴿قَالَ يَنْفَوِّرُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ
 وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ (هود 92). قال أبو عبيدة: «واتخذتموه وراءكم ظهرياً»
 مجازة: ألقيتموه خلف ظهوركم، فلم تلتفتوا إليه. ويقال للذي لا يقضى حاجتك ولا
 يلتفت إليها: «ظهرت بحاجتي وجعلتها ظهرياً أي خلف ظهرك»⁽¹⁶⁸⁾

(165) المرجع السابق 45/2

(166) الفراء (أبو زكريا يحيى بن رباد): معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت ط3 (1401 هـ 1983 م) 212/3.

(167) المفردات ص 281

(168) بحار القرآن 298/1 ومثل ذلك قال به أيضاً المبرد (الكامل 15/1) والرابع (المفردات ص 817) والشوكاني (فتح القدير 119/1)

10- هيئة التقدير : ويعبر عنها بتقيد البدن إلى العنق. وقد نهى عن التقدير، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ (الإسراء 29). قال أبو عبيدة: «مجازه في موضع قولهم: لا تمسك عما ينبغي لك أن تبذل من الحق، وهو مثل وتنبه» (169).

11- هيئة الاستخفاء : ويعبر عنها بتنى الصدر، كقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران 161) «إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَتَّخِظُوا مِنْهُ» (هود 4-5). وقد أبان المنطوق اللفظي عن تعبيرية هذا السلوك الحركي (تنى الصدر)؛ نهر عندهم - وسفهم موفور - للاستخفاء من الخالق جل شأنه. ولعل تنى الصدر - باعتبار ارتباطه بالعنق والرأس من جانب وبالجلد من جانب آخر - مما يعرض هيئة جسمية أو وضعاً بدنياً كاملاً، تختفي فيه ملامح الشخص الظاهرة والدالة عليه. ولعل هذه الهيئة علامة مرئية على سراير مخفية. قال الزركشي: «وقوله (إلا إنهم يتنون صدورهم) أى يُبَيِّنُونَ ما فى ضمائرهم» (170). وقال مجاهد: «يتنون صدورهم»: شك وامترأ في الحق ليتخفوا منه من الله إن استطاعوا (171).

(ب) الحديث النبوى :

ما نص عليه من هيئات وأوضاع فى متون الأحاديث النبوية الشريفة أقل بكثير جداً مما كنا قد رأينا مع الحركات البسيطة والمركبة. وهذا أمر طبيعى، بل ربما كان مميزاً للاتصال المكتوب بعامة. وفى الاتصال المنطوق يلاحظ أيضاً قلة الأوضاع والهيئات الجسمية التى يتخذها المتكلم أثناء التخاطب قلة ملحوظة إذا ما قيست بالسلوكيات

(169) مجاز القرآن 1/ 375.

(170) البرهان 2/ 213.

(171) متن البخارى 3/ 141.

الحركة الأخرى.

ولعل أهم ما يميز الأوضاع والمهيات التي نص عليها رواية الحديث، ارتباطها
الحميم بمجرى التكلم وبتنظيم الموضع أو المحور.
ويمكننا أن نميز هنا بين هيتين اثنتين هما:

1- هيئة تغيير المخاطب.

2- هيئة التأهب (لنطوق خاص).

ومهما يكن من أمر، فإن اتخاذ الرسول الكريم تلك الأوضاع في مخاطباته، مما
يبين - بوضوح تام - المواءمة اللطيفة الفعالة دلاليًا بين السلوك الاتصالي اللفظي
والسلوك الاتصالي الحركي.

من المهية الأولى وصية الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمته يوم النحر: «يا
أيها الناس: أي يوم هذا؟ قالوا: حرام. قال: فأى بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فأى
شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال: فإن دعاءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام
كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. فأعادها مرارًا، ثم رفع رأسه،
فقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟» (172).

وبالرغم من أن رفع الرأس في ذاته، يبدو لنا - للوهلة الأولى - حركة جسمية
بسيطة صادرة عن عضو بعينه، فقد جعلناها هنا من المهيات والأوضاع؛ لأنها غيرت
وضع الجسم من حال إلى حال مرتبطة بتغير حالة الخطاب ومحوره. أما مجاله الخطاب،
فقد غيرت من مخاطبة المخلوقين إلى مخاطبة الخالق. وأما المحور فقد تغير من التبليغ
ذاته إلى الإشهاد عليه.

ومن هيئة التأهب (لنطوق خاص) ما روى عن عبد الرحمن بن أبي بكره من

(172) متن البخاري 4/48.

أبيه رضى الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أنبئكم بالكبر
الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان منكناً
فجلس؛ فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور. ألا وقول الزور وشهادة الزور. فما زال
يقولها حتى قلت لا يسكت⁽¹⁷³⁾. وفي رواية: «فما زال يكررها حتى قلنا ليته
يسكت»⁽¹⁷⁴⁾ = مرطبه صمكة

وتغيير الوضع الجسمي هنا علامة على تغير محور الخطاب في حد ذاته من
ناحية، وعلامة على التنبيه إلى أهمية ما يلي من ناحية أخرى⁽¹⁷⁵⁾، ولا سيما أنه تغيير
من اتكاء إنما فيه عادة من استرخاء واطمئنان إلى جلوس (بما فيه من إظهار هيئة
التنبيه والإحاطة). وقد استخدم المنطوق ذاته وسيلة لفظية لتوكيده؛ وهى التكرار.
وينبغي لنا ابتداءً تأمل المنطوقات المكررة بالآلة الاستفاحية، المنبهة إلى ما بعدها، وأن
نتأمل أيضاً تحمّري الاختصار بحذف عامل النصب في (قول)؛ وهو الفعل (أخصر).
واختزال المنطوق - على هذا النحو - يناسب الغرض الإنجازي الذي أراده، وهو
التحذير.

ونستطيع - بناء على ذلك - أن نلمح الملاءمة القوية بين هيئة السلوك الحركي
والفعل الإنجازي الذي تضمنته المنطوق الذي تلاها. وهذه الملاءمة توطد - دون شك
- التضافر بين الحركة والمنطوق؛ فإذا افترضنا أن حركة من النوع السابق (بما هي
علامة على التأهب لقول شيء مهم) وقعت في واقعة اتصالية أخرى، وقد تلاها

(173) المرجع السابق 102/2.

(174) المرجع نفسه 102/2.

(175) والأصل في الزور تحسين الشيء ووضعه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه أنه خلاف ما
هو به. وفي القرآن تهيب من الوقوع في شهادة الزور (النساء 135، المائدة 8، الفرقان 72، البقرة
140، الطلاق 2، الحج 30، الأعراف 33)

منطوق يحمل مضموناً تافهاً، فإن التوافق الدلالي بينهما سيختل، وستصبح تلك الحركة فارغة من مقزاها.

(ج) الشعر العربي :

أما الهيئات والأوضاع في الشعر العربي، فمن أهمها ما يلي :

1- هيئة المذلة : ويعبر عنها بخفض الرأس، كقول عمر بن المكعب الضبي (جاهلي):

ساروا إلينا وهم صيّد رؤوسهم

فقد جعلنا لهم يوماً كأيام⁽¹⁷⁶⁾

2- هيئة الحيرة والانشغال : ويعبر عنها بعدّ الحصى، أو الخط في الأرض.

وربما اتخذ الجسم - إذ ذاك - وضعاً خاصاً، مع حركة اليد وقسمات الرجة الدالة على تلك الحيرة. ومن ذلك قول عنتره.

يا عبل كم من فارس خليته في وسط رابية يعدّ حصاها⁽¹⁷⁷⁾
ومن ذلك أيضاً قول ذي الرمة:

وما يرجع الوجد الزمان الذي مضى

وما للفتى في دنة الدار مجزع

عشيرة مالي حيلة غير أنسى

بلقط الحصى والخط في الأرض مولع⁽¹⁷⁸⁾

3- هيئة القلق : ويعبر عنها بنبو الجنب عن المضجع، ومن ذلك قول ابن

زيدون:

(176) يحيى الجبوري (دكتور): قصائد جاهلية نادرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2 (1408 هـ - 1988 م)، ص 198.

(177) ديوانه ص 242.

(178) ديوانه ص 720 / 2.

واشكرو نبؤ الجنب عن كل مضجع

كما يتجافى بالأسير ظراب⁽¹⁷⁹⁾

4- هيئة الاستغراب أو الدهشة الشديدة : ويعبر عنها بالتنفس صعدا، ومن

ذلك قول عمر:

قالت ذا الصغرى وقد حلفت:

بالله لا يأتيكما شهرا

فتنفست صعدا لحلفتها

وهوت فشقت جيها فطرا⁽¹⁸⁰⁾

قال محقق الديوان: «تنفت صعدا: تنفت بارتياح بعد تعب»⁽¹⁸¹⁾. وغاب عنه

تحديد معنى الحركة من خلال الموقف؛ فالحركة الواحدة قد تدل على معان متعددة

بتعدد المواقف أو الوقائع الاتصالية والأغراض. وإذا كان التعبير «تنفس الصعداء»،

فى موقف مناسب يعنى الارتياح بعد تعب، فهو فى هذا الموقف يعنى ما حدّناه له،

وهو الدهشة الشديدة أو العجب من أمر متبَعَد، بدليل شق الثوب شقاً فى الشطر

الثانى من البيت.

نتائج التحليل للتنظير :

مما سبق نلاحظ - بوجه عام - أن السلوكيات الحركية بأنواعها وفروعها

المختلفة، قد لعبت دوراً كبيراً فى إنتاج المعنى على نحو غير مباشر، مما يناسب الطبيعة

الجمالية والفنية للنصوص المكتوبة المحللة. وتستطيع تلك التحليلات - وقد استوعبت

(179) ديوان ص 44 والظرب : ما نأى من الحجارة.

(180) ديوانه ص 170.

(181) المرجع السابق ص 170.

أهم الحالات والنماذج - أن تقدم بعض المعطيات والنتائج ذات الاعتبار لنظرية السلوك الحركى بخاصة، ولنظرية الاتصال بوجه عام، ونقدمها - فى إيجاز - على النحو التالى:

1- الواقعة الاتصالية الكلية: لفظية وغير لفظية، أساسية فى تعيين معنى الحركة أو الإشارة أو الهيئة السلوكية الحركية؛ فالإشارة الواحدة - كالوحدة اللغوية الواحدة - تتعدد معانيها خارج الموقف أو الواقعة الكلامية، ولكنها تتخصص داخلها. وقد رأينا فى التنفس صعداً - فى بيت عمر السابق - كيف أخطأ المحقق فى تعيين المعنى؛ بأنه لم ينظر إليه فى ضوء الواقعة الكلامية الخاصة.

2- هناك وقائع اتصالية تبنى كاملة على سلوكيات حركية فحسب، أى تبنى كاملة على علامات غير لفظية، على نحو ما رأينا فى شعر العباس بن الأحنف. ومحددات المغزى - إذ ذاك - هى طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل، والمعرفة المشتركة بينهما، وخلفية الاتصال التاريخية، وعرفية معنى السلوك الحركى داخل جماعة كلامية بعينها، وهى كلها محدّدات تداولية موقفية.

3- تؤكد التحليلات السابقة حقيقة جوهرية فى بحث السلوكيات الحركية؛ هى أن تلك السلوكيات تستخدم - فى حالات كثيرة، لا سيما فى الوقائع الاتصالية المباشرة؛ أى المنظورة تفاعلياً بين المتكلم والمخاطب - تستخدم بديلاً بصرياً عن العلامات اللغوية السمعية. فى مثل تلك الحالات، يغلب أن يكون استخدام الاتصال اللفظى مبدوءاً به من طرف المرسل، وأن يكون رد الفعل الاتصالى السلوكى الحركى من طرف المستقبل. فضلاً عما رأينا من حالات سابقة، نذكر هنا - للتوضيح - هذا الموقف الاتصالى البسيط الذى يحكيه العباس بن الأحنف:

فقلت لها : يا فوز، هل لي إليكم سبيل؟ فقالت بالإشارة : أبشر (182)

4- القول بالإشارة - لا بالعبارة - في مثل ما سبق، هو استدعاء قناة اتصال بصرية، يسمح به الاتصال المباشر الذي يجمع طرفي الاتصال: المتكلم والمخاطب زمناً ومكانياً. وهناك سلوكيات حركية يعسر جداً أن تُحوّل من رسائل غير لفظية إلى تعبيرات لغوية. وإذا أمكن ذلك مع مثل تلك السلوكيات، فسيظل هناك بون فاصل بين الصورة - بصرية والصوت المعبر عنها. ولذلك نجعل تحويل الصورة المرئية إلى صوت معبر، أي إلى تعبير لغوي، نوعاً محدداً واضحاً للتحديد اللفظي. فإذا رأينا العربية في النصوص المكتوبة المختلفة على هذه المقدرة من حكاية الإشارة إلى عبارة، أمكننا أن

نشهد للعربية - شدة طاقتها التعبيرية والبيانية وقدرتها على عمل صور في العقل. وإذا كانت الحركات والإشارات، تمثل - سيميائياً - نوعاً من الرمزية الاتصالية؛ فهناك - على أية حال - صنف آخر أشد خصوصيةً من هذه الرمزية الاتصالية: بصرية أو سمعية، كعلامات التدخين، ونفير النداء في الجيش، وأصواء السكك الحديدية ونحوها مما نعرفه اليوم. وهذه جميعاً وسائط اتصالية يسهل على المرء معها - وإن لم تترجم حرفياً بالرجوع إلى الكلام - أن يعبر بالكلام عن مقصد الاتصال؛ كأن يقول : ممنوع التدخين، أو هبوا، أو : قف، ونحوها.

5- لقد رُسِمَت تلك السلوكيات الحركية اللغة العربية بالحوية والحركة، وزودتها - تعبيرياً - بطائفة من التعبيرات اللغوية الاصطلاحية، وجملة من الأمثال التي اتخذت الحركة أو الإشارة مرتكزاً جوهرياً لبنيتها الدلالية. وإذا أردنا أن نتعرف على عدد من تلك التعبيرات اللغوية الحركية، من خلال مصدر لغوي واحد من مصادر التراث، فلنعد - مثلاً إلى (الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن بن عيسى الحمذاني (ت 320 هـ) (183)، لنقرأ فيه ما يلي:

(182) ديوانه ص 142.

(183) الحمذاني (عبد الرحمن بن عيسى): الألفاظ الكتابية، راجعه وقدم له الدكتور السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط 1 (1406 هـ - 1986 م).

- نكص على عقبيه وارتركس (ص 19).
- اغضيت عنه جفنى (ص 20).
- جعلته دبر اذنى (ص 21).
- ويقال : فلان فى قبضتك (ص 22).
- عجمت عوده المعجم: العضم. وعجمت عوده: أى بلوت أمره وخبرت حاله (ص 33).
- ويقال : جبر كسر فلان (ص 36).
- ويقال : قد استشرف فلان للفتنة أو للأمر: يطمع فيه، وتطاول له، واشرب إليه، وسما إليه، ومدّ عنقه، ورمى بطرفه إليه، وطمح ببصره إليه ونحوه، وفقر فاه ونحوه، وشحاه له فاه (ص 36).
- فى باب إظهار العداوة : أبدى صفحته (ص 39).
- وفى باب المعارضة والمواربة : يكاشره مكاشرة (ص 40).
- وفى باب حسم الفساد : زمت لسانهم (ص 44).
- وفى باب الجبان : انتفخ سخره أى رثته من الجبن (ص 50).
- وفى باب الخوف : ارتعدت فرائضه فرقاً، ...، وتغير له لونه (ص 51).
- وفى باب التنجية : رخيت خناقه (ص 55).
- وفى باب الحلم : خافض الجناح (ص 60).
- وفى باب السخاء : أرحب صدره، وأبسط كفه (ص 63).
- وفى باب الاستغاثه : شد على عضده (67).
- وفى باب الانحراف : ثنى عطفه عنه، وطوى كشحه عنه (ص 76).
- وفى باب الخيبة : تقول العرب للمنصرف عن حاجته بالياس والقنوط والقوت : جاء يضرب أصدره، وأزدره (ص 80).

- وفى باب الاحتراز وشحذ الراى : تشمر ... وضم جناحيه، وضم اطرافه (ص 81 - 82).

- وفى باب التكبر : يقال : شخ بأنفه، ونفخ بأنفه، وزم ... ويقال : هو أصيد، وأشوس، وأزوره إذا كان مائل العنق من الكبر (ص 82).

- وفى باب خذل المتكبر : طاطات من إشرافه، وقصرت من بصره (ص 82).

- وفى باب الحزن والامتعاض : أغض طرفى، ...، وأخشع طرفى، ونكس بصرى (ص 91).

- وفى باب أجناس السرور : رفع ناظرى (ص 92).

- وفى باب شراسة الخلق : المشاوس الذى ينظر إلى جانب (ص 98).

- وفى باب رفع الشأن : مررت بضيعه (ص 119).

- وفى باب بمعنى فلان مجرب فى الأمر ومدرّب : قد عض على ناجذه : أى أسن وجرب (ص 124).

- وفى باب الدهش : سقط فى يده، وكبير فى ذرعه (ص 124).

- وفى باب الموت : لعق إصبه (ص 145).

- وفى باب القرى والحلول فى المكان : خفض له جناحه (ص 153).

وربما نقلت حركة إنسانية نقلاً مجازياً إلى مجال دلالي آخر، على نحو ما نجد فى

باب انتهاء الليل وورود الصباح من قولهم فى ذهاب الليل :

- ولّى قفاه (ص 164).

ونحسب أن مثل التعبيرات اللغوية السابقة - وقد وجد المزداني المتوفى فى عام

320 هـ فى نصوص العربية رصيداً هائلاً منها مائة هامة فى أبواب كتابه -

نحسب أنها لم تكن وقفاً على الاستخدامات الأدبية الخاصة، إنما كان قدر كبير منها

على الأقل، مما اعتاده الناس فى مخاطبتهم اليومية المنطوقة.

ولعل وفرة الأمثال التي عولت على الحركة والإشارة - بما لتلك الأمثال من تداولية الاستخدام بين الجماعة الكلامية - مما يدعم ما قلناه.

أما هذه الأمثال التي نعيها هنا، فإن النظر إلى أحد مصادرها الأساسية، وهو كتاب (مجمع الأمثال) للميداني، يقدم لنا طائفة من الأمثال التي بنيت على عرفية المعنى السلوكي الحركي، ومنها:

- كوى عنه ذراعاً إذا عصاه ولم يسمع منه (199/2)
- هو يقرع سين نادماً (385/2).
- إذا قلت له رن، طأطأ رأسه وحزن يضرب للرجل البخيل (61/1)
- نثنى على الأمر رجلاً أى قد وثق بأن ذلك له، وأنه قد أحرزه (153/1)
- جاء تضبب لثته على كذا. والضبب والضبيب: السيلان، يُضرب فى شدة الحرص (163/1).
- جاء ناشراً أذنيه إذا جاء طامعاً (163/1)
- جاء يمرر رجله بضرب لمن يجيئ مثقلاً لا يقدر أن يحمل ما حمل (164/1)
- جاء يضرب صدره أى منكبيه، إذا جاء فارغاً لم يقض طلبه (163/1) (184)

ومما يلاحظ هنا أن السلوكيات الحركية التي عولت عليها تلك الأمثال من نوع الهيئة أو الوضع البدني وتداول تلك الأمثال بين الناس، مما يكشف عن عرفية معانيها السلوكية الحركية واصطلاحيتها. وكانوا يقولون: إذا لم تُسمع فأتبع⁽¹⁸⁵⁾، أى إن عجزت عن الإسماع لم تعجز عن الإشارة.

(184) وانظر أمثلة أخرى جمع الأمثال 163، 171، 175، 177، 237، 308، 361

(185) المرجع السابق 77/1

6- وبالرغم من عرقية معظم السلوكيات الحركية اجتماعياً، فإنها تتفاوت فيما بينها فى درجة التداولية والطرافة. وإذا كانت تعبيرات الوجه والعينين من ناحية، والإشارات والحركات الجسمية البسيطة من ناحية أخرى، هى الأكثر تداولاً ومصاحبة للكلام، فإن منها ما هو أكثر طرافة من غيره؛ كحركة مسح اليدين علامة على ترك الشيء وإهماله. واليدان أداة العمل والمزاولة. ولعل أهم مقاييس الطرافة - إن لم يكن أهمها إطلاقاً - بعد الحركة نسبياً عن المباشرة والآلية، مما يمنح الخيال فسحة التصور: فمسح اليدين - فى الحال السابقة - يجعلنا نتصور إنساناً فرغ لتوّه من طعام أو عملٍ تلبّسه، وأراد أن يخلص يديه مما علق بهما من آثار، بأن يتعهدهما بالمسح. وهى - من ثم - حركة تخيلة. إن مغزى الحركة فى مثل ذلك استنباطى موقفى، وهو يختلف - بلا شك - عن مغزاها فى مثل قول حاتم الطائي:

وراحوا عجالاً ينفضون أكفهم يقولون : قد دمى أناملنا الحفر⁽¹⁸⁶⁾

فالحركة هنا مباشرة، غير دالة؛ وذلك أنه يعنى المعنى الحرفى للحدث، وأنهم ينفضون أكفهم مما علق بها من تراب بسبب الحفر.

7- تعددت وظائف السلوكيات الحركية فى اللغة المكتوبة؛ فهى حيناً وظيفة مصاحبة الأحاديث وأشكال الاتصال الشفهى الأخرى، وحيناً آخر وظيفة دلالية تكميلية مهينة شكل علاقات الاتصال ومدعمته، وحيناً ثالثاً تشير إلى الموقف والشخص والسلوك الانفعالى لأحدهم تجاه الآخرين أو ضد الآخرين، وحيناً رابعاً - على نحر ما رأينا فى الهيئات والأوضاع - مؤشرة على تغير محور الكلام أو الموضوع.

8- من نوعية الإشارات والأوضاع المنقولة إلى اللغة المكتوبة لفظياً، يمكننا - إلى

(186) ديوانه ص 49.

حد ما - أن يستنتج - بالنظر إلى المسافات التقريبية بين المشاركين في الاتصال - أن الاتصال اللفظي بين العرب كان - بوجه عام - اتصالاً عن قرب وفي احتكاك مباشر غالباً. وما نجده الآن من عادات اتصالية بين المشاركين في الخطاب في البيئات العربية المختلفة عموماً، إنما هو - فيما نحسب - امتداداً لعادات اتصالية موروثة.

9- ينبغي أن نبرز هنا أيضاً ما لا حظناه في موضعه من «المواءمة الدلالية» بين المنطوق والسلوك الحركي الذي يصاحبه. وقد تجلّى ذلك - على نحو ما رأينا - في النص القرآني، وفي الحديث النبوي، وفي بعض السياقات الشعرية، على اختلاف - بالطبع - في المستوى. وكان الجاحظ - فيما رأينا في الفصل السابق - يقول بأن حسن الإشارة من تمام حسن البيان باللسان.

10- تبدو العلاقة بين السلوك الكلامي والسلوك الحركي في أكثر الحالات، علاقة تكافلية؛ فأحدهما يحيا من خلال الآخر. وربما كانت علاقة استبدالية في بعض الحالات، حينما يصبح السلوك الحركي بديلاً اتصالياً - في وقائع بعينها - عن السلوك الكلامي الخالص.

11- ينبه تحليل السلوكيات الحركية بأنواعها الرئيسة الثلاثة إلى ضرورة تأمل علاقتها بالسلوكيات الكلامية في إنتاج الدلالة في النص المكتوب من ناحية، وتأمل آثارها المنفردة القوية في إنتاج الدلالة التصورية بخاصة من ناحية أخرى. وينبغي ألاّ ينتهي تحليل النص عد اكتشاف أنماطه وأبنيتة اللغوية المجردة، بل ينبغي أن يأخذ في الحسبان دائماً الأحوال الشاهدة وما تزوّد به بنية النص لفظياً من وصف تلك الأحوال؛ كتعبيرات الوجه، وطبقة النظرة، واتجاه الحركة، والمسافة بين المتخاطبين ونحو ذلك مما يقدم مفاتيح جديدة للفهم والتفسير.

- 12- يمكننا القول بأن هناك سلوكيات حركية تختص بجنس دون الآخر. وبما اختصت به المرأة، أو كان غالباً معها - على الأقل - صك الوجه، أو صك النحر، أو وضع الكف على الكبد. ونلاحظ هنا أيضاً أن إشارات الأصابع بخاصة تصدر عن المرأة بخاصة كثيراً جداً، كأنها شفرتها المأمونة التي نجيدها، والتي تفر بها من مغبة المكتوب؛ أي الاتصال اللفظي المكتوب، على نحو ما رأينا في نصريح علبة بنت المهدي وعلى نحو ما رأينا من اعتماد الإشارات كثيراً لغة صامتة عند محبوبات عمر!
- 13- تستبج البيئة العربية هينات بعينها كوضع اليد في الخاصرة. وتدل هينات أخرى على تغير محور الخطاب كالجلوس والاعتدال بعد انكاء أو استرخاء. وهناك هينات تُرد على سبيل الاستهزاء كثنّي الصدر استخفاءً، وهناك هينات أخرى بلاغية، وليست - فيما يبدو لنا - من السلوكيات الحركية الطبيعية؛ كجعل اليد مغلولة إلى العنق.

تم بحمد الله

قائمة المراجع

(1) المراجع العربية والمترجمة :

- 1- البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) . متن البخارى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (1978م).
- 2- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي) : ديوانه، فسر ألفاظه ووقف على طبعه محي الدين الخطاط، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة، د.ت. : ديوان الحماسة، شرح العلامة التبريزي، دار القلم، بيروت، د.ت.
- 3- ابن جنى (أبو الفتح عثمان) : الخصائص، تحقيق محمد على النجار، دار الكتاب العربى، بيروت، د.ت.
- 4- حاتم الطائي: ديوانه، دار صادر، بيروت (1401 هـ - 1981م).
- 5- الخنساء : ديوانها، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.
- 6- ذو الرمة (غيلان بن عقبة العدوى): ديوانه، تحقيق دكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط 1 (1402 - 1982م)
- 7- الراغب الأصفهاني: المفردات فى غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلانى، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- 8- الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله) : البرهان فى علوم القرآن، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (1972)
- 9- زهير بن أبى سلمى: ديوانه، دار صادر، بيروت، د.ت.
- 10- ابن زيدون : ديوانه، شرح الدكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربى، ط 1 (1411 هـ - 1991م)

- 11- السيوطي (جلال الدين): نزهة الجلساء في أشعار النساء، شرحه وعلق عليه سمير حسين حلي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة (1989م).
- 12- شبلتر (برند): علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة دكتور محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة (1987م).
- 13- الصنعاني (عمد بن إسماعيل الأمير): سبل السلام، تحقيق إبراهيم عصر، دار الحديث، القاهرة، د.ت.
- 14- العباس بن الأحنف: ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر (1406 - 1986م).
- 15- أبو عبيد (معمّر بن المنثى التيمي): مجاز القرآن، عاذه بأصوله وعلق عليه دكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر، د.ت.
- 16- العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر): فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قام على طبعه وتصحيحه محمد فؤاد عبد الباقي وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- 17- أبو العلاء المعري: ديوان سقط الزند، المجموعة الكاملة، شرح وتحقيق دكتور ن. رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- 18- عمر بن أبي ربيعة: ديوانه، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1 (1412هـ - 1992م).
- 19- عنترة: ديوانه، قدم له وضمن حواشيه سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ت.د.
- 20- غبرو (بيار): السيمياء ترجمة أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات،

- بيروت - باريس (1984م).
- 21- الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد): معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط ١٠ (1401 هـ - 1983م).
- 22- الفزري (الخطيب): الإيضاح في العلوم البلاغية، شرح وتعليق ونفيع دكتور محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار التكتساب اللباني، ط 4 (1395 هـ - 1975م).
- 23- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل): تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت (1403 هـ - 1983م).
- 24- كثير عزة: ديوانه، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (1413 هـ - 1993م).
- 25- كوهين (جان): بناء لغة الشعر، ترجمة دكتور أحمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة (1985م).
- 26- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، ت. د.
- 27- محمد العبد (دكتور): اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية، د الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة - باريس، ط 1 (1990م).
- المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، دار مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١ (1424 هـ - 2006م).
- 28- الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري): مجمع الأمثال، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السطة المحمدية، القاهرة (1374 هـ - 1955م).

- 29- الميداني (عبد الرحمن بن عيسى): الألفاظ الكتابية، راجعه وقدم، له
دكتور السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط 1 (1406 هـ - 1986 م).
- 30- النابغة الذبياني: ديوانه، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب
العلمية، بيروت ط 1 (1405 هـ - 1984 م).
- 31- يحيى الجبوري (دكتور): قصائد جاهلية نادرة، مؤسسة الرسالة، بيروت،
ط 2 (1408 هـ - 1988 م).

(2) المراجع الأجنبية :

- 1- Austin, J., L. : How to do Things with Words,? Oxford Uni. Press (1992).
- 2- Bernstein, B. : Social Class, Language and Socialization, in : Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990).
- 3- Birdwhistell, Ray, L.: A Kinesic linguistic Exercise: The Cigarette Scence, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds.): Directions in Sociolinguistics, Basil Blackwell, Oxford (1989).
: Kinesics and Context: Essays on Body Motion Communication, Uni. of Pennsylvania Press, Philadelphia (1970).
- 4- Breckle, Hebert, T. Semantik, Eine Einfuehrung in die sprachwissenschaftliche Bedeutunslehre, 2., verbesserte Auflage, Wilhelm Fink Verlag – Muenchen (1971).
- 5- Brown, Gillian and Yule, George: Discourse Analysis, Cambridge Uni. Press (1984).
- 6- Burton, D. : Towards an Analysis of Casual Conversation, Nottingham linguistic circular, 17,2, (1978).

- 7- Chafe, W.L. : The Flow of Thought and the Flow of language, in : T. Givon (ed.), Syntax and Semantics, Vol. 12: Discourse and Syntax, Academic Press, New York (1979)
- 8- Coseriu, Eugenio: Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Gunter Narr Verlag, 2., durchges. Auflage, Tuebingen (1981).
- 9- Coulthard, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis, Longman Group Ltd, 6 th impression, England (1983)
- 10- Danesi, Marcel: From fact to artifact, A transformational Model of human Semiosis, in: Marcal Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics, Canadian Scholars' Press, Toronto (1992).
- 11- De Beaugrande, Robert – Alain and Dressler Wolfgang, Ulrich: Introduction to text linguistics, Longman, London – New York (1993).
- 12- Dolezel, Lubmir: Zur Statistischen Theorie der Dichtersprache, in: Helmut Kreuzer und Rul Gumzenhaueser (hershg.): Mathematik und Dichtung, 4. Auflage, Nymphenburger Verlagshandlung, Muenchen (1970).

- 13-Ekman, P., and Friesen, W.V.: Hand Movements, in: *Journal of Communication*, 22 (1972).
- 14-Enkvist, Nils Erik: *Linguistic Stylistics*, Mouton, The Hague – Paris (1973). And Spencer, Michael Gregory: *Linguistics and Style*, Oxford Uni. Press, London (1964).
- 15-Firth, J., R. : *Personality and Language in Society the Sociological Review*, Vol. 42 (1957).
- 16-Fishman, J., A. : *The Sociology of Language* in: Pier Paolo Giglioli (ed.): *Language and Social Context, Selected Readings*, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990).
- 17-Glinz, Hans: *Textanalyse und Verstehenstheories*, Bd. 1-2, 2. Auflage, Akademische Verlagsgesellschaft, Athenaion – Wiesbaden (1977) – (1978).
- 18-Gosling, John: *Kinesics in Discourse*, in: Malcolm Coulthard and Martin Montgomery (eds.): *Studies in Discourse Analysis*, Routledge, London and New Youk (1981).
- 19-Grice, Paul: *Logic and Conversation*, in: Cole and Morgan (eds.) (1975).
- 20-Gumperz, J. : *The Speech Community*, in Pier Paolo Giglioli (ed.): *Language ans Scoial Context, Selected Readings*, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990).

- 21-Hall, Edward, T.: The Silent Language, Ny: Doubleday, Garden City (1959).
- 22-Halliday, M.A.,K.: Language as Social Semiotic: The Social interpretation of Language and Meaning, Rutledge, Chapman and Hall Inc. U.S.A (1993).
- : Spoken and Written Language, 2 ed. Impression, Oxford Uni. Press (1990)
- and Hasan, Ruqaiya: Language, Context in a Social – Semiotic perspective, Oxford Uni. Press (1990).
- 23- Hasan, Ruqaiya: Linguistics, Language and Verbal Art, Oxford Uni. Press (1989)
- 24-Hewes, Gordon, W. : Primate Communication and the Gestural Origin of Language, in Current Anthropology 14 (1973).
- 25-Hinde, Robert: Biological basis of human Social behavior, McCraw – Hill, New York (1974).
- 26-Hockett, C.F.: A Course in Modern Linguistics, Macmillan Co. (1958).
- 27-Hymes, Dell, H: Models of the interaction of Language and Social life, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds).: Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of

- Communication, Basil Blackwell, New York (1989).
- : Sociolinguistics and the Ethnography of Speaking, in:
Ardener, E. (ed.): Social Anthropology and Linguistics,
Association of Social Anthropologists Monograph 10,
Tavistock, London (1971).
- : Toward Ethnographies of Communication: The Analysis of
Communicative Events, in: Pier Paolo Giglioli (ed.): Language
and Social Context, Selected Readings, Penguin Books,
Clays Ltd. England (1990).
- 28-Jakobson, Roman: Linguistics and Poetics, in: Marcel
Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing
Semiotics, Canadian Scholars Press – Toronto (1992).
- 29-Kinsdane, Marcel: Minor Hemisphere Language and
Cerebral Maturation, in: Eric, H., Lenneberg and Elizabeth
Lunenburg (eds.): Foundations of Language development,
2. chap., 6 Academic Press, New york (1975).
- 30-Kluckhohn, C.: Notes on some Anthropological Aspects of
Communication, Amer. Anthropol., Vol. 63 (1961).
- 31-Labov, W.: The Study of Language in its Social Context, in: Pier
Poalo Giglioli (ed.): Language and Social Context, Selected
Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990)

- 32-Leech, Geoffrey: Semantics, Penguin Books, Printed in Great Britain (1976).
- 33-Levin, Samuel, R.: Statistische und determinate Abweichung in poetischer Sprache, in: Helmut Kreuzer und Rul Gunzenhaueser (hrsg.) Mathematik und Dichtung, 4. Auflage, Nymphenburger Verlagshandlung, Muenchen (1971).
- 34-Morley, G.D.: An Introduction to Syatemic Grammar, Macmillan, London (1985).
- 35-Mukarovsky, J.R.: Standard Language and Poetic Language, in: P.L. Garvin (ed. And Tr.): A Prague School Reader on esthetics, Literary Structure and Style, Washington (1964).
- 36-Pike, Kenneth: Phonetics, A Critical Analysis of phonetic Theory and Technical for the Practical Description of Sound, Ann. Arbor, Uni. Of Michigan Press (1943).
- 37-Salzman, Zdenek: Language, Culture and Society, An Introduction to linguistic Anthropology, West view press, Oxford (1993).
- 38-Sebeok, Thomas, A.: Zoosemiotic Components of human Communication, in : Marcel Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics, Canadian Scholars Press –

- onto (1992).
- ler, Herbert: Allgemeine Stilistik, 2., neubearbeitete Auflage, Vandenhoeck und Ruprecht – Goettingen (1963).
- 40-Sinclair, J. Mc. H., and Coulthard, R., M.: Towards an Analysis of Discourse, Oxford uni. Press, Londons (1975).
- 41-Slobin, Dan Isaac: Psycholinguistics, Scott, Foresman and Company, 2 nd. Edition (1979).
- 42-Soell, Ludwig: Gesprochene und geschriebenes Fanzoesisch, Erich Schmidt Verlag, 2. Auflage, Berlin (1980).
- 43-Sowinski, Bernhard: Textlinguistik, Eine Einfuehreung. Verlag W. Kohlhammer, Stuttart. Berlin – Koeln – Nainz (1983).
- 44-Stubbs, Michael: Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis of Natural Language Basil Blackwell, Oxford (1989).
- 45-Taylor, Richard: Understanding the elements of literature, Hong Kong (1981).
- 46-Van Dijk, Teum, A. : Dialogue as Discourse and Interaction, in : Teun A. Van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis, Vol. 3: Discourse and Dialogue 3. ed printing,

London (1989).

Text and Context, Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse, Longman, London, New York (1980).

47-Watson, O., Michael and Graves, Theodor, D.: Quantitative Research in Proxemics Behaviour, in: Amer. Anthrop., Vol: 68 (1966).

48-Widdowson, H., G.: Stylistics and the teaching of literature, Longman Group Ltd. London (1979).

49-Zangwill, Oliver, L.: The Relation of Nonverbal Cognitive Functions to Aphasia, in: Eric H. Lenneberg and Elizabeth Lenneberg (eds.): Foundations of Language development, 2. Chap., 6, Academic Press, New York (1975).



GN:28835
BibID:10265614
301.14.ε ε

